موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

أحاديث رمضان

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ

ومضات ولقطات إيمانية

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٠١-٦٤) : الإيمان بالغيب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

قف عند كلمة الغيب :

أيها الأخوة، في أول سورة البقرة يقول الله عز وجل:

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

[سورة البقرة الآية: ١-٣]

نقف عند كلمة واحدة في هذه الآية، وهي كلمة الغيب.

أيها الأخوة الكرام، نحن نعيش واقعاً محسوساً، هذا الواقع فيه بيوت، فيه مركبات، فيه نساء، فيه طعام، فيه دخول كبيرة، فيه دخول قليلة، الإنسان يعيش واقعاً، أما الآخرة فخبر، تقرأ القرآن، يقول الله لك:

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

[سورة الضحى الآية: ٤]

لكن الآخرة غير محسوسة، مثال ذلك:

الإنسان يعيش في بيت مع زوجته، وهما في تفاهم، يسعد بها، وتسعد به، وله صديق بين زوجته وبينه خصام، وهي عند أهلها، والبيت في فوضى، والأولاد ليس هناك من يطعمهم، وليس ثمة من يعتني بهم، وحياته متعبة جداً، الأول يعيش واقع السعادة الزوجية، أما مشكلة صديقه فهي فكرة عنده، لكن الثاني يعيش الشقاء الزوجي، أما سعادة صديقه فهي فكرة .

من هو المؤمن؟ :

الآن أيها الأخوة الكرام: نحن جميعاً نعيش الدنيا، نعيش الواقع، فيهمُّنا الدخل، والرزق، والصحة، والأولاد، والزوجة، لكن قضية الآخرة ليست واقعاً محسوساً، بل هي فكرة، مِن الذي أخبرك أن هناك آخرة؟ لو أن الذي



أخبرك هذا الخبر إنسان عادي لا نأبه له إطلاقاً، أما إذا كان الذي أخبرك خالق الأكوان، خالق الإنسان، قال: ينبغي أن تأخذ إخبار الله كأنك تراه، والدليل: قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل الآية: ١]

من منكم رأى أصحاب الفيل؟ ولا أنا رأيت، لكن قال علماء التفسير: ينبغي أن تأخذ خبر الله وكأنك تراه.

هذا إخبار من خالق الكون، قال تعالى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل الآية: ١]

إذاً: لم يأت، لكن الله سبحانه وتعالى ما دام قد أخبرنا أنه سيأتي فكأنه أتى، من هو المؤمن؟ هو الذي يؤمن بالغيب.

هذا البطل :

أنت راكب دراجة، الطريق مستوٍ، وجدت طريقين، طريقًا نازلاً، وطريقاً صاعداً، كل خلية بجسمك، وكل قطرة بدمك، تدعوك إلى سلوك الطريق النازل، لأنك راكب دراجة معطيات، الطريق سليمة، الطريق معبد، تحفه الأشجار، والرياحين، والورود، ونسمات لطيفة وعليلة، هذا الواقع، الواقع يدعوك أن تسلك الطريق النازل،

بين طريق سهل ينتهي بحفرة وطريق وعر ينتهي بقصر

لكن لوحة صغيرة كتب عليها: أن هذا الطريق النازلة تنتهي بحفرة ما لها من قرار، فيها وحوش كاسرة وجائعة، هذا النص يجب أن يعكس قرارك الطريق الصاعدة، مع أنها وعرة، وفيها غبار، وفي حر، لكنها تنتهي بقصر، هو لمن وصل إليه .

أنا أعطيكم مثلاً حاداً: الواقع المحسوس يدعوك أن تسلك الطريق الهابط، لكن النص الذي عند مفترق الطرق يدعوك أن تسلك الطريق الآخر، المتعبة، الصاعدة، التي فيها أكمات ، فيها عقبات، فمن هو البطل؟ ولا سيما إذا كان المخبر هو الله، البطل الذي يقرأ هذا القرآن، ويصدق ما فيه، ويعمل بمقتضاه، ولا يؤخذ بمظاهر الحياة الدنيا .

هذا حال الناس :

لا أبالغ، معظم الناس يعيشون الواقع فقط، يريد أن يأكل، وأن يشرب، وأن يستمتع بالحياة، ولا يعبأ كثيراً ما إذا كان دخله حراماً أو حلالاً، لا يعبأ كثيراً أن الله سيسأله عن كل درهم كسبه، من أين اكتسبته؟ وفيم أنفقته؟ يعيش الواقع، يأكل، يشرب، يستمتع، يتنزه، يملأ عينيه من محاسن النساء، يتابع الفضائيات حتى ساعة متأخرة من الليل، يقول: هذه الحياة، هو يعيش واقع ممتع، أما الآخرة التي سيحاسب فيها عن كل شيء فهي فكرة، وليست واقعاً، لذلك عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْقَاضِي الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَاعَةٌ، يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ قَطُّ))

[أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، والإمام أحمد في مسنده]

قصة لها مدلولها :

العبد الفقير، سافرت إلى بلد بعيد، البلد البعيد في نصف الكرة الجنوبي، فأنا هنا أشعر بالحر، الحرارة ثلاثة وأربعون، أنا أعيش واقع الحر، فتحت، سألت، فوجدت أن الوقت هناك شتاء، والحرارة هناك سبع أو ثماني درجات، بقيت فكرة، هذه لم تكن واقعاً، لم آخذ من الثياب شيئاً إلا ما هو صيفي، أعيش واقع الحر، ولم أنتبه إلى الفكرة التي قرأتها في موقع معلوماتي عن تلك البلاد، فلما وصلت عشت واقع البرد، تمنيت لو معي ثياب شتوية، درس لا أنساه .

ما هو سبب سلامة الإنسان وسعادته؟ :



كلمة: يؤمنون بالغيب، من هو البطل؟ الذي يصدق الله بهذا القرآن.

أيها الأخوة الكرام، إن لم تعكس موازينك وخطتك لم تؤمن بالغيب، الواقع يدعوك أن تأخذ المال، والقرآن يدعوك أن تنفق المال، الواقع يدعوك أن تستمتع بالحياة، والقرآن يدعوك أن تنضبط وفق منهج الله، الواقع يدعوك أن تنام، والواقع يدعوك أن تستيقظ:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة المزمل الآية: ١-٢]

الآن نحن في أول ليلة من ليالي رمضان، البطولة أن تؤمن بالغيب، أما الإيمان بالواقع فسهل جداً تعيشه أنت، أيّ إنسان يقول: أنا واقعي، البطولة: أن تؤمن بهذه اللوحة التي تؤكد لك، أن هذا الطريق الذي يريحك، ويسليك، ويمتعك: ينتهي بحفرة مالها من قرار، وأن هذا الطريق الصاعدة المتعبة الذي لا تحبه فيها غبار، وعقبات وأكمات، هذا الطريق الذي سوف يسعدك، من هو البطل؟ الذي يؤمن بالغيب.

مشكلات الناس في معظمها يعيشون الواقع لا يهتمون بغذائهم، الأغذية الطيبة الرائعة تسبب أمراضاً كثيرة جداً، ترى إنساناً يؤمن بما يقوله الأطباء، يأكل الأكل الصحي، ولا تأخذه الشهوة إلى أكل يؤذيه، إذاً: الإيمان بالغيب هو سبب سلامتنا وسعادتنا.

نحن أمام القرآن الكريم، إن شاء الله البطولة في رمضان أن تصدق الواحد الديان، أن تصدق رب العالمين، أن تعمل بهذا الخبر.

قف عند هاتين الكلمتين :

غير العاقل لا يدرك الخطر والعاقل يردعه التنبيه

وكنت أضرب مثلاً دائماً أعدته كثيراً: إنسان متجه إلى حمص في أيام الشتاء، ودمشق فيها شمس، والطرقات جافة كلها، إذا بلوحة كتب عليها: الطريق إلى حمص مغلقة بسبب تراكم الثلوج، وضعت اللوحة في النبك، في ظاهر دمشق ماذا تفعل؟ تعود، ما الذي أعادك إلى بلدك؟ النص، اللوحة، لو أن دابة تمشي أين تقف؟ عند الثلج، ما الذي حكمها؟ الواقع، القضية بكلمتين: إن كنت عاقلاً يحكمك النص، وإن عطلت عقلك يحكمك الواقع.

الناس يعيشون، يأكلون، يشربون، يتمتعون، ولا يلتفتون إلى ذلك اليوم الذي تحاسب فيه عن كل كلمة، وعن كل حركة، وعن كل سكنة، وعن كل صلة، وعن كل قطيعة، وعن كل قطيعة ، وعن كل غضب، وعن كل رضا، لماذا فعلت؟.

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا تَزُولُ قدمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ: فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟))

ما معنى أتى في هذه الآية: (أتى أمر الله ...)؟ :

فأنا وقفت عند كلمة واحدة؛ كلمة الغيب، إن كنت مؤمناً برب السموات والأرض تأخذ كلام الله لا على أنه غيب، لكن على أنه مشهود، يجب أن تتلقى إخبار الله وكأنك تراه، يجب أن ينقلب الغيب عندك إلى واقع، قال تعالى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل الآية: ١]

أتى: فعل ماض، قال:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل الآية: ١]

المعنى أنه لم يأت، معنى ذلك: أنه كونك مؤمناً، وقد أخبرك الله عز وجل أن هذا اليوم سوف يأتي، توقن أنه قد أتى.

موضوع اليوم :

فهذا موضوع اليوم، كلمة:

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

[سورة البقرة الآية: ٣]

لكن لو فرضنا أن الآخرة محسوسة كالدنيا، جميع الناس يتجهون إلى الآخرة، ولا يسعدون بها، لأنهم ما فعلوا شيئاً، أما أنت فتقاوم متع الأرض، متع الدنيا التي حرمها الله عز وجل، وتلتزم بما سمح الله لك به، اعتماداً على إخبار الله لك، أن هناك يوماً تسعد فيه إلى أبد الآبدين ، فبقدر إيمانك بذلك اليوم، تكون ممن تنطبق عليهم هذه الآية:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

[سورة البقرة الآية: ٣]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٠٢-٦٤) : ما كان الله ليضيع إيمانكم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

ما معنى هذه الآية؟ :

أيها الأخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ١٤٣]

ما معنى الآية؟:

أولاً: ما كان الله ليضيع، هذا أبلغ نفي في اللغة العربية، هذا نفي الشأن -أي بالتعبير الدارج-: مستحيل وألف ألف مستحيل أن تفعل شيئاً يقتضيه إيمانك، ولا تنال عليه مكافأة كبيرة.



أحياناً إيمانك يمنعك أن تأكل مالاً حراماً فيبقى دخلك محدوداً، بينما الذي لا يهتم للحلال و الحرام يأتيه دخل فلكي، أنت ماذا فعلت بإيمانك؟ ضيعت دخلاً كبيراً لأنك مؤمن، هناك أشخاص لا يتقيدون بشيء، يستمتعون، يأكلون ما يشتهون، يلتقون مع من يحبون، لا يوجد عندهم رادع، ولا قيمة، ولا مبدأ، ولا شيء، هؤلاء يبدو أنهم مستمتعون بالحياة، هم يعيشون كما يحبون، المؤمن مقيد، هذه حلال، هذه فيها شبهة، هذه لا تجوز، هذا الدخل مشبوه، العمل مع فلان فيه تعامل ربوي.

مستحيل أخواننا الكرام مؤمن لا يدفع ثمن إيمانه خسارة في الدنيا:

من أحب آخرته أضر بدنياه، ومن أضر بدنياه أحب آخرته.

أي يوجد ثمن، فالشخص لا يتوهم أبداً أنه ممكن أن أستمتع بالدنيا كما يستمتع عامة الناس، وأصل إلى الجنة في أعلى مرتبة، لا، الجنة لها ثمن، ولا بد من أن تدفع الثمن، فهذا الذي تدفعه أيها الأخ الكريم، اعتقد اعتقاداً جازماً أنه مستحيل وألف ألف مستحيل أن تخسر، مستحيل أن تطيعه وتخسر، وأن تعصيه وتربح. العبرة الإيمان.

تصور خاطىء حول مفهوم الدين :

الذي يعيش بلا قيد لا يستوي مع من التزم منهج الله

وقالوا:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

[سورة القصص الآية: ٥٧]

معظم الناس الدين يخافون منه، متعب، ثم يوضع الإنسان استفهام، إذا كان طليقاً بلا قيد، و لا شرط، ولا اتجاه، ولا لون، ولا طعم، هكذا مع الناس، يتجنب أن يحضر درس علم، يقول لك: أحسن، يتجنب أن يتعلم شيئاً هو يعيش لمصلحته، هذا الذي اقتضت مصلحته: أن يبتعد عن الدين، مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعامل كمن التزم منهج الله ودفع ثمن التزامه.

أيها الأخوة الكرام، العدل الإلهي يجب أن نفهمه فهماً عميقاً:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

[سورة القصص الآية: ٥٧]

ماذا يقول بعضهم الآن؟ أي إذا أنت خفت من الله، وارتعدت فرائصك خوفاً منه، ولم تضع مالك في البنك، يدخلون عليك ويقتلونك، ما قولك؟ هكذا يعامل الله عباده المؤمنين؟ يحرم شيئاً أشد التحريم، ويتوعد من يفعل هذا الشيء بحرب من الله عز وجل، فإذا خفت من الله دخلوا عليك وقتلوك؟ هكذا فهم العوام للدين مصلحتك فوق كل شيء، لكن المؤمن يرى أن طاعته لله فوق كل شيء:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

[سورة القصص الآية: ٥٧]

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ١٤٣]

أيعقل هذا؟ :

أحياناً شاب يختار عملاً شريفاً، عملاً شرعياً، لكن دخله قليل، إنسان آخر يختار عملاً فيه دخل كبير جداً، يستمتع بالحياة، يشتري البيوت، والمركبات الفارهة، وينظر إلى هذا الذي أطاع الله نظرة دونية، أيرضى الله عز وجل أن يكون الذي أطاعه في درجة دنيا، وأن الذي عصاه في درجة عليا؟ يقول الله عز وجل:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ١٢٨]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص الآية: ٦١]

الآمر ضامن :

أخواننا الكرام، نحن بحاجة إلى إيمان، الأمر كله بيد الله:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف الآية: ٨٤]

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية: ١٢٣]



المسلم في أي مكان بالعالم متهم

بكلمة جامعة مانعة: الآمر ضامن، الله عز وجل حينما يأمرك بالطاعة، يضمن لك السلامة والسعادة، لكن لا ترى أحياناً السلامة على شبكية العين، ترى الأخطار محدقة بالمؤمن كما هي الحال الآن، العالم كله يحارب المسلمين، المسلم في أي مكان بالعالم متهم، متهم بالإرهاب ، بالقتل، يجب أن يُقاوم، يجب أن يباد، ومع ذلك هناك من يدخل في دين الله بأعداد كبيرة، الدين الأول في العالم في نموه هو الإسلام، مع أنه محارب في شتى بقاع الأرض.

فإنسان اعتقد اعتقاداً صواباً والتزم، وقال: هذه حرام، معاذ الله! لا تصدق أن إنساناً لم يعبأ بالأمر

ولا بالنهي، ولا بالوعد ولا بالوعيد، ومع ذلك هو في بحبوحة، وهو أذكى، وأكثر نجاحاً في الحياة: من الذي خاف من الله واستقام على أمره.

قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

المؤمن مقيد، الإيمان قيده عن كثير من هوى نفسه.

بشرى لك أيها المسلم :

أنا أقول:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة التوبة الآية: ١١١]

استبشر: قد تكون في الطبقة الدنيا من المجتمع، وقد تكون في التعتيم الإعلامي، ولا أحد يأبه لك، لكنك عند الله كبير، لكنك عند الله ملتزم.

الخسائر التي تنتج عن إيمان العبد هل يضيعها الله؟ :

هذه الآية دقيقة جداً:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ١٤٣]

الخسائر التي نتجت عن إيمانكم سوف تكافؤون عليها أضعافاً مضاعفة.

صدق أيها الأخ الكريم: لا يوجد إنسان يؤمن إلا و يوجد خسائر.

أحد أخواننا الكرام عنده مطعم، ولربع قرن كان يبيع فيه المشروبات التي لا ترضي الله عز وجل، تاب، أقسم بالله الغلة نزلت للعشر وأقل، طبعاً هو يدفع ثمن إيمانه، لكن الله عز وجل يعوضه أضعافاً مضاعفة؛ في إيمانه، وفي سعادته، وفي سكينته، وفي حكمته، وفي الأمن الذي يحس به، وفي التوفيق الذي سيلقاه في المستقبل، ثم في جنته، تظن أن تفعل شيئاً بلا ثمن مستحيل، أي:


السعادة والسكينة ثمن الإيمان

ما أحسن عبد من مسلم أو من كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أم في الآخرة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ١٤٣]

أي إنسان ما باع دينه بعرض من الدنيا قليل، إنسان أحياناً يملك مبلغاً فلكياً، ويموت متسمماً ، ويأتي طبيب شرعي، لو قال: الموت طبيعي، يأخذ خمسة وعشرين مليوناً، يكتب: الموت عمل إجرامي، ويبقى على راتب لا يكفيه أيام، هذا هو الإيمان، لكن الله سبحانه وتعالى مستحيل وألف ألف مستحيل ألا يكرمه في الدنيا قبل الآخرة، لكن لا بد من الإيمان، الإيمان أن ترى أن الله يستحيل على كماله أن يضيع إيمانك، أنت آمنت ولأنك آمنت فوت فرصاً كبيرة جداً، لأنك آمنت اخترت زوجة من الدرجة الثانية لكنها مؤمنة، التي من الدرجة الأولى متفلتة، خفت من الله فاخترت الثانية، مستحيل إلا أن تسعد بالثانية أضعاف ما تتوهم أن تسعد بالأولى، هذه الآية أعتقد كافية، كي تدفعنا جميعاً إلى مزيد من التضحية، وإلى مزيد من الالتزام، وإلى مزيد من التفاؤل.

الآن ما يجري في العالم لا يصدق، ومع ذلك المستقبل لهذا الدين، هذا الدين هو الذي سينتصر.

من مشاهد التاريخ :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال الآية: ٣٦]

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران الآية: ١٢]

لو عدنا إلى التاريخ قليلاً: قريش بيدها الجزيرة العربية بأكملها؛ أموال، وجاهات، وسيطرة، وخيول، وسيوف، والصحابة الكرام مستضعفون فقراء، في النهاية ماذا حصل؟ هؤلاء الذين


تقف أمام قبر النبي وأصحابه وتتذكر كيف نصرهم الله

عارضوا النبي وحاربوه عشرين عاماً أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ، أنت حينما تذهب إلى المدينة المنورة، تقف أمام قبر النبي وتبكي، ثم تقف أمام قبر الصديق وتبكي، ثم تقف أمام عمر وتبكي، لماذا؟ هؤلاء كانوا ضعافاً وكانوا فقراء، لكنهم نصروا الحق، البطولة أن تكون متفائلاً، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ١٤٣]

لكن نحن بحاجة إلى إيمان قوي، ولعل هذه الصلاة -إن شاء الله-، وهذا القرآن الذي يتلى علينا، لعله يشحذ هممنا، ويدفعنا إلى عمل مخلص، عمل هادف، عمل منضبط بالشرع.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٠٣-٦٤) : منازل الإيمان - السماع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

ما المراد بمعنى هذه الآية؟ :

أيها الأخوة الكرام، النشاط الذي تمارسونه في هذا الدرس هو السماع، والله عز وجل يقول:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

[سورة ق الآية: ٣٧]

(لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)

[سورة ق الآية: ٣٧]

أي: ابحث، ودقق، وأعمل عقله إلى أن توصل إلى الحقيقة، كأنه صنع طعاماً بنفسه، أو ألقى السمع وهو شهيد، كأنه أكل طعاماً جاهزاً، أنت إما أن تفكر، وأن تعقل، وأن تتأمل، وأن تبحث، وإما أن تستمع إلى الحق جاهزاً.

قف هنا :



لذلك في قوله تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

[سورة آل عمران الآية: ١٦٤]

كأب وضع ابنه في أرقى مدرسة، هذا حقه، وهذه المدرسة يمكن أن تجعل هذا الطالب في أعلى الدرجات، وفضلاً عن ذلك جعل له أستاذاً خاصاً، لذلك سئلت البارحة من أخ كريم: ما دامت هذه الرسالة لكل الأمم والشعوب، فلماذا كانت اللغة العربية لغتها، وهذه اللغة لا يستمع إليها كل البشر؟. قلت له: القرآن الذي يقرأه كل إنسان من دون استثناء، من أي لون، ومن أي جنس، ومن أي لغة هو الكون، الكون قرآن صامت، يضاف إلى هذا الكون الذي يقرأه كل إنسان، هذا الكتاب الذي بين

أيدينا، هو كون ناطق، وإذا أردت أن تقرأ سيرة النبي -عليه الصلاة والسلام- وأحاديثه، فهو قرآن يمشي.

هناك قرآن يقرأه كل إنسان، والكون هو الشيء الثابت الوحيد الذي لا يختلف فيه اثنان.

ماذا قال الله عن السماع؟ :

فلذلك أيها الأخوة الكرام، نبدأ سلسلة هذه الدروس في فجر رمضان حول منازل الإيمان، فاليوم النشاط الذي يتم في أثناء الدرس هو السماع، فماذا قال الله عن السماع؟ قال تعالى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا)

[سورة التغابن الآية: ١٦]

وكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، قال تعالى:

(وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا)

[سورة التغابن الآية: ١٦]

لأن الإنسان إذا استمع ولم يطع كأنه ما استمع، قال تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

[سورة التحريم الآية: ٤]

علامة الإصغاء والسماع أن يترجم إلى عمل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

[سورة الأنفال الآية: ٢٠-٢١]



قلت لواحد: على كتفك عقرب، بقي هادئاً، بقي مرتاحاً، التفت نحوك بهدوء، قال لك: شكراً على هذه الملاحظة، أسأل الله أن يمكنني أن أكافئك عليها، هل سمع ما قلت له؟ ما سمع إطلاقاً، لو فهم ما قلت له لقفز وصرخ، إذاً: قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

[سورة الأنفال الآية: ٢٠-٢١]

فهذا الذي يتولى، يستمع ولا يطيع كأنه ما استمع، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ)

[سورة النساء الآية: ٤٦]

(فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة الزمر الآية: ١٧-١٨]

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ)

[سورة المائدة الآية: ٨٣]

أيها الأخوة الكرام، النشاط الذي يمارسه المؤمن في حياته، في أغلب أوقاته هو سماع الحق ، لكن البطولة أن تسمع، وأن تستجيب، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ٢٤]

كيف السبيل لمن لا يتقن اللغة العربية كيف السبيل إلى معرفة التفاصيل:



لكن قد يسأل سائل: إن هذا الكون يدل على الله، ولكن في الإسلام تفاصيل، أوامر تفصيلية، فهذا الذي لا يتقن اللغة العربية، كيف السبيل إلى معرفة هذه التفاصيل؟ طمأننا الله عز وجل، فقال:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ٢٣]

يعني لا بد من أن يستمع الإنسان إلى الحق، وأن يهيىء الله له من يسمعه الحق، إذا كان فيه ذرة خير، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل الآية: ١٢]

تولى الله بذاته العلية هداية خلقه.

بالمناسبة: لا تستطيع جهة في الأرض مهما قويت: أن تفسد على الله هدايته لخلقه، لكنهم يهددون ويخططون، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال الآية: ٣٦]

الخيارات لديك للوصول إلى الحقيقة :

الآية الثانية: قال تعالى:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا)

[سورة الحج الآية: ٤٦]

إما أن تفكر، وأن تعقل، وأن تتأمل، وأن تبحث، وأن تدرس، وأن تستقرئ ما في الكون، فتصل إلى الحقيقة كما فعل سيدنا إبراهيم، وإما أن يأتيك الحق جاهزاً فتستمع إليه، الحالة الثانية أهون بكثير، والحالة الأولى تحتاج إلى جهد كبير، لكن الله سبحانه وتعالى ما كلفنا ما لا نطيق، الحق جاهز، القرآن الكريم الذي بين أيدينا، هو القرآن الذي نزل على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والأحاديث التي بين أيدينا، هيأ الله لها أناساً دقّقوا، ومحصوا، وبحثوا، وصنفوا هذه الأحاديث، وإن بإمكانك أن تقتني كتاباً من صحاح الأحاديث.

إذاً: هناك حق جاهز ينبغي أن تنتفع به.

أنواع المستمع :

أيها الأخوة الكرام، المستمع أنواع؛ هناك من يسمع بطبعه، ونفسه، وهواه، فهذا حظه من مسموعه، يعني لا يفهم إلا ما يوافق شهوته، أو يوافق مصلحته، أو يوافق هواه، هذا يسمع بطبعه، ونفسه، وهواه، حظه من المسموع ما وافق طبعه، لكن إنساناً آخر هناك من يسمع بحاله، وإيمانه، ومعرفته، وعقله، هذا يأخذ من المسموع ما كان متوافقاً مع إيمانه، هذه مرتبة أعلى، وأرجو أن نكون منها، هناك من يسمع بالله لا يسمع بغيره، كما بالحديث:

((كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

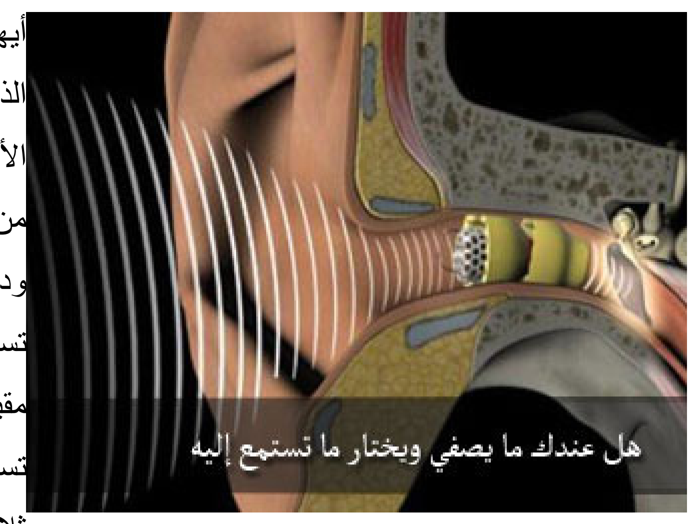
يعني لا يرى إلا ما صوره القرآن، ولا يسمع إلا ما صوبه القرآن، وكأنه يسمع بالله عز وجل، فالذي يسمعه يعرضه على الكتاب والسنة، فإذا وافقه قبله وإلا رفضه، ومعنى قوله تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء الآية: ٨٨-٨٩]

القلب السليم: هو القلب الذي لا يقبل خبراً يتناقض مع وحي الله.

أنواع المسموع :



أيها الأخوة الكرام، الآن المسموع هذا الذي يلقى، وما أكثر ما يلقى في هذه الأيام، تسمع من مذياع، من محاضر، من محاضرة، من ندوة، من حديث ودي، من حديث عائلي، من لقاء أهلي، تستمع والكلام فيه ما هب ودب، أعندك مقياس للحق؟ أعندك ما يصقّي ما تستمع إليه؟ لذلك المسموع مستويات ثلاثة: مسموع يحبه الله، ويرضاه، وقد أمر عباده، وأثنى على أهله، ورضي عنهم به، مسموع يبغضه الله، ويكرهه، ونهى عنه، ومدح المعرضين عنه، مسموع مباح مأذون فيه، لا يحبه، ولا يبغضه، ولا مدح صاحبه، ولا ذمه، فحكمه حكم سائر المباحات ، وأنت تستمع في كلام نابع من القرآن الكريم، أو من السنة، أو من فعل الصحابة الكرام، أو من اجتهاد العلماء الربانيين، هذا مسموع يحبه الله.

هناك مسموع آخر يبغضه الله، كلام الشياطين، تزيين الشهوات، اقتحام المعاصي والآثام، تزيين الدنيا، إنكار الوحي، هذا مسموع يبغضه الله عز وجل، والإنسان عندما يدرس تطور الأسعار بمادة معينة هذا مباح، لا يبغضه الله، ولا يمدحه، من شؤون الدنيا.

مشكلة أهل النار :

لذلك أيها الأخوة الكرام، مشكلة أهل النار الأولى: قال تعالى:

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك الآية: ١٠]

معنى ذلك: كم من إنسان يسلم، ويسعد عن طريق السمع فقط؟ كم من إنسان في الأرض يسلم، ويسعد، وينجح في الدار الآخرة عن طريق سماع الحق؟ فهذا الذي يقول لك: لا أجد وقتاً أحضر به مجلس علم، يحرم نفسه سبيل سلامته وسعادته، الإنسان أحياناً يتلقى مسموعات غير صحيحة، أو مشوهة، أو لا علاقة لها بسلامته وسعادته، والناس الآن يقرؤون، يتابعون، يشاهدون، يستمعون لا إلى الحق، بل إلى غير الحق، فلذلك كيانهم النفسي بعيد عن الحق، معلوماتهم التي يستمع إليها بعيدة عن أسباب سلامته وسعادته، فلذلك أيها الأخوة الكرام: ثمة إنسان يستمع إلى أهوائه وشهواته، ولا يعي من الذي سمعه إلا ما وافق طبعه وشهوته وهواه، وإنسان يستمع بعقله وإيمانه وقيمه، هذا إنسان جيد، لكن هناك إنسان أرقى من هذين، يسمع بالله، ويرى بالله:

((كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ))

أي: لا يرى إلا بنور الله، ولا يستمع إلا وفق موازين الشرع.

من السماع المحمود :

أيها الأخوة الكرام، من السماع المحمود: قال تعالى:

(إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ)

[سورة الجن الآية: ١-٢]

وصدقوا -أيها الإخوة الكرام-: أن معظم الأخوة رواد المساجد أحياناً، سبب توبته كلمة حق سمعها، أسباب توبته قضية في الفكر والعقيدة، كان تائهاً بها، فسمع تجليتها للإنسان، فسار إلى الله عز وجل، لكن أهل الإعراض عن الله موتى، لا يسمعون، قال تعالى:

(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ)

[سورة النمل الآية: ٨٠]

(إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[سورة فاطر الآية: ٢٢]

من كان في قبر شهوته، من كان في قبر مصالحه، هذا لا يسمع، قال تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ٢٣]

أيها الأخوة الكرام، المشكلة: أن الإنسان أحياناً يصغي إلى الباطل فيتلوث، قال تعالى:

(وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: ٤٧]

ما هو أخطر نشاط في حياة المؤمن؟ :

أنا أقول لكم: أخطر نشاط يمارس المؤمن غير الداعية، الداعية مهمته أن يتكلم، لكن معظم المؤمنين المهمة الأولى، والنشاط الأول في حياتهم: أن يستمعوا، هذا السماع منزلة خطيرة جداً، فإما أن يكون السماع طريقاً إلى سلامتنا وسعادتنا، وإما أن يكون السماع طريق شقائنا وهلاكنا، فلذلك كيف تختار أصدقاءك، أو كيف تختار شريكة حياتك؟ ينبغي أن تختار من تستمع منه، لأن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

((ابن عمر، دينك دِينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

ما هو اللغو؟ :

المؤمن: قال تعالى:

(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ)

[سورة القصص الآية: ٥٥]

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١-٣]


الاستماع إلى ما يحيي القلب يعقد الصلة مع الله

ما هو اللغو؟ ما سوى الله، حقيقة كبرى وحيدة، ليس هناك من حقيقة أخرى؛ الله جل جلاله ، فأي شيء يقربك من الله فهو الحق، وأي شيء يبعدك عنه فهو الباطل، قضية السماع من أخطر نشاطات المؤمن، ولا سيما في رمضان، فبين أن تستمع إلى كلام يبعدك عن الله، أو كلام يحبب المعصية إليك، أو كلام يزهدك في الدين، في

أصل الدين، وبين أن تستمع إلى كلام يحيي قلبك، ويحملك على طاعة الله، وحينئذ تنعقد الصلة مع الله عز وجل، فتفوز بخير الدنيا والآخرة.

ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء.

لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ، وَزَادَ غَيْرُهُ يَجْهَرُ بِهِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

يجب أن تستمع إلى القرآن تلاوة، وشرحاً، وتفسيراً، وإلى بيان القرآن كلام النبي -عليه الصلاة والسلام- وإلى أقوال الصحابة الكرام الذين أحبهم النبي، واختارهم له، وأن تستمع إلى العلماء الربانيين الذين اهتدوا إلى الله عز وجل، وأخلصوا دينهم لله، ينبغي أن تختار من ينبغي أن تستمع إليه، لكن الآن أكبر نشاط: سماع الغناء، مسابقات، وبرامج، وستة وثمانون مليون اتصال لاختيار مغنية من مغنيتين، نشاط المسلمين الآن الأكبر هو سماع الغناء، والغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل.

السماع مفتاح الجنة :

أيها الأخوة الكرام، قل لي لمن تستمع أقل لك من أنت؟ قل لي ما الذي تحب أن تسمعه أقل لك من أنت؟ السماع مفتاح الجنة، السماع مفتاح الهدى، السماع مفتاح السلامة، ومفتاح السعادة، ولكني أتمنى على من يستمع، ويستمع، ويستمع، إلى متى تستمع؟ متى تنطق بالحق؟ متى تكون لك دعوى؟ متى تلقي بعد أن تلقيت؟ ليس معقولاً أن تمضي العمر كله في السماع، فاستمع كي تسمع، تتعلم كي تعلم، تتلقى كي تلقي.

من معاني الجهاد :

يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ))

[أخرجه الترمذي في الصحيح]

أعلى شيء في الإسلام الجهاد، والجهاد له معان متعددة، هناك جهاد الآن متاح للجميع من دون استثناء: جهاد النفس والهوى، والجهاد الدعوي، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية: ٥٢]

لذلك: من لم يجاهد، أو من لم يحدث نفسه بالجهاد، مات على ثلمة من النفاق.

إذا ما خطر، ما خطر على بال أخ كريم أبداً أن يتكلم بالحق، أو ينصح إنساناً، أو يقدم شريطاً لإنسان، أو يدعو إنساناً إلى مسجد، ما خطر في باله إطلاقاً أن يكون سبباً لهداية إنسان، فهذا ابتعد عن حقيقة الدين، والذي يقول: أنا لا علاقة لي بالآخرين.

أرسل الله ملائكة لإهلاك قرية، قالوا: يا رب، إن فيها رجلاً صالحاً، قال: به فابدؤوا، قالوا: ولِمَ يا رب؟ قال: لأن وجهه لا يتمعر إذا رأى منكراً.

أتمنى على الله أننا بعد أن نستمع ينبغي أن نسمع، بعد أن نتلقى ينبغي أن نلقي.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٠٤-٦٤) : الإسلام متهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام متهم :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أيها الإخوة الكرام ؛ في سورة آل عمران آية تحل إشكالاً كبيراً ظهر في السنوات العشر الأخيرة ، الإسلام متهم، وهي أن الله عز وجل يقول :

(وَاضْرِبُوهُنَّ)

[سورة النساء الآية : ٣٤]

وأن شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ، وأن قطع اليد سلوك همجي .

أسوق لكم التهم التي يتهم بها الإسلام ، الحقيقة هذه الآية يقول الله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ)

يعني واضحات نيرات .

(هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)

[سورة آل عمران الآية: ٧]

آية العدو يتخذها حجة للنيل من الإسلام ، والمؤمن يعرف الوجه الإيجابي لها ، مثلاً طبيب نسائي لمجرد أن المرأة ولدت ، وصار هناك نزيف لا يتردد ثانية في استئصال الرحم ، لماذا ؟ لأن الله هيأ الرحم حينما يخرج الجنين منه ينقبض انقباضًا كالصخر بهذا ، الانقباض تلتئم ألوف الأوعية ، فإن لم ينقبض فلا بد من أن تموت المرأة من النزيف ، فلابد من استئصال الرحم .

فإذا كان الإنسان طالب طب لم يتبحر في علم الطب يقول : تسرع الطبيب ، واستأصل الرحم ، وحرمها من الذرية ، لكن الطبيب أنقذ حياتها ، فاستئصال الرحم فجأة من دون تردد من طبيب

جراح نسائي خبير متمكن ، السلوك هذا يشبه التسرع ، ويشبه اليقين العلمي ، فالطبيب المتخصص يقول : نِعمَ ما فعل ، والطبيب غير المتبحر يتهم الطبيب الذي استأصل الرحم بأنه تسرع ، سقت هذا المثل لأوضح ما معنى متشابهان .

حد السرقة :


الحدود تردع ضعاف النفوس

الآن العالم الإسلامي أو معظم بلاد العالم ، المشكلة الأولى هي السرقة ، أما حينما تقطع اليد ينجو مجتمع بأكمله من السرقة ، بعض الإحصاءات الفيدرالية في أمريكا في كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة سرقة ، أو قتل ، أو اغتصاب ، كل ثلاثين ثانية .

يد بعشـــر مئين عسجد وديت مـا بالـها قطعت في ربع دينار
عز وجل الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

في بلد إسلامي يوم كان يطبق هذا الحكم الصراف في أيام الحج يضع العملات الباهظة في صندوق خشبي ، ويدخل ليصلي ، من يجرؤ أن يأخذ شيئاً منها ؟

على كلٍ في القرآن الكريم أشياء صاحب الفتنة العدو اللجوج يتخذها حجة للنيل من الإسلام ، الآية تحل إشكال كبير :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ)

الخيانة الزوجية :



أما :

(وَاضْرِبُوهُنَّ)

امرأة نشزت ، أي اتجهت إلى غير زوجها ، بداية خيانة زوجية ، ولها أولاد من هذا الرجل ، وهي يتيمة لا أب لها ولا أم يردعها ، وبإمكان الزوج أن يطلقها ، أو أن يفضحها ، أو أن يطردها وهي أم أولاده ، فإذا أدبها وأبقاها زوجة له ، وتابت على يديه ، أيهما أفضل ؟ لكن الطرف الآخر ينال من الإسلام بكلمة :

(وَاضْرِبُوهُنَّ)

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ)

أولاً :

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ)

[سورة النساء الآية: ٣٤]

فآية :

(وَاضْرِبُوهُنَّ)

شهادة المرأة :

المرأة شهادتها بنصف شهادة الرجل ، لكن المرأة وحدها ممكن أن تدخل مليار وثلاثمئة مليون مسلم في ثاني أكبر عبادة ، وهي الصيام بشهادتها وحدها أيهما أبلغ ؟ والمرأة التي تولد ، إن أنجبت المرأة مولوداً ذكراً إذا بكى هناك مسألة مواريث ، وإن لم يبكِ فهناك مسألة مواريث أخرى ، قد

يدع الأب مليارات أو ملايين ، فإذا بكى هذا الطفل الذي ولد ، ومات يرث ويورث ، وإن لم يبكِ فلا يرث ولا يورث ، فبينما تعطى المرأة شهادة وحيدة في موضوع الإرث ، وفي موضوع رؤية الهلال ، وفي موضوعات نسائية كثيرة جداً ، لكن في جرائم جنسية ، في قضايا مالية ، هي هذه الموضوعات لا تهتم لها ، فالشارع أعفاها من أن تكون وحدها مسؤولة حول هذا .

فإذًا هناك آيات في القرآن الكريم يستطيع الطرف الآخر أن يتخذها حجة لينال من هذا الدين هذه الآية ، وضحت الحكمة ، مثل أوضح من ذلك :

أنا أقول لإنسان : أعط فلان ١٥٠٠ درهم ، هذا الأمر لا يحتاج إلى تفسير ، ولا إلى تأويل ، ولا يختلف في العالم العربي ممن ينطقون بلغة الضاد ، اثنان في معنى هذا النص أعط فلاناً ١٥٠٠ درهم ، أما إن أردت أن أمتحن شخصين الأول كريم، والثاني بخيل أعطيت أمراً لهما أعط فلاناً ألف درهم، ونصفه، فالبخيل يرجع الهاء على الدرهم، يقول لك ألف ونصف درهم، والكريم يقول لك يرجع الضمير على الألف لأنه سبق ١٥٠٠، فهذا النص احتمالي يمتحن به الناس .

السيدة عائشة رضي الله عنها ضاع عقدها فبحثت عنه ، فتأخرت عن ركب النبي عليه الصلاة والسلام ، وكانت في الهودج ، فحملوا الهودج ، وكانت خفيفة الوزن فلم ينتبهوا إلى أن الهودج فارغ ، بقيت وحدها ، وعادت مع صفوان ، فاتهمت بالزنا ، لو لم يضع عقدها لما كانت قصة الإفك إطلاقاً ، لكن المؤمنين امتحنوا ، المؤمنون ظنوا بأنفسهم خيراً ، بينما المنافقون روجوا في المدينة أنها على علاقة بصفوان ، وهي زوجة سيد الخلق ، وحبيب الحق ، هذا امتحان .

المحكم والمتشابه :

وآيات في القرآن الكريم هدفها الامتحان ، فالمؤمن يرى الوجه الإيجابي لها يرتاح ، لكن غير المؤمن يتخذها تكهة لينال من هذا الدين إذاً :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)

يعني من جانب تشبه الحق ، ومن جانب آخر تشبه ما لا يرضي الذوق العام عند الناس .

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)

الوجه الآخر :

(ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)

[سورة آل عمران الآية: ٧]

يقول لك:

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧))

[سورة الواقعة]

فالمنحرفون أخلاقياً يتخذون هذه الآية حجة لسلوكهم الشائن مثلاً ، ليس هذا هو المعنى إطلاقاً ، الله عز وجل يقول :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨))

[سورة الشمس]

المنحرف والعاصي يتخذ هذه الآية حجة على أن هذا الفجور خلقه الله في الإنسان لا ، فطر هذه النفس فطرة سليمة بحيث لو فجرت علمت أنها فجرت ذاتياً، هذه الفطرة .

إذاً : في القرآن آيات متشابهات أراد الله عز وجل منها أن يمتحن الناس ، يمتحن حسن ظنهم ، يمتحن ولاءهم ، يمتحن فهمهم العميق ، أو أن يكشف حقدهم ، أو بعدهم عن حقيقة هذا الدين .

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)

أي : يفتنوا الناس عن دينهم .

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

[سورة آل عمران الآية: ٧]

لذلك :

((إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ وَإنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فمَن اتَّقى الشُّبُهاتِ اسْتَبرأ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقعَ في الشُّبُهاتِ وَقعَ في الحَرَامِ كالرَّاعي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، ألاَ وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً ، ألاَ وَإنَّ حِمَى اللَّهِ تَعالى مَحَارِمُه))

[ورواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير]

أيها الإخوة ؛ حكمة الله تتجلى أن في القرآن آيات متشابهات ، هذا المتشابهات العلماء الراسخون بالعلم يعرفون وجهها الإيجابي ، لكن أعداء الدين يتخذونها حجة للنيل من هذا الدين، والله عز وجل أرادها أن تكون كذلك:

الاشتباه: كمن يضرب طفلا فهل هو شخص ظالم أم أب يؤدب ابنه؟

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ)

وأما المعنى المخالف ، وأما الذين في قلوبهم يقين وإيمان وولاء ومحبة لهذا الدين فيرون وجهها الإيجابي .

أنت حينما ترى رجلا يضرب طفلا ، قد يكون رجلا جبارًا ، ظالم وقد يكون هذا الرجل أباً لهذا الطفل ، والطفل ارتكب سرقة ، وحرص الأب على أخلاق ابنه دفعته إلى تأديبه ، العمل متشابه ، يشبه إنسانًا جبارًا حاقدًا ، ويشبه إنسانًا أبًا رحيمًا ، الآن ما يجري في العالم من زلازل أحياناً ، من فيضانات ، من خسوف أحياناً ، من جفاف ، من مصائب ، من اجتياح ، من حروب أهلية ، في الظاهر قسوة بالغة ، لكن المؤمن يعلم علم اليقين أن هذا لخير العباد لا في دنياهم بل في أخراهم .

الدعاء :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا آثرنا ولا تؤثر علينا أرضنا وارضى عنا ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٠٥-٦٤) : الخوف من الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

من صفات المؤمن الصادق :


المؤمن يخاف الله وحده

أيها الأخوة الكرام، من صفات المؤمن الصادق أنه يخاف، يخاف الله، وأصل الخوف: أن الله سبحانه وتعالى خلق النفس البشرية على طبيعة الخوف، فقال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج الآية: ١٩-٢١]

ولولا هذه الخصيصة في النفس البشرية لما تاب إنسان، ولما خضع إنسان، ولا أناب إنسان، والخوف سبب سعادة الدنيا والآخرة، هي نقطة ضعف في أصل خلق الإنسان، ولكن هي لصالح الإنسان:

(الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)

[سورة المعارج الآية: ١٩-٢١]

من علامة الإيمان :


غير المؤمن يخاف أقوياء الأرض

إلى الآيات: الله عز وجل يقول:

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٧٥]

لا بد من أن تخاف جهة، يفترق المؤمن عن غير المؤمن: أن المؤمن يخاف من الله وحده، بينما غير المؤمن يخاف من

كل أقوياء الأرض، قلبه مشتت، فإذا كان الأقوياء متناقضين وقع في حرج كبير، إن أرضى هذا أغضب هذا، إن أرضى هذا أغضب هذا، فالله عز وجل يقول:

(فَلَا تَخَافُوهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: ١٧٥]

جمع:

(وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٧٥]

إذاً: من علامة الإيمان أن تخاف الله وحده، وهذا المعنى -أيها الأخوة- يحتاجه المسلمون اليوم قبل أي وقت آخر، السبب: أن القوى التي تهدد المسلمين في شتى بقاع الأرض، قوى جبارة وطاغية، ولا تخاف الله عز وجل، فعلامة إيمان المؤمن: أنه يعتقد أن أمره بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى ما كان له أن يسلمه إلى غيره:

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٧٥]

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود الآية: ١٢٣]

متى يخاف العبد الله؟ :

القضية كفكرة سهلة، أما كممارسة فصعبة جداً، أنت سهل أن تقول: الله بيده كل شيء، أنا سأخافه وحده، لكن القوى التي أمامك ملموسة، محسوسة، بطاشة، جبارة، فعملياً لا تستطيع أن تخاف الله وحده إلا بتوحيد كبير، والتوحيد الكبير يحتاج إلى جهد كبير، فالموحد وحده لا يرى إلا الله، يرى يد الله فوق أيديهم:

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال الآية: ١٧]

فالآية الأولى:

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٧٥]

فأنت بين أن تخاف من ألف جهة متناقضة، وبين أن تخاف من الله وحده، و:

من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها.

ماذا تفيد كلمة إياي :

الآية الثانية:

(وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

[سورة البقرة الآية: ٤٠]

وحينما قدمت كلمة:

(وَإِيَّايَ)

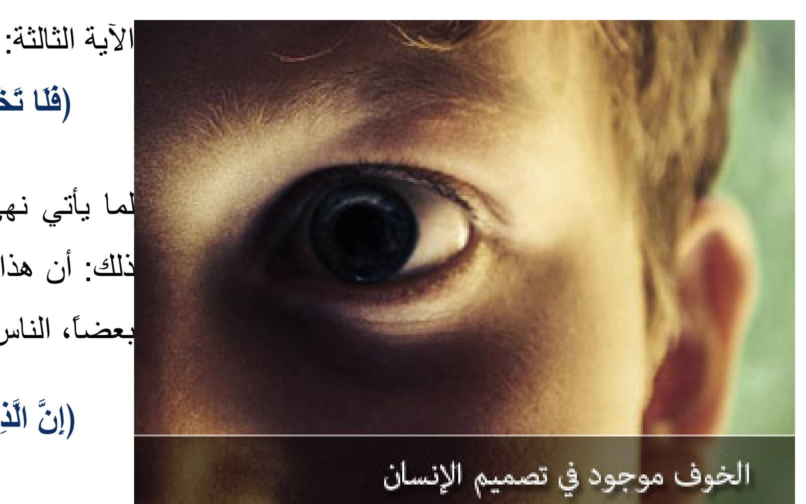
[سورة البقرة الآية: ٤٠]

أفاد هذا التقديم معنى القصر، يعني ينبغي أن ترهب الله، ومن لوازم رهبتك من الله: ألا ترهب أحدًا آخر مهما كان قوياً:

(وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

[سورة البقرة الآية: ٤٠]

ما وظيفة الخوف في أصل تصميم الإنسان؟ :



الآية الثالثة:

(فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ)

[سورة المائدة الآية: ٤٤]

لما يأتي نهي في القرآن الكريم، معنى ذلك: أن هذا واقع، الناس يخاف بعضهم بعضاً، الناس يخشون بعضهم بعضاً:

(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ٥٧]

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ٦٠]

في نهاية الآية:

(أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ٦١]

إذاً: في أصل تصميم الإنسان: أنه شديد الخوف، في أصل التصميم، وشدة الخوف: سلم يرقى به إلى الله، شدة الخوف حيادية، يمكن أن توظف بالإيمان، ويمكن أن تقود إلى الشرك، حيادية، وأنت

مخير، فأنت مصمم على أن تخاف، كائناً من كان، بل إن الذي يخاف من المشركين، قطعاً المشرك يخاف:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

[سورة آل عمران الآية: ١٥١]

لأنه أشرك يخاف، ولو كان أقوى أقوياء الأرض، والذي ترون الآن: أن القوى التي لا تعقل قوتها، أشد خوفاً من الضعفاء، الآن في مرتبة عليا من الخوف.

من علامة النفاق :

في المسند والترمذي: عن عائشة -رضي الله عنها- قالت:

((قلت: يا رسول الله، قول الله عز وجل: (الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة)-خائف- أهو رجل يزني، ويسرق، ويشرب الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل؟ قال: لا، ولكنه الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل))

[أخرجه الحاكم في مستدركه]

لذلك: من علامة النفاق: أن تطمئن في علاقتك مع الله، ومن علامة المؤمن: القلق المقدس، لذلك قال أحد التابعين:

التقيت بأربعين صحابياً، ما منهم واحد إلا وهو يظن نفسه أنه منافق، من شدة الخوف من الله.

سيدنا عمر الذي بشره الله بالجنة، جاء إلى سيدنا حذيفة، وقد أودع النبي عنده أسماء المنافقين، فقال: يا حذيفة، بربك اسمي معهم؟ قال: لا يا أمير المؤمنين.

كيف تفسر ذلك؟ كلما ازداد علمك، ازدادت خشيتك من الله، ولا يطمئن إلا الأبله .

من أشد الناس خوفاً من الله؟ :


الخوف متعلق بالإدراك وفاقد الإدراك هو من لا يخاف

مرة طالب قال بشكل وقح: أنا لا أخاف من الله، قلت له: أنت بالذات معك الحق؟ قال: لمَ؟ قلت له: الفلاح يأخذ ابنه في أربع سنوات إلى الحصيدة، ويضعه بين سنابل القمح، قد يمر إلى جانبه ثعبان طوله ١٢ متراً لا يخاف، ليس له إدراك، ولا خوف، الخوف متعلق بالإدراك.

انظر إلى الطبيب، يخاف أن يأكل حبة فاكهة من دون غسيل، لأنه يعرف الجراثيم والأمراض والإنتانات والتهاب الأمعاء، يخاف أن يأكل أكلة غير نظيفة، يعرف مضاعفات هذا الطعام، لذلك لا يخاف إلا عالم.

من ألطف ما مر في السنة: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- يقول:

((أعلمكم بالله أنا، وأشدكم خشية منه أنا))

ربط العلم بالخشية، فكلما ازداد علمك ازدادت خشيتك:

((يا رسول الله مثل بهم، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أمثل به، فيمثل اللّه بي، ولو كنت نبياً))

علامة إيمانك أن تخاف من الله.

علامة معرفة الله أن تخاف منه :

لذلك مرة قلت: قد تقف متكلماً لساعة طويلة ارتجالاً من دون تحضير، بلغة فصيحة، وأدلة صحيحة، وتحليل عميق، وأنت لا تعرف الله، تعرفه إذا خفت منه، تعرفه إذا اتقيت أن تعصيه، تعرفه إذا علمت أنك في قبضته، تعرفه إذا أيقنت أنه يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، هذه علامة معرفة الله، علامة معرفة الله أن تخاف منه.

من لوازم العلماء :

أيها الأخوة، قال بعض العلماء: الخوف من الله لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء.

تماماً كإنسان خاف المرض، ترك هذا الطعام، لكن الطبيب يخاف المرض فيلجأ إلى الدواء، بين أن تهرب، وبين أن تعالج نفسك، فالخشية من لوازم العلماء، لقوله تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

[سورة فاطر الآية: ٢٨]

ولقول النبي -عليه الصلاة والسلام-:

((أنا أتقاكم لله تعالى، وأشدكم خشية))

بعضهم أضاف إلى ذلك: أن الخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين.

بين الخوف والخشية والهيبة والإجلال، مثلاً:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله))

[أخرجه الترمذي في سننه]

ما هو الأمن الغبي وما هو القلق المقدس؟ :

القلق في هذا الموضوع مقدس، من علامة المنافق: أنه يأمن مكر الله، يأكل المال الحرام، ويعتدي على أعراض الناس، ويتبجح، ويتغطرس، ويقول: أنا من أهل الجنة:

(وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً)

[سورة الكهف الآية: ٣٦]

هذا الأمن الغبي، وعلامة الإيمان القلق المقدس، في أمن غبي، وفي قلق مقدس، بعض العلماء قال: الخوف سوط الله، يقوم به الشاردون عن بابه.

ما الذي ينبغي أن يجتمع في قلب المؤمن؟ :



أنا أحياناً أرى: أن معظم رواد المساجد إلا القليل منهم أتوا إلى المسجد، واصطلحوا مع الله بتدبير حكيم من الله، بدأ من الخوف، يعني الخوف له فضل علينا، هذه الخصيصة التي أودعها الله فينا، لولاها لما رجعنا إلى الله، ولما تبنا إليه، الإنسان يخاف.

والحقيقة: لما أحد الأنبياء قال:

((أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك؟ قال: يا داود، أحب عبادي إلي؛ نقي القلب، ونقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءا، ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى عبادي، قال: يا رب، إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي، يا داود، إنه ليس من عبد يعين مظلوماً أو يمشي معه في مظلمته، إلا أثبت قدميه يوم تزول الأقدام))

تأكد، ما لم تشعر بخوف من الله، وتعظيم له، ومحبة له، ففي الإيمان خلل، يجب أن يجتمع الإيمان في قلب المؤمن تعظيم ومحبة وخوف، لذلك قالوا: الخوف سراج في القلب ، وكل أحد إذا خفت منه هربت منه، إلا الله عز وجل، إنك إن خفته هربت إليه، لا ملجأ منك إلا إليك.

الله وحده إن خفت منه لجأت إليه، وأحياناً الطفل يخاف من أمه، فيرمي نفسه في أحضانها، وهذا حال المؤمن يخاف من الله فيلجأ إليه.

ما هو الخوف الحقيقي المحمود؟ :

الحقيقة بلا مجاملة، بوضوح شديد: الخوف الحقيقي المحمود: ما حال بينك وبين محارم الله، وإلا خوف مزيف، وادعاء كاذب.
أحيان أناس كثيرون يقولون: الله يتلطف، شيء مخيف، مقيم على المعصية، هذا خوف غير صحيح، هذا خوف مزيف، لو خفته لابتدعت عن معاصيه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه

-أو أنت تعبر عن خوفك منه-

ذاك لعمري في المقال شنيع

يتابع كل شيء على الشاشة، يا أخي ما هذا الفسق؟ ما هذا الفجور؟ ولماذا تتابع؟ من أجبرك أن تتابع؟ هذا خوف مذموم، خوف المنافقين.

الفرق بين خوف العبيد وبين خوف الأحرار :

والحقيقة: هناك خوف من العقوبة، هذا خوف العبيد، لكن خوف الأحرار: أن تخاف أن تنقطع عن الله عز وجل، لك مع الله علاقة مميزة، لك مع الله صلة، فإذا كنا حرصاً عليها تبتعد عن كل ما يغضب الله، حفاظاً على هذه الصلة، وهذا أقوى تفسير للخوف:

((رَأسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللّهِ))

((أشدكم لله خشية أنا))

والله أعلم، ليس الخوف أن ينال الإنسان عقوبة من الله هذه مرتبة، وكل إنسان يخاف الله من هذا المستوى، لكن في مستوى أعلى، إنك إن وصلت إلى الله، ولك معه صلة، وأنت في أتم السعادة من هذه خلال الصلة، حفاظاً على هذه الصلة، وعلى هذا الود الذي بينك وبين الله، تبتعد عن كل ما يخدش هذه الصلة، هذا التفسير الذي يليق بإنسان حر.

انظر ما قاله بعض أهل العلم :



قلب المؤمن كالطائر رأسه المحبة والخوف والرجاء جناحاه

قال بعض العلماء: القلب في سيره إلى الله كالطائر تماماً، المحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحه، فمتى سلم الرأس والجناحان، فالطائر يجيد الطيران، ومتى قطع الرأس، مات الطائر، ومتى فقد جناحيه، فهو عرضة لكل صائد وكاسر.

رأس الطائر المحبة، وجناحاه الخوف والرجاء، إذاً: لا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن محبة وتعظيم وخوف ورجاء.

ما هي علامة المحبة وما هي علامة الخوف؟ :

والحقيقة: أن الخوف إذا زاد عن حده أصبح يأساً وقنوطاً، وهو عين الكفر، والمحبة إذا قادتك إلى التساهل في طاعة الله عز وجل، كانت محبة ترتبط بالنفاق، المحبة إذا اشتطت بحيث أنك أهملت عباداتك، أهملت غض البصر، أهملت أهملت، هذه محبة كاذبة، فعلامة المحبة: المبالغة في الطاعة، وعلامة الخوف: الخوف من أن تنقطع علاقة بالله التي تحرص عليها.

دعاء الختام :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارض عنا، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس في تشريع المسلمين معصية توعد الله عليها بالحرب إلا الربا، لماذا؟ :


لا ترى العين الربا المتربص في المظاهر الفخمة للبنوك

أيها الأخوة الكرام، في قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٥]

الحقيقة أيها الأخوة: أن الإنسان حينما يرتكب بعض المعاصي، فآثار المعاصي ظاهرة، وتظهر على شبكية العين، فالذي يشرب الخمر قد يفقد عقله، وقد يخطئ خطأ كبيراً، وقد يعتدي على أعراض من يلوذ به، والذي يزني، ينقل فتاة من الطهر والعفاف إلى السقوط في حمأة الرذيلة، لكنك إذا دخلت إلى مصرف، ترى بناء فخماً، وأجهزة حديثة، وتكييفًا واستقبالاً، وموظفين، لا ترى على شبكية العين مظهر الربا، لكن كيف الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٩]

ليس في تشريع المسلمين معصية توعد الله عليها بالحرب إلا الربا، ذلك: لأن المال قوام الحياة، وحينما نسمح للمال أن يلد المال، تتجمع المال في أيد قليلة، وتحرم منها الكثرة الكثيرة.

واقع الأرض الآن عشرة بالمئة من سكان الأرض يملكون تسعين بالمئة من ثرواتها، تفاوت في الدخل بين دول الشمال وبين دول الجنوب، وبين الغرب والشرق تفاوتاً غير معقول، هذا التفاوت وراء الحروب، والاحتيال الدولي، والقهر، والتجارة البيضاء، تجارة الإماء، كل ما يعانيه البشر الآن: بسبب هذا التفاوت في الدخل الكبير، لذلك: الربا توعد الله عليه مرتكبه بالحرب.

الفرق بين الحلال والحرام :

الحلال منفعة مشتركة بين اثنين والحرام منفعة بنيت على مضرة

أيها الأخوة، لو سألتني عن قاعدة تنتظم كل الدخول المحرمة، وعن قاعدة تنتظم كل الدخول المباحة، هي قاعدة واحدة: الحرام كله يجمعه: أن منفعة بنيت على مضرة، والحلال كله يجمعه: أن منفعة متبادلة بين جهتين.

هذا هو الحلال، فالذي يضارب بمال الناس، الذي أعطاه المال لا يحسن استثماره، قد يكون متقدماً في السن، أو إنساناً متقاعداً، أو طفلاً ورث عن أبويه، قد تكون أرملة، ويأتي شاب لا يملك المال، لكن يملك الخبرة، كلاهما يتعاونان، ويكسبان المال، فلذلك أيها الأخوة:

مبادئ الحلال والحرام أساسها: الحلال منفعة مشتركة، والحرام منفعة بنيت على مضرة، لذلك قضية الربا قضية تهدم الأمة بأكملها، حينما ترى أن القوة الشرائية للمال لا تكفي لحياة كريمة، الرشوة، والسرقة، والاحتيال، والخداع، أنواع كسب المال الحرام لا تعد ولا تحصى بسبب الحاجة إلى المال.

قف عند هاتين النقطتين :

هناك نقطتان أتمنى أن تكونا واضحتين لديكم.

عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ؟ قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

حينما أضع عقبات كبيرة أمام الشباب للزواج، هل تلغى العلاقة بالأنثى؟ لا، بل تأخذ شكلاً حراماً بقدر العقبات التي توضع أمام الشباب، بقدر بيوت الدعارة التي تفتح في مدينة ما، لذلك

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

[سورة الأنفال الآية: ٧٣]

القاعدة نفسها: إن لم يكن هناك دخل حلال وفق منهج الله، دخل كريم، دخل يكفي الإنسان ، يحقق كرامته، سيكون هناك دخول لا تعد ولا تحصى، كلها من طرق غير مشروعة، والإنسان حينما يأكل المال الحرام، يقطع عن الواحد الديان.

يا أيها الأخوة الكرام، قضية الربا قضية خطيرة جداً، المشكلة: أن هذا الذي يأكل الربا المضارب وهو الطريق المشروع، مساهم مع الجهد في الربح والخسارة، ليس صاحب المال عبئاً على المضارب، لكنها معاوناً له، بينما المرابي هو عبء عليه، ماله مضمون، والربح مضمون، لو توسعنا قليلاً: كل شيء يؤمن عليه الآن.

مهمة النظم الأرضية :

أبلغني أحدهم بالهاتف من بعض الدول: أنك يمكن أن تؤمن على زبائنك، باع بمئة مليون لمئة زبون، فأي إنسان لم يدفع لك، تأخذ المبلغ كامل من الجهة التي أمنت عندها.

الإنسان كلما كان ربحه ثابتاً، ولا يوجد عنده خطر، الأخطار كلها مغطاة، ليس بحاجة إلى الله أبداً، عندئذ ينطبق عليه قول الله عز وجل:

حين تحتمي بمظلة التأمين فأنت تستغني عن الله

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق الآية: ٦-٧]

انظر إلى التاجر: يقول: يا رب تجبر، انظر إلى المزارع يقول: يا رب أغثنا، التاجر والمزارع والصانع، ما دام العمل شريفاً وشرعياً متعلق برحمة الله، النظم الأرضية تريد أن تقطعك عن الله كلياً، أي خطر، هذا المغني يخاف على حنجرته، يؤمن عليها بمليون دولار لو راحت.

من الوقائع :

لذلك سمعت قصة وقعت: أكبر شركة تأمين في إحدى الدول العربية، لها مدير يتقاضى في الشهر الواحد، ما يقترب من نصف مليون ليرة، معه أعلى شهادة، كان في مركبته مع زوجته ، واحترقت، أقفلت الأبواب بعد احتراقها، أخرجا من المركبة قطعتين من الفحم لكنه مؤمن، وصاحب الشركة بعد شهر تحديداً، دخل في شاحنة فقطع رأسه أيضاً أمن، النظم الأرضية تريد أن تنسى حفظ الله، ومعونته، وتوفيق الله عز وجل، كل شيء يؤمن عليه.

أسمع ألوانًا من التأمين العقل لا يصدقها، على كل شيء يؤمن، أحدث صرعة في التأمين على الزبائن، لك مبلغ ضخم في السوق، أي إنسان لم يدفع لك تتقاضاه، لكنك تدفع مبلغاً كبيراً.

هل المشكلة في الإسلام أم في المسلمين؟ :

التأمين الإسلامي تأمين تعاوني لتعم الفائدة على الجميع

أيها الأخوة، المشكلة ليست في الإسلام، لكنها في المسلمين، لنا أخوان كثر في بلد غربي كلهم أطباء، حوالي مئة طبيب، هؤلاء لا يمكن أن يقر لهم قرار إلا إذا أمّنوا ضد الدعاوى التي تقام ضدهم، لماذا؟.

عندنا في الشرق الأوسط إذا أخطأ الطبيب، نقول: سبحان الله! قضاء وقدر، وهذا فهم خاطئ للقضاء، والقدر يكون طبيب إسعاف، يجري حديث مع ممرضة، يأتي مريض بحالة خطيرة جداً، يهمله، فيموت، سبحان الله! مات بأجله، هذه اسمها زعبرة.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ، فَهُوَ ضَامِنٌ))

هناك ممكن أي مريض يقاضي الطبيب، يدفعه ثمانين مليون دولار أحياناً، فكل طبيب مضطر أن يؤمن ضد الدعاوى التي تقام ضده، سألتهم: كم المبلغ؟ حولته إلى السوري حوالي مليوني ليرة كل سنة، حتى ينام مرتاحاً، ولا يقلق، يجب أن يؤمن، فأمّنوا خلال سنوات طويلة، المبالغ التي دفعت من قبل هؤلاء الأطباء المئة، مبالغ فلكية كبيرة جداً، قالوا: أخذوا قراراً أن يجعلوه تأميناً إسلامياً، فجاؤوا بصندوق، ووضع كل واحد مليون ليرة هم مئة، أول سنة مئة مليون لم يحدث شيء، في السنة الثانية كذلك لم يصبهم شيء، والثالثة والرابعة اشتروا مركزاً إسلامياً ومدرسة، وأي إنسان تقام عليه دعوى من هؤلاء المئة، يأخذ من الصندوق المبلغ الكامل، هذا التأمين الإسلامي تأمين تعاوني، المال لك.

صدقوا أيها الأخوة: ما من حاجة في المجتمع إلا وهي ومغطاة في الشرع، لكن المسلمين مقصرون في تتبع أحكام دينهم.

ما سبب القوة الاقتصادية في هذا البلد؟ :

زرت بلداً في شرق آسيا، فوجئت: أن سكان هذا البلد لا يزيدون على ثلاثة وعشرين مليوناً، وكانوا في الغابات قبل ربع قرن، وهم يصدرون للعالم كله كمًّا من التصدير يفوق صادرات العالم العربي بأكمله، بما فيه النفط، وعندهم فائض ستين مليار دولار، تأمينهم إسلامي، وبنوكهم إسلامية، وبطاقاتهم الانتمائية إسلامية، لا يوجد فوائد أبداً، الاستثمار كله؛ إما في الصناعة، أو الزراعة، أو التجارة، وجاءهم من يتدخل في شؤونهم، شخص كبير جداً في العالم الغربي، فقيل له: ضع حذاءك في فمك، ولا تنطق إلا بما يعنيك، وطرد، عندهم قوة اقتصادية كبيرة جداً، لأنهم يطبقون شرع الله عز وجل.

المشاكل التي تظهر من خلال تعامل المجتمع مع الربا :


الربا يسبب البطالة ويرفع الأسعار

نحن بصراحة لا نثق بديننا، نرى أن هذا النظام الغربي لا بد منه، لكنه قائم على الربا والتأمين، وهما أبرز نقطتين في النظام الغربي.

أخواننا الكرام، الربا يسبب البطالة، ويرفع الأسعار، وحينما ترتفع الأسعار الشريحة المنتفعة من أي سلعة، تضيق في كل شيء، ولا إنسان معه ثمن هذه الأشياء.

ببعض أزمات أوروبا الطاحنة، يروي الدكاترة في الجامعة طرفة: أن أحد عمال المناجم سرّح من عمله، فلم يستطع أن يشتري فحماً يتدفأ به هو وأسرته، فلما سأله ابنه: لماذا ليس عندنا فحم؟ قال: لأن الفحم كثير جداً، وكاسد لا يباع.

فقد تجد كل شيء في البلد، لكن لا يوجد قوة شرائية، فالإنسان ينظر للواجهات، ليس معه ثمن البضاعة، هذه تحدث أزمة، لذلك:

لما جمع أحد رؤساء الجمهوريات الفرنسيين كبار العلماء في منتجع، وطلب منهم أن يعطوه تفسيرًا لأعمال العنف التي تجري في العالم، قال: بسبب مجتمع الاستهلاك.

إذا كان المال في أيد قليلة والكثرة الكاثرة محرومة منه :

المجتمع الاستهلاكي دون قوة شرائية سبب العنف

عندنا منذ زمن: كل عشر سنوات يشنق رجل في المرجة، تزحف الشام كلها لتراه، أقل خبر عشرون أو خمسون، كل يوم القصف والقتل، يوجد في العالم أعمال عنف تفوق حد الخيال، فهذا رئيس جمهورية فرنسا، جمع علماء اجتماع، وعلماء نفس، واقتصاد في منتجع، وطلب منهم الإجابة عن سؤال واحد: لماذا العنف في هذا العصر؟

فالجواب: كان مجتمع الاستهلاك.

دائماً تعرض عليك بضائع جميلة جداً، ورائعة، وجذابة، وبأسلوب مغرٍ، على طول البناء سيارة تلمع، شيء فخم جداً، أنت ما معك ثمن دراجة، هذا التأمل الزائد بهذه البضاعة الجميلة، ولا تملك ثمنها، ينشأ عندك حالة نفسية، إما الإحساس بالحرمان الدائم، أو تمد يدك إلى الحرام، وعندئذ سقطت من عين الله، أو أن تعمل عملين؛ تلغي وقت الفراغ، وإذا ألغيت وقت الفراغ ألغيت أنت، يخرج قبل أن يستيقظ الأولاد، ويأتي بعد أن يناموا، لم يعد أبًا، انتهت أبوته، وانتهى كزوج، يعمل ثماني عشرة ساعة، حتى يأتي بهذه السلع التي تعرض في واجهات المحلات والإعلانات، فمجتمع الاستهلاك في عمل مضاعف يلغي وقت الفراغ، والإنسان الذي يلغي وقت فراغه ليس إنساناً، يعيش إحساسًا بالحرمان دائمًا، ومد يدًا إلى الحرام.

يبدو أن البند الثالث الآن هو المسيطر، أساليب كسب المال الحرام لا تعد ولا تحصى؛ احتيال، وكذب، وتزوير، وتدليس، وكل ما يخطر في بالك موجود، لذلك القضية المالية بالمجتمع قضية خطيرة جداً، حينما تسلك منهج الله في كسب المال، وإنفاق المال، فالمال يوزع على أكبر شريحة، أصل تصميم المال عند الله:

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾

[سورة الحشر الآية: ٧]

المال عند الله يجب أن يكون متداولاً بين كل شرائح المجتمع، فإذا كان متداولاً فنحن بخير، وإذا كان مجموعًا بأيد قليلة، والكثرة الكثيرة محرومة منه فنحن لسنا بخير، ويوجد أمراض خطيرة تظهر في المجتمع، قد تكون أمراضًا نفسية، عندما لا يتمكن الأب من حاجات أولاده، ينسلخ الأولاد عن أبيهم، يلتصقون بأصدقائهم الأغنياء، ومع الغنى الفسق والفجور، الأب أحياناً يفقد سيطرته على

أولاده، إذا لم يتمكن من تلبية حاجاتهم، والأبناء إذا ما رأوا في البيت حاجاتهم، ينفرون من البيت، فتنشأ مشكلات اجتماعية كبيرة.

خاتمة القول :

أيها الأخوة، أحياناً يخطر في بالي: أن هذا الذي يرفع الأسعار من دون أن يشعر بخطر ارتفاعها، ماذا يفعل؟ يصيب آلاف الأشخاص بأمراض نفسية، أحياناً أمراض انفصام الشخصية سببها تفاوت طبقي، فكل إنسان يسهم في تخفيض سبل مستوى المعيشة، هذا له أجر كبير عند الله، لذلك النظام الاقتصادي في الإسلام: نظام فيه عدل، ويؤمن بأن يوزع المال بين كل شرائع المجتمع، لذلك:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٥]

أخواننا الكرام، لو نظرت للأحكام الشرعية، لوجدت تسعين بالمئة منها متعلقًا بالمال والنساء، وهما ثغرتان كبيرتان، أي فضيحة في الأرض هي مالية أو جنسية.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٠٧-٦٤) : معنى الزهد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

من الحالات التي تلازم المؤمن :


كل شيء تملكه تخسره ساعة الموت

أيها الأخوة، من الحالات التي تلازم المؤمن حالة الزهد، هذا المفهوم مشوه في هذه الأيام، الله عز وجل حينما يقول:

(مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ)

[سورة النحل الآية:٩٦]

كل شيء تملكه لا بد من أن تخسره ساعة الموت، فالذي يجمعه الإنسان في الدنيا من أموال منقولة وغير منقولة ومن عملات من كل الأنواع، يخسرها عندما يقف قلبه، ولا ينفعه في القبر إلا عمله الصالح، البطل هو الذي يترك الدنيا قبل أن تتركه، لذلك ورد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

((إن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح فيها -متاعب لا تنتهي؛ اجتماعية ونفسية وجسمية- فمن عرفها، لم يفرح لرخاء -هذا من الزهد- ولم يحزن لشقاء -أن الرخاء مؤقت، والشقاء مؤقت- قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيبتلي ليجزي))

تحت أي موضوع تندرج هذه الآيات؟ :

حينما يقول خالق السموات والأرض:

(أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)

[سورة الحديد الآية: ٢٠]

إنما: أداة قصر، الدنيا حصراً هي لعب ولهو وزينة:

(لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)

[سورة الحديد الآية: ٢٠]

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ)

[سورة الكهف الآية: ٤٥]

ثم إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء الآية: ٧٧]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ)

[سورة التوبة الآية: ٣٨]

الحياة الدنيا أعجبتكم! هل هي كافية كي تسعدوا بها؟:

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة الآية: ٣٨]

ماذا نستنتج من هذا المثال؟ :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

[سورة طه الآية: ١٣١]

للتقريب: خيرناك بين دارجة وأغلى مركبة، الدراجة تملك دائم، والمركبة الفخمة ربع ساعة، طبعاً تختار الدراجة لأنها أبقى، فما قولك لو خيرناك بين مركبة من أعلى مستوى تتملكها كلياً، وبين أن تركب هذه الدراجة عشر دقائق؟ الذي يختار الدراجة يحتاج إلى مستشفى الأمراض العقلية:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء الآية: ٧٧]

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)

[سورة الزخرف الآية: ٣٣]

من تعريفات الزهد :

الورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة

أيها الأخوة، من أدق تعريفات الزهد: أطمئنكم بأن ليس معنى الزهد أن ترتدي ثياباً مرقعة، ولا تأكل طعاماً خشناً، قولاً واحداً، ليس هذا هو الزهد، ولكن من تعريفات الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، أما تعريف الورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة، إن تركت شيئاً يضر بآخرتك فأنت ورع، وإن تركت شيئاً لا تنتفع به في آخرتك فأنت زاهد.

وقال بعض العلماء: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس البالي.

قصر الأمل، إنسان يخطط لعشرين سنة قادمة، وفي اليوم نفسه يوضع نعيه على الجدران !.

علام يدل عمل هذا الشخص؟ :

مرة قال أخ، كان ينتظر في مكان، سمع حوار بين رجلين، قال: هذا الإنسان كدنا نخرج من جلودنا منه، قال: لم؟ قال: بقينا ستة أشهر، هو يفكر التدفئة في البيت أيجعلها مخفية أم ظاهرة؟ يخاف أن يجعلها مخفية، بعد عشرين سنة تفسد، فيضطر لقلع البلاط، وإذا جعلها ظاهرة، لا تليق بأناقة البيت، فما الحل؟ قال: قرر أن يجعلها مخفية، فإذا فسدت بعد عشرين عاماً لا يكسر البلاط، بل يجعلها ظاهرة عندئذ لعشرين سنة قادمة!!.

المفهوم السلبي للزهد :



الانسحاب ورفض كل شيء ليس زهدا

فالزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباءة، لكن يوجد معنى دقيق جداً:

أنك بإمكانك أن تطعم الفقراء، وتؤوي المشردين، وتزوج الشباب، وتنفقه في

تعليم القرآن، وحل مشكلات الناس، فإذا زهدت بمال حلال يمكن أن يكون قوة لك في الآخرة، فأنت لست بزاهد، وإذا زهدت بمنصب يمكن أن تحق الحق فيه وتبطل الباطل ويكون نفعك عاماً، فأنت لست بزاهد، هذا المفهوم السقيم للزهد: كل شيء ترفضه، وتنسحب منه، ليس معك أعمال صالحة. أحياناً: المال قوة، والعلم قوة، والمنصب قوة، هذه مراكز قوى كبيرة جداً، الذي مكن في الأرض، متاح له أن يعمل من الأعمال الصالحة ما لا يستطيع الآخرون أن يفعلوه، فحينما تزهد في شيء من نعم الله التي تنفعك في الآخرة، وبإمكانك أن تنتفع بها في الآخرة، أنت في هذه الحالة لست بزاهد، من أجمل ما في القرآن عن الزهد:

(لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آَتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[سورة الحديد الآية: ٢٣]

لا تأسفوا على مفقود، ولا تفرحوا لموجود.

ما قيل عن الزهد :

قالوا: الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح، الحب يدفعك على الشهادة، والزهد يدفعك لأن تبذل ما تملك.

قال بعض العلماء: الزهد في الدنيا هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال.

يسكن في بيت فخم، لا بد من يوم أخرج منه في نعش، هذا الكلام هل فيه شك؟ تركب مركبة فارهة، لا بد من يوم يأخذها من بعدك، لك مقتنيات ثمينة، وعندك أموال طائلة، حينما ترى أن هذا الشيء لا يدوم فأنت زاهد، أما حينما تنسى الموت كلياً، وتشعر أنك مخلد في الدنيا هنا المشكلة؛ الزهد عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف، الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد، أنت لا يوجد عندك مركبة فارهة، كلما ألقيت نظرة على مركبة: هنيئاً لصاحبها، يا ليتني كنت مكانه، أنت لست بزاهد، الزاهد: إن رأى متاع الدنيا؛ بيت فخم، مركبة فارهة، كان عليه الصلاة والسلام يعلمنا.

الزهد عدم الفرح بإقبال الدنيا وعدم الحزن على إدبارها

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ -رَضِيِ اللَّه عَنْه- قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَأَصْلِحِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةْ))

من تعريفات الزهد: عدم الفرح بإقبال الدنيا وعدم الحزن على إدبارها.

قال أحدهم: لا يبلغ أحد حقيقة الزهد، حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة، وأحد ما يجسد الزهد: أن تؤثر الآخرين على ما في يدك:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

[سورة الحشر الآية: ٩]

تعريف الزهد في رأي الإمام أحمد بن حنبل :

الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- يقول: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام، وهذا زهد العوام، والثاني: ترك الفضول من الحلال الشيء الزائد عن الحد، تركته هذا من الزهد، وهذا زهد الخواص، لكن أعلى مرتبة في الزهد: ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين. ترك الحرام زهد العوام، ترك الفضول من الحلال زهد الخواص، ترك ما يشغل عن الله عز وجل هو زهد العارفين.

يوجد تعريف رائع، قال: الزهد سفر القلب من وطن الدنيا إلى الآخرة.

قرار المؤمن الصادق :

حدثني أحد الدعاة قال: دعيت لمؤتمر في أقصى الدنيا قبل الحادي عشر من أيلول بالهاتف، فوافقت، قال: ما إن وضعت سماعة الهاتف في مكانها حتى أصبحت هناك، بمعنى: يا ترى متى سأسافر؟ هل آخذ معي زوجتي؟ كم أقيم هناك؟ في أي مدينة سأقيم؟ هل أتنقل من مدينة إلى أخرى؟.

أقول لكم بصراحة: المؤمن الصادق يعيش الآخرة، لأن الدنيا زائلة لا بد من تركها، فالمؤمن الصادق دائماً يفكر: كيف تختم حياتي؟ هل تختم على الإيمان؟ هل أموت وأنا قريب من الله عز وجل؟ وأنا أؤدي طاعة لله عز وجل؟ عندما يكون الأخ الداعية أخذ قرار بتلبية الدعوة، قال: دون أن أشعر، ما إن وضعت سماعة الهاتف، حتى صرت في تلك البلاد نفسياً.

الإنسان أحياناً يأخذ قراراً بالذهاب إلى الحج، لما أخذ القرار، وأعطى موافقته، وبدأت الإجراءات الإدارية ليعطى جواز الحج، صار هناك: يا ترى المدينة أولاً أم مكة؟ أذهب مع من؟ مع أي فوج ألتحق؟ ماذا أفعل حينما أعود؟ لما أخذ قراراً بالسفر إلى الحج، صار هناك نفسياً.

أحياناً إنساناً بشكل مبسط ينوي السفر لمكان جميل في نهاية الصيف، عندما يأخذ قراراً: أين أنزل؟ وأين أسكن بالجبل أم في البحر؟ والمؤمن الصادق حينما يأخذ قراراً بالزهد، ينتقل من الدنيا إلى الآخرة.

ما قيل عن الزهد أيضاً :

أجمل ما قيل في الزهد: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك.

هذا من أجمع ما قيل في الزهد، أن تكون واثقاً بما عند الله زاهداً بما في يديك.

بعضهم قال: الزهد على ثلاث درجات؛ الزهد في الشبهة بعد ترك الحرام.

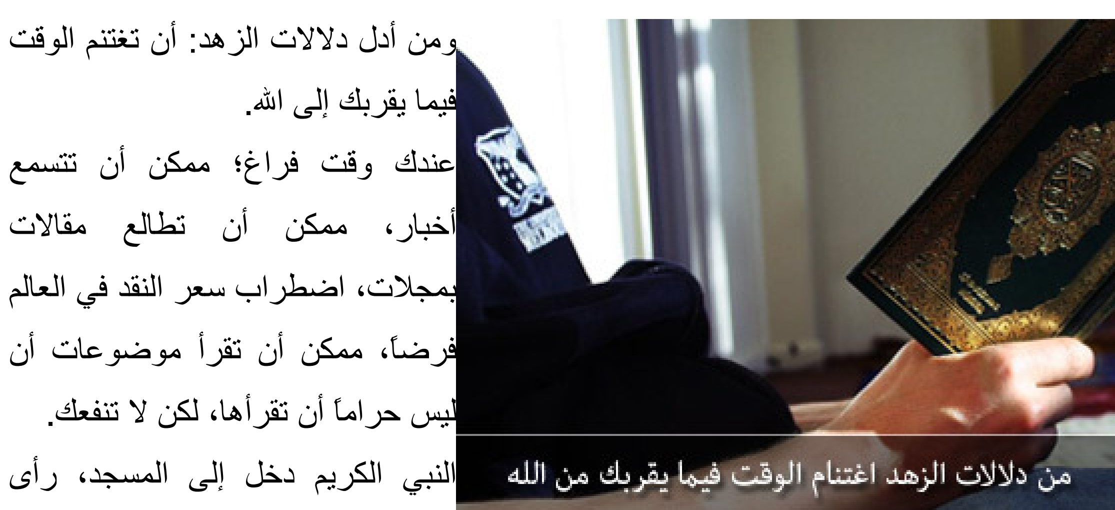
-ترك الحرام واجب وفرض، لكن حينما تأتي قضية تحير؛ من زاوية حرام، ومن زاوية حلال، عندي حلال لكن عندك قلق، فلذلك: أنت حينما تدع الشبهة في الحرام فأنت زاهد- والأنفة من المنقصة -تأنف نفسك أن تسقط من عين الله- وكراهة مشاركة الفساق.

نقطة مهمة :

يوجد احتفال ضخم بفندق خمس نجوم، ونساء كاسيات عاريات، وأنت تغض بصرك، طبعاً هذه الحفلة كلها أنت بغنى عنها، أنت لا أقول: تعصي الله، لا، لكن مشاركة الفساق ليس من الورع، من صحب الأراذل جرحت عدالته، الزاهد تأنف نفسه أن يسقط من عين الله لا من عين الناس، وسقوط الإنسان من السماء إلى الأرض، وتتحطم بهذا السقوط أضلاعه، أهون من أن يسقط من عين الله، مشاركة الفساق هم يزدحمون على مواضع الرغبة من الدنيا.

تجد في مقصف جميل ازدحاماً شديداً، أو في المطعم الجيد، أو الفندق هناك ازدحام عليه، الزاهد نفسه تأبى أن يدخل هذا الخضم الذي لا يليق بالمؤمن.

من أدل دلالات الزهد :


من دلالات الزهد اغتنام الوقت فيما يقربك من الله

ومن أدل دلالات الزهد: أن تغتنم الوقت فيما يقربك إلى الله.

عندك وقت فراغ؛ ممكن أن تتسمع أخبار، ممكن أن تطالع مقالات بمجلات، اضطراب سعر النقد في العالم فرضاً، ممكن أن تقرأ موضوعات أن ليس حراماً أن تقرأها، لكن لا تنفعك.

النبي الكريم دخل إلى المسجد، رأى

رجلاً تحلق الناس حوله، قال: من هذا؟ -هذا سؤال العارف- قالوا له: هو نسابة، قال: وما نسابة؟ قال: يا رسول الله، يعرف أنساب العرب، قال : ذلك علم لا ينفع من تعلمه، ولا يضر من جهل به.
فإذا وجد شيء ليس حراماً، وليس حلالاً، شيء من المباحات فأنت تركته، وملأت وقتك بما ينفعك عند الله، ملأت وقتك بزيارة أخ، ونصيحة أخ، عمل صالح، متابعة موضوع علمي، قراءة قرآن، خدمة تؤديها لإنسان، أنت حينما تدع المباحات، لا ذنب في أخذها، ولا ثواب في أخذها، وتلتفت إلى ما تملأ به وقتك من عمل طيب ينفعك في الآخرة فأنت زاهد.

الكلمة الأخيرة عن الزهد :

إياكم أن تفهموا أن الزاهد هو رث الهيئة

آخر شيء في الموضوع: يجب أن تزهد بزهدك، يا أخي تركت بعثة جاءتني في الفنون الجميلة إلى بلد غربي، وتركتها لله، هذا شيء لا يذكر أمام ما عند الله في الجنة.
إنسان منحك بيت ومركبة وزوجك، قال: مرة تركت شيئًا قيمته خمس ليرات من أجلك، هو ماذا أعطاه؟ أعطاه كل شيء، فالمؤمن عندما يكون أديباً مع الله، يستحي بزهده، تركت هذا الشيء من أجلك، الله عز وجل هو أهل التقوى والمغفرة، فقضية الزهد أولاً: إياكم أن تفهموا الزهد إنسان رث الهيئة.
قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:

((كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقَالَ لَنَا: إِنَّكُمْ قادِمُونَ عَلَى أَخْوَانِكُمْ، فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَلِبَاسَكُمْ، حَتَّى تَكُونُوا فِي النَّاسِ كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ))

الزهد أن تشتغل فيما خلقت من أجله.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٠٨-٦٤) : تأكيد الذات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

ما تعريف حالة الإنسان عندما يتحدث عن بطولاته ومنجزاته.؟ :

أيها الأخوة الكرام، يقول الله جل جلاله:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء الآية: ٤٩]

أيها الأخ الكريم، ألا ترى معي أن الله جل جلاله يذم هؤلاء الذين يزكون أنفسهم؟ قد تجد إنساناً كل حديثه عن تزكية نفسه، وكل حديثه عن بطولاته، وعن إنجازاته، وعن مكتسباته، وعن مكانته، وعن علمه، كأن الله سبحانه وتعالى بهذه الآية لا يرضى عن هذا الإنسان، ذلك أن الإنسان عنده دوافع ثلاثة؛ دوافع ثابتة: إنه يشتهي الطعام والشراب حفاظاً على حياته، وزين في نفسه حب المرأة حفاظاً على النوع، لكن الدافع الثالث سماه العلماء: تأكيد الذات.

كل إنسان بعد أن يأكل ويشرب ويتزوج، عنده دافع كبير إلى أن يؤكد ذاته، يتحدث عن بطولاته، عن منجزاته، عن حجمه المالي، عن رحلاته، عن سفراته، عن نشاطاته، الهدف أن يروي ميلاً فطرياً في الإنسان.

كيف يشبع الإنسان هذا الميل الفطري لتأكيد الذات؟ :



أيها الأخوة، هذا الميل الفطري لتأكيد الذات: يمكن أن يحقق في طاعة الله، أنت حينما تطيع الله عز وجل، حينما تستقيم على أمره، وحينما تتحرك تقرباً من الله عز وجل، الله جل جلاله يرفع لك ذكرك، قال تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح الآية: ٤]

ويوجد علاقة عكسية: أنه كلما مدحت نفسك، صغرت من عين الناس، وكلما عتمت على نفسك وذكرت ربك، رفعك الله بين الخلق.

((ما ذكرني عبدي في نفسه، إلا ذكرته في نفسي، ولا ذكرني في ملأ من خلقي، إلا ذكرته في ملأ خير منهم))

هذا الميل عند كل إنسان، أما حينما يؤثر أن يمدح ربه، وأن يمدح رسوله، وأن يمدح صحابته الكرام، وأن يمدح أهل الحق، وأن يعتم على نفسه هذا التعتيم، له مفهوم عكسي، الله عز وجل يتولى أن يرفع لك ذكرك:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح الآية: ١-٤]

الله عز وجل حينما يعز إنساناً، لا تستطيع جهة في الأرض أن تذله، العزة لله جميعاً:

اجعل لربك كل عز ك يستقر ويــثبت

فإذا اعتززت لمن يموت فإن عزك ميت

ما قاله علماء التفسير حول معنى هذه الآية:

الإنسان أحياناً يعتز بإنسان قوي، يلوذ به، يثني عليه، يقيم معه علاقات متينة من أجل أن يحتمي به، وأن يعلو على الناس بعلاقته الطيبة به، لكن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم الآية: ٩٦]

هل هناك من مودة أعظم من أن تكون لك مودة مع الله عز وجل؟ أن تكون بعين الله، ألا ترى بأن هذه الآية تكفي؟:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور الآية: ٤٨]

وقد قال علماء التفسير: إن كل مؤمن له من هذه الآية نصيب.

أي بالتعبير الدارج: أنت غال على الله، لا يستطيع أحد أن ينال منك:

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

ينبغي أن تعلم هذه الحقيقة :

كأن الموضوع في هذا اللقاء حول: أن الميل الثالث بعد الميل إلى الطعام والشراب حفاظاً على الفرد، وبعد الميل إلى الطرف الآخر حفاظاً على النوع الميل إلى تأكيد الذات، وأن يعلو الإنسان في الأرض، وأن ينظر الناس إليه، وأن يرمقونه بأبصارهم، هذا الميل يحقق لو اتجهت إلى الله، وأطعته، وكنت مستقيماً على أمره، عندئذ يتولى الله عنك رفع ذكرك.

هل ترى أن في الأرض إنساناً رُفع ذكره كرسول الله؟ ما إن يذكر الله عز وجل حتى يذكر معه رسول الله.

فأنا أقول لكل أخ كريم: مهما عتمت على نفسك، مهما أبعدتها عن الأضواء، مهما تواضعت لله، فالله عز وجل يرفع لك ذكرك، ولا يضيع عليك عملك، لكن لمجرد أن تمدح نفسك تصغر من عين الناس، فاكتف بأن الله سبحانه وتعالى يتولى رفع ذكرك، ورفع شأنك، وأن يجعلك متألقاً من عنده، هذه واحدة.

علام تشير هذه الآية؟ :


المؤمن يتحرى أي خبر قبل أن يذيعه

الناحية الثانية في آيات اليوم: أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ)

[سورة النساء الآية: ٨٣]

هذه الآية تشير إلى الإشاعات التي تضعف النفوس، دائماً مع وجود المنافقين، مع وجود الخائفين، مع وجود من لا يملك حكمة، خبر ليس له أساس من الصحة، يروج سريعاً، فإذا هو يسري كما تسري النار في الهشيم، هذا الخبر قد يضعف

النفوس.

من صفات المؤمن: أنه قبل أن يذيع خبراً، قبل أن ينشر خبراً، يتأكد منه أولاً، وإذا تأكد منه أولاً: لا يجتهد، وينشره مباشرة، بل يعيده إلى أولي الأمر:

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ)

[سورة النساء الآية: ٨٣]

وفي غيبة الرسول:

(وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ)

[سورة النساء الآية: ٨٣]

وأولو الأمر هم العلماء والأمراء، فالعالم الله عز وجل نوّر بصيرته، ومعه أدلة قوية على التصرف الصحيح:

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء الآية: ٨٣]

معنى ذلك: أن الإنسان لا ينبغي أن يذيع كل ما سمعه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[أخرجه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه]

لا بد من ضبط، وأحياناً الإنسان يتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً.

و: قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة.

هكذا ورد في الأثر، إذاً: ترويج الأخبار غير الدقيقة، ودائماً أعداء الدين يعتمدون على ترويج الأخبار غير الصحيحة عن المؤمنين.

احذر أن تقع في هذا الخندق :

يوجد آية واحدة خطيرة جداً، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

[سورة النور الآية: ١٩]

هو ما فعل شيئاً، لكنه أحب أن تشيع الفاحشة، أي خبر سيء راج بين المؤمنين، ويوجد ضعضعة بثقة الناس بالدين ارتاح، راحته بانتشار هذا الخبر: يقتضي أن يعاقب أشد العقاب، لأنه عندئذ لا ينتمي إلى المؤمنين، هو في خندق المنافقين.

هذه علامة دقيقة جداً: أنك إذا ارتاحت نفسك لمصيبة نزلت بمؤمن، فهذه الراحة اجعلها دليلاً يقينياً على أنك لست في خندق المؤمنين، إنك في خندق المنافقين.

فهذا الموضوع -أيها الأخوة-: قبل أن تنشر خبراً، قبل أن تروج خبراً، قبل أن تشمت، قبل أن ترتاح نفسك لمصيبة نزلت بمؤمن، هل في الأرض كلها امرأة ترتاح لفضيحة ابنتها؟ مستحيل، إلا في حالة واحدة: ألا تكون ابنتها، إذاً: هي ليست أمها، والإنسان حينما يفرح لمصيبة نزلت بالمؤمنين، يضع نفسه قطعاً في خندق المنافقين، وهذه الآية لها دلالة طيبة جداً، على أن الإنسان لا يتسرع، فينقل خبراً لم يتأكد من صحته.

خاتمة القول :



آخر ملاحظة: أن الله سبحانه وتعالى يعلمنا كيف نصلي صلاة جماعة، ونحن في خط المواجهة الأول مع العدو، فإذا كان الإنسان -وهو في خط المواجهة مع العدو- مكلفاً أن يصلي جماعة، فكيف إذا كان في السلم؟ وكيف إذا كان في بحبوحة؟ وكيف إذا كان في مدينة آمنة، والجامع إلى جانبه؟.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ خَرَجَ مِنْ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والنسائي في سننه]

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٠٩-٦٤) : مراقبة الله للإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

من الأحوال التي تلازم المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، من الأحوال التي تلازم المؤمن حال المراقبة، فالله سبحانه و تعالى يقول:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ)

[سورة البقرة الآية: ٢٣٥]

أن تشعر أن الله مطلع على ما في نفسك، أي خاطر يأتيك، وأي حديث نفس داخلي يجري، الله عز وجل مطلع عليه، ويقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء الآية: ١]

رقيب على كل شيء، ونحن أحياناً نراقب ظاهر الإنسان، لكنه جل جلاله يراقب ظاهره و باطنه، أي: هذا الإنسان إذا بقي ساكتاً وساكناً مطلع على قلبه، إذا تحرك مطلع على حركته، إذا نطق مطلع على نطقه، إن كنت ساكتاً ساكناً مطلع على قلبك، إن تحركت يرى حركتك، إن نطقت يسمع كلامك.

ما هي المعية العامة وما هي المعية الخاصة؟ :

والآية الثالثة:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد الآية: ٤]

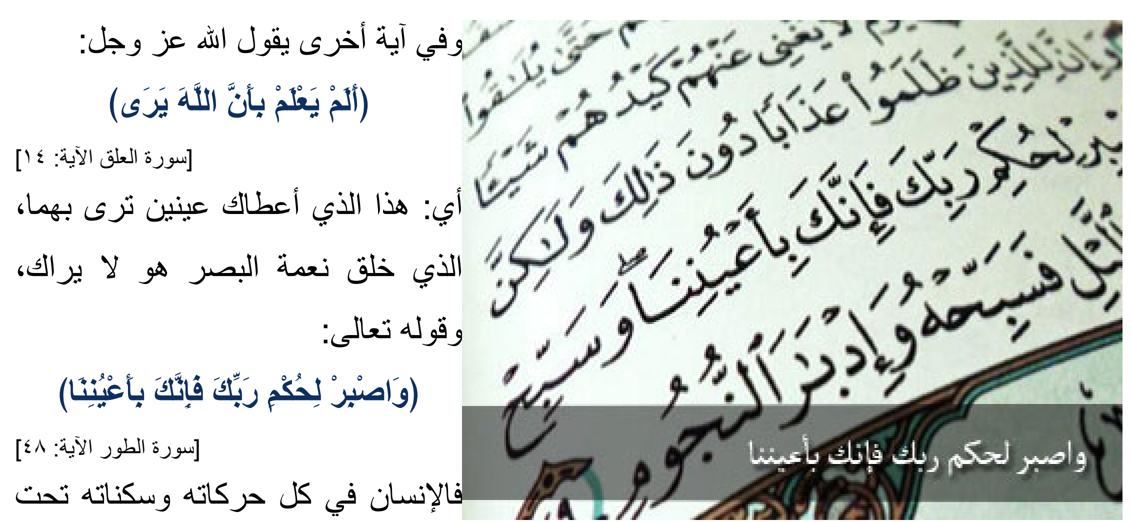
في أشد حالاتك الخاصة هو معك، في أشد علاقاتك الحميمة هو معك، في خلوتك وفي جلوتك، في سرك وفي علانيتك، في حركاتك وفي سكناتك، هنا معكم بعلمه:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد الآية: ٤]

بعلمه، لأن المعية العامة تعني العلم، بينما المعية الخاصة تعني التوفيق والحفظ والتأييد والنصر.

ما فحوى هاتين الآيتين؟ :



وفي آية أخرى يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)

[سورة العلق الآية: ١٤]

أي: هذا الذي أعطاك عينين ترى بهما، الذي خلق نعمة البصر هو لا يراك، وقوله تعالى:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور الآية: ٤٨]

فالإنسان في كل حركاته وسكناته تحت عين الله عز وجل، بل إن هناك حالات لا يمكن لإنسان على وجه الأرض أن يكشفها، أنت راكب في سيارة، وهي تمشي في طريق مزدحمة، من الذي يكشف أنك تغض البصر عن محاسن النساء، أو أنك تملأ عينيك من محاسنهن؟ لا يمكن لإنسان أن يكشف هذه الحقيقة.

ما هي أعلى مرتبة في الإيمان؟ :

طبيب يفحص امرأة تشير إلى مكان يؤلمها، من الذي يكشف أنك اختلست نظراً إلى مكان آخر؟ هذا الشيء فوق طاقة البشر، لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر الآية: ١٩]

من حديث جبريل -عليه السلام-:

((أنه سأل النبي -عليه الصلاة والسلام- عن الإحسان، فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

وهذه أعلى مرتبة في الإيمان، هناك مرتبة الإسلام، وهناك مرتبة الإيمان، وهناك مرتبة الإحسان، أي: ذروة إيمان المرء: أن يشعر أن الله معه دائماً.

انظر إلى هذا القول لبعض أهل العلم :

في الحقيقة أيها الأخوة: أنت مع إنسان من وجهاء قومك، زارك إلى البيت في العيد رجل من وجهاء القوم، لأنك تشعر أنه معك؛ جلستك مؤدبة، ثيابك منتظم، كلامك مدروس، حركتك، سكنتك، لا يعقل أن تتثاءب أمامه هكذا، تضع يدك على فمك، تجلس أمامه بأدب، لا يعقل أن تستقبله بثياب داخلية، مستحيل، أنت أمام إنسان من وجهاء القوم، لأنك موقن أنه معك ، ومراقبك؛ تضبط حركاتك، وسكناتك، وثيابك، فكيف إذا أيقنت دائماً أن الله معك؟.

لابد من مراقبة الخواطر فالخاطرة قد تنقلب إلى حقيقة

قال بعض العلماء: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه.

الإنسان له أن تأتيه الخواطر ما شاء له أن تأتيه، لكن لو أنه راقب الله في خواطره، قد ينظر إلى امرأة مثلاً، هناك من يتصور أنه يجامعها فرضاً، هذا خاطر لا يليق بالمؤمن فرضاً، الخاطرة قد تنقلب إلى فكرة، والفكرة قد تنقلب إلى عزيمة، والعزيمة قد تقترب إلى الشهوة، والشهوة يأتيها الإصرار فتكون فعلاً، والفعل إذا داومت عليه أصبح عادة، ومن أصعب الحالات مفارقة العادات.

إذاً: حينما لا تعالج القضية في مستوى الخواطر فالأمور تزداد.

وقال الجنيد -رحمه الله تعالى-: من تحقق في المراقبة، خاف على فوات لحظة من ربه لا غير. ينبغي أن تكون مع الله دائماً.

من علامة المراقبة :

قال بعض العلماء: علامة المراقبة: إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وصغير ما صغر الله. مقياس دقيق، الله عز وجل يقول:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج الآية: ٣٢]

إن لم تعظم هذه الشعائر فأنت لا تراقب الله، والشيء الذي ذمه الله، ينبغي أن يكون عندك صغيراً ليس كبيراً، هذا مقياس دقيق أيضاً، الشيء الذي تراه كبيراً وهو عند الله صغير، هذه مشكلة كبيرة، الدنيا عند الله صغيرة، لو أنها تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى الكافر منها شربة ماء.

ما قيل عن المراقبة :

قال بعضهم: المراقبة: خلوص السر والعلانية لله عز وجل.

-أي علانيتك كلها لله، وسرك كله لله.



يوجد كلام دقيق: إذا جلست إلى الناس، فكن واعظاً لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك، لذلك:

لما دخل عبد الله بن المبارك على أخوانه، وكانوا جمعاً غفيراً، وبالغوا في تكريمه بكى، وقال: يا رب، لا تحجبني عنك بهم، ولا تحجبهم عنك بي.

أحياناً الإنسان إذا بلغ مرتبة عالية، وتمكن من قلوب الناس، ينسى أن هذا من فضل الله عليه، فيحجب عن الله بهم، والناس أحياناً يعظمون هؤلاء، إلى درجة أنهم على حساب طاعتهم لله عز وجل، فالناس مجتمعين، قد يحجبون عن الله بشخص، والشخص قد يحجب عن الله عز وجل بهذا الجمع الغفير-.

والمراقبة: أن تعبد الله بأسمائه:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

[سورة الأعراف الآية: ١٨٠]

أي: أن تعبده باسم الرقيب، وأن تعبده باسم الحفيظ، وأن تعبده باسم العليم، وأن تعبده باسم السميع، وأن تعبده باسم البصير، سميع، بصير، عليم، حفيظ، رقيب.

ما معنى: تعظيم مذهل ومداناة حاملة وسرور باعث؟ :



أخواننا الكرام، حينما تعلم أن الله يعلم، تكون قد قطعت إلى الله أربعة أخماس الطريق.

من ألطف ما وصف به حال المراقبة هي: تعظيم مذهل، ومداناة حاملة، وسرور باعث، فأما التعظيم المذهل:

فهو امتلاء القلب من عظمة الله عز وجل، بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره.

إذا كان القلب فارغًا من تعظيم الله، فأيّ شيء صغير يراه الإنسان عظيماً، أما إذا كان القلب ممتلئ بتعظيم الله، أي شيء عظيم يراه القلب صغيراً، مقياس دقيق جداً، أي إنسان قد يرى آلة بالغة في تعقيدها، وفي وظائفها، وفي أدائها، ونحن -كما تعلمون- في عصر الأشياء، العصور التي مرت بها البشرية على أنواع عديدة من هذه الأنواع عصور المبادئ، ويوجد عصور الأشخاص، ويوجد عصور الأشياء، مجتمع ليس فيه إلا تعظيم هذا الإنسان هذا مجتمع، مجتمع فيه مبادئ مطبقة على الجميع، مهما كان الإنسان عظيماً، هذا مجتمع المبادئ ، ويوجد مجتمع الأشياء، الإنسان قيمته في متاعه، يستمد قيمته الاجتماعية من نوع مركبته، بل من رقم يضاف إلى مركبته.

أحياناً: أنا لا أصدق أن لوحة مركبة إذا كان الرقم قليلاً خمسة، ستة، عشرة، ثمن هذه اللوحة عشرة أضعاف ثمن المركبة، هذا شخص مهم جداً، اللوحة لسيارته ثمانية رقمها فقط، هذا شخص مهم جداً، يدفع ثمن الثمانية عشرة أضعاف ثمن المركبة، هذا عصر الأشياء، يستمد قيمته من مساحة بيته، من مكان بيته، من إطلالة بيته، من نوع مركبته، يوجد مركبات من نوع واحد، لكن لها أرقام بين المئة وعشرين بين الستمئة، مسافة كبيرة جداً، هذا عصر الأشياء، فلذلك: حينما يذهل الإنسان المؤمن بتعظيم الله عز وجل، كل شيء ما سوى الله صغير عنده.

أحياناً الإنسان يتحدث عن حامل الطائرات، تجده انتهى، يقول لك: مدينة عائمة، يوجد فيها عشرة آلاف إنسان، يوجد بها مطاعم، فيها ملاعب، فيها ... يصف وصفاً تجده ذهب، يعظم صنع إنسان، بينما الله عز وجل يوجد بصنعته أشياء لا يصدقها العقل، فنقطة أنه حينما يمتلئ قلبك بتعظيم الله، تصغر الدنيا في عينيك، وحينما يضعف تعظيم الله عز وجل، أي شيء تجده صعق، بالتعبير العامي: تجده التوى، هذا جاء من ضعف تعظيم الله في نفس الإنسان، هذا التعظيم المذهل، يوجد إنسان يضطرب من موظف بسيط، لكن يوجد علماء كبار لا يرون أحداً أمامهم إلا الله عز وجل، لذلك: هذا التعظيم يدعو إلى السير إلى الله، وإلى استدامة هذا السير، وإلى حضور القلب معه، وإلى تعظيمه، وإلى الذهول بعظمته عن غيره، أما الدنو الحامل على هذه الأمور، فالدنو من الله عز وجل الذي يملأ القلب سعادة وأمناً وسكينة، هذا الغنى الذي في قلب الإنسان، يغنيه عن أن يلتفت إلى سوى الله عز وجل.

من أحوال أهل الجنة :



الآن يوجد نقطة دقيقة: السرور الذي يتولد من إحكام الصلة بالله عز وجل، والفرح بقربه، وقرة العين به: لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا البتة.

ماذا يوجد بالدنيا نعيم؟ تكون له زوجة ملكة جمال العالم مثلاً؟ يكون له بيت ألف متر بأجمل مكان بالعالم؟ تكون له مركبة لا نظير لها مثلاً؟ هذه شهوات الدنيا، امرأة، ومركبة، وبيت، وبستان، وطعام نفيس، هذه شهوات الدنيا، القرب من الله يورث حالة لا يشبهها شيء من نعيم الدنيا، هذا نوع من أحوال أهل الجنة، يؤكد هذا المعنى قول الله عز وجل:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

[سورة محمد الآية: ٦]

أي: أذاقهم طعمها في الدنيا، لذلك قال بعض العلماء:

في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

جنة القرب من الله عز وجل.

ويقول أيضاً: ماذا يفعل أعدائي بي؛ بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي؟.

يقول بعض العارفين -دققوا في هذا الكلام-: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

أي أنا عبرت عن هذا مرة بهذه العبارة: إن لم تقل أنا أسعد الناس، ففي الإيمان خلل، مع إيمانك بالله لا يمكن أن يكون هناك شقاء، بيده كل شيء، وأحياناً يتجلى على قلبك بسكينة تسعد بها، ولو كنت في المنفردة، ويحجب عنك هذه السكينة فتشقى بحجبها، ولو كنت في قصر، هذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

ما هو روح العبادات في الإسلام؟ :

يوجد في الإيمان حقائق أيها الأخوة، لكن الناس حجبوا عن الإيمان بمظاهر الإيمان، بصراحة مؤلمة: مظاهر الإيمان وحدها مملة، الصلاة مثلاً:

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

[سورة البقرة الآية: ٤٥]

أي: صعبة، مظاهر الإسلام، العبادات الشكلية من دون اتصال بالله متعبة، وصعبة على النفس، الإسلام فيه ثمرات كبيرة جداً، حينما ضاعت هذه الثمرات، شكلياته ليس معتنى بها من قبل المسلمين.

الإنسان من نوع التحذير، حينما لا يجد هذه السعادة في قلبه، ولا هذا السرور، ولا شيئاً منه، فليتهم إيمانه وأعماله، فإن للإيمان حلاوة، من لم يذقها فليرجع، وليحاسب نفسه حساباً عسيراً.

عَنْ الْعَبَّاس بْن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ:

((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ؛ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

متى يذوق العبد حلاوة الإيمان؟ :

آخر حديث وهو جامع مانع: عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

أي إذا كان الله في قرآنه في الأمر والنهي، وكان الرسول في سنته في الأمر والنهي، أحب إليه مما سواهما، هذا بند أول.

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

هذا البند الثاني، أما البند الثالث:

((وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

أشياء ثلاثة: الولاء والبراء، والخوض في أعماق الدين، وأن يكون الله في أمره ونهيه، والرسول في أمره ونهيه أحب إلى الإنسان مما سواهما من الدنيا كلها، فإذا تناقض الحكم الشرعي مع مصلحته، وضع مصلحته تحت قدمه، ولزم الحكم الشرعي، عندئذ يقول الله له: دفعت ثمن حلاوة الإيمان، وسأذيقك إياها.

حلاوة الإيمان شيء، وحقائق الإيمان شيء آخر، حقائق الإيمان يعرفها مليار وثلاثمئة مليون مسلم، وهم لا وزن لهم في الأرض الآن.

لسان حال المسلمين اليوم :

حدثني أحد خطباء دمشق -من فمه إلى أذني، لا يوجد وسيط-: ذهب إلى ألبانيا، وألقى خطبة في أكبر مسجد، هناك أمامه عشرون ألفاً، وألقى خطبة رائعة جداً، من شدة الخشوع والبكاء: ما من واحد إلا وانهمرت دموعه، ومع هذا التأثر الشديد، كل شخص معه زجاجة خمر أخرجها وشرب، لم يتحمل، صار له خشوع كبير.

هذا حال المسلمين: يشرب الخمر في المسجد، تقول: يوجد مليار وثلاثمئة مليون مسلم، من أجل مغنيتين: ستة وثمانون مليون اتصال، من أجل برنامج آخر: خمسة وستون مليون اتصال خلال عشرين يوماً، مكلفين مليارات الدولارات، والأمة تموت من الجوع.

يقول لك: مليار وثلاثمئة مليون مسلم، خير إن شاء الله، لا وزن لهم عند الله، أين أمة محمد ؟ أين أمة التراحم؟ أين أمة العدل؟ أين أمة الإحسان؟ أين أمة الطاعة لله عز وجل؟ كما يقول اليهود:

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

[سورة البقرة الآية: ٩٣]

هذا لسان حال المسلمين.

خاتمة القول :

فلذلك أيها الأخوة: يوجد في الإيمان مراتب عالية جداً، يوجد بالإيمان والله سعادة لا تستطيع أن تقوضها سبائك الذهب اللامعة.

المؤمن التبر والتراب يستويان عنده، ولا تستطيع أن تقوضها سياط الجلادين اللاذعة ، أحد أحَد، هذا الإيمان، أما إيمان فولكلوري، إيمان شكليات، إيمان عادات وتقاليد، إيمان بعيد عن البذخ والتضحية، بعيد عن الالتزام كما ترى، كأن الله تخلى عنا، لأننا محسوبون نحن عدداً، نحن رقم لا معنى له، تجد جماهير مشغولة بشهواتها، يقول لك: على رمضان، لنرى أن هذا للتلفاز ليس جيداً،

عند المؤمن يستوي الذهب والتراب

لا همّ له إلا أن يصلح الصحن من أجل رمضان، وكل المعاصي والآثام إكراماً لشهر رمضان المبارك كلها، وشاع في العالم الإسلامي الخيام الرمضانية، تبدأ بميلوية، وتنتهي برقص النساء قبل السحور، فندق من المغرب حتى السحور في كل ألوان الفنون المحرمة، كلهم مسلمون.

فيا أيها الأخوة، العدد لا قيمة له أبداً، البطولة ألا ينفرد الباطل بالساحة، ولو هناك بقعة ضوء صغيرة، هذه تنمو.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أصناف البشرية :

أيها الأخوة الكرام، في الأرض الآن مذاهب واعتقادات واتجاهات وأديان وشرائع ونظم، الأرض طافحة بالأفكار والتصورات والفلسفات، أما من حيث السلوك: فالبشر متوزعون بنماذج لا تعد ولا تحصى، ولكن هل تصدقون أن كل هذا التنوع في التفكير، وأن كل هذا التنوع في السلوك يمكن أن ينتظم بنموذجين؟:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ)

[سورة المائدة الآية: ٢٧]

سيدنا آدم أبو البشرية، له ابنان، البشر من آدم إلى يوم القيامة، على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأجناسهم، وألوانهم، وخصائصهم، ومذاهبهم، وطوائفهم، هم في النهاية؛ إما إنسان يشبه قابيل، أو إنسان يشبه هابيل، هابيل قدم قرباناً إلى الله من أفضل ماله، وقابيل قدم قرباناً من أسوأ أمواله، إنسان تقرب إلى الله بأطيب أعماله، وإنسان تقرب إلى الله بأسوأ أعماله، قابيل آثر شهوته على حكم الله، وهابيل آثر طاعة الله على حظه من الدنيا، ولن تجد في الأرض إلا أحد هذين النموذجين، هناك لله حكم، وهناك شهوة ومصالح وأهواء، فإذا آثرت حكم الله على مصالحك، وعلى شهواتك، وعلى أهوائك، فأنت كهابيل مؤمن راق، وأنت إذا آثرت مصالحك وشهواتك وأهواءك على حكم الله عز وجل، فأنت كقابيل، ولن تجد في الأرض إنسان ثالث؛ قابيل أو هابيل.

ما محور هذه القصة؟ :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ)

[سورة المائدة الآية: ٢٧]

هذه الآيات شرحت مطولاً بأحد دروس الجمعة، يهمني في هذه العجالة: أن أضع خطوط عريضة للقصة، قال تعالى:

(فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا)

[سورة المائدة الآية: ٢٧]

لأن هابيل قدم قرباناً من خير أمواله، لأنه ينطلق من محبة الله عز وجل، ولأن قابيل قدم قرباناً من أسوأ أمواله، قال تعالى:

(فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ)

[سورة المائدة الآية: ٢٧]

الآن ماذا فعل هابيل؟ ما فعل شيئاً، إلا أنه كان مطيعاً لله، إلا أنه قدم قرباناً من أفضل أمواله، قابيل لم يحتمل أن يكون هابيل أفضل منه، اعتدى على حياته وقتله، الآن:

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

[سورة البروج الآية: ٨]

تجد الآن المسلم لا ذنب له، ذنبه أنه مسلم فقط، لأنه استقام على أمر الله ترك الخمر والميسر، ترك الأنصاب والأزلام، ترك شرب الخمر، ترك الزنا، ترك المعصية، ترك السرقة، ترك الكذب والاحتيال، ما فعل شيئاً إلا أنه استقام على أمر الله، فلما استقام على أمر الله كشف المنحرف.

هو الحقيقة: في الحياة في مستقيم ومنحرف، مؤمن وكافر، صادق وكاذب، مخلص وخائن، رحيم وقاسٍ، ظالم ومنصف.

هابيل لأنه قدم قرباناً من أفضل أمواله، وآثر طاعة الله على شهوته، واستحق عند الله مكانة علية كشف قابيل، هابيل كشف انحطاط قابيل، قابيل لم يحتمل فقتله، أرأيتم إلى هذه القصة، قد يحمل المنحرف غيظه من المؤمن على أن ينهي حياته، هذا القتل الذي يجري في العالم للمسلمين في كل بقاع الأرض، هي القصة نفسها، إنسان استقام على أمر الله، وطلب مرضاة الله عز وجل، ونقل اهتماماته إلى الآخرة، وكان عفيفاً.

لماذا أعداؤنا يحقدون علينا؟ :

مثلاً: فتاة ترتدي ثياب الشاذات جنسياً في نيويورك، الشاذات لهن ثياب خاصة، مدير المدرسة رفضها، أقام أبوه دعوى عليه، فربح الحكم، وغرمه بثلاثين ألف دولار، أما فتاة مسلمة ترتدي حجاباً يستر مفاتنها، تريد أن تكون محتشمة، لا تريد أن تؤذي عباد الله، والإسلام يغطي ثلث سكان الأرض، ولأن هذه الثياب ثياب الاحتشام في فطر البشر كلهم: ممنوع أن ترتدي الحجاب في فرنسا، كنت أظن أن الحجاب لا يرتدى فقط، ممنوع أن تدخل المدرسة بالحجاب، يجب أن تأتي إلى المدرسة، وإلا يحاكم أبوها، ويجب أن تبقى في غرفة دون أن تُعلم شيئاً، شيء عجيب، لماذا الحقد على المسلمين؟ لأنهم مسلمون، لماذا أحرقهم الملك الذي أحرق أصحاب الأخدود، لماذا أحرقهم؟ قال تعالى:

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

[سورة البروج الآية: ٨]

فالمسلم أحياناً ذنبه الوحيد أنه مسلم، أنه استقام على أمر الله، أنه خاف من الله كشف الإنسان الآخر، الإنسان الآخر لم يحتمل فأنهى حياته:

(قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة المائدة الآية: ٢٧]

أنا اتقيت أن أعصيه، ورضيت بحكمه، وقدمت له أفضل مالي:

(لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)

[سورة المائدة الآية: ٢٨-٣١]

لحكمة بالغةٍ بالغة بدأ البشرية بنبي كريم.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي ...))

[أخرجه الترمذي وابن ماجه في سننهما]

إذاً: سيدنا آدم يأتي فوق كل الأنبياء والمرسلين، ومن ذريته قابيل وهابيل واحد يمثل الكفار؛ الشهوانيين، المعتدين، القتلة، وواحد يمثل الطائعين، المنضبطين الذين أرادوا الله والدار الآخرة.

متى يخرج العبد عن منهج الله؟ :

أخواننا الكرام، هناك آية:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ)

[سورة المائدة الآية: ٦٨]

نقول فلان على علم، لا يعني أنه عالم كبير، على شيء من العلم، فلان على غنى ، فلان على قوة، أما أقل كلمة يمكن أن يعبر بها عن أقل شيء هي كلمة شيء، فيقول الله عز وجل:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

[سورة المائدة الآية: ٦٨]

قس هذه القاعدة على المسلمين، انظر أبنية، مساجد، معاهد، كليات، مصحف مزخرف، يعني في مظاهر إسلامية بالحياة الآن لا تصدق، فن إسلامي، بناء إسلامي، زخرفة إسلامية، فلكلور

إسلامي، مؤلفات إسلامية، مؤتمرات إسلامية، مكتبات إسلامية، مكتبات صوتية، مكتبات سمعية، مكتبات صور متحركة.

الله عز وجل كأنه يقول لكل المسلمين للمليار والثلاثة مئة مليون: لستم على شيء حتى تقيموا القرآن، كلها أشياء لا تمد إلى جوهر الدين، لستم على شيء حتى تقيموا القرآن، وهذه الآية ينبغي أن تكون ديدن كل واحد منا، أنا لست على شيء حتى أقيم الإسلام في نفسي، في بيتي، في عملي، وحينما نقيم الإسلام في بيوتنا، وفي أنفسنا، وفي أعمالنا، يكون الله عز وجل له معنا نصر آخر، هناك من يشعر أن الله تخلى عنا، لكن الله لا يتخلى عن المؤمنين. إذاً:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

[سورة المائدة الآية: ٦٨]

يقاس على هذه الآية ونحن المسلمين لسنا على شيء حتى نقيم القرآن الكريم، القرآن بين أيدينا، وكل واحد منا يقرأه صباح مساء، ونستمع إليه طوال هذا الشهر الكريم، فأنت حينما تقرأ القرآن، اسأل نفسك: هل أنت في مستوى هذه الآيات؟ إذا قال الله لك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

هل تغض بصرك عن محارم الله؟ إذا قال الله لك:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

[سورة البقرة الآية: ٨٣]

هل تفعل ذلك؟ إذا قال الله لك:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)

[سورة النحل الآية: ٩٠]

هل تعدل بين أولادك؟ بين أصهارك؟ بين شركائك؟ هذا ملخص ملخص الملخص ، لسنا على شيء حتى نقيم القرآن الكريم:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

[سورة المائدة الآية: ٤٥]

لأنفسهم:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

[سورة المائدة الآية: ٤٤]

أي: لا تعبؤون بعظمة هذا الشرع:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة آل عمران الآية: ٨٢]

أي خرجوا عن منهج الله، ثلاث آيات.

ملخص الدرس :

القصة البشرية المتمثلة بقابيل وهابيل؛ إنسان عرف الله فأطاعه، وتقرب إليه فسلم، وسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان غفل عن الله وآثر شهوته على طاعته، واعتدى على خلقه ولو بالقتل فشقي في الدنيا والآخرة، هذه قصة البشرية، قابيل يمثل نموذجًا، وهابيل يمثل نموذجًا، وكل واحد من البشر؛ إما أن يكون الأقرب إلى قابيل، أو أقرب إلى هابيل، حينما تؤثر طاعة الله على مصلحتك وهواك وشهوتك، فأنت قريب من هابيل، وحينما تؤثر شهوتك وهواك ومصلحتك على شرع الله عز وجل وعلى حكم الله، فأنت قريب من قابيل، ولسنا على شيء حتى نقيم القرآن الكريم، فإن لم نحكم بما أنزل الله في بيعنا وشرائنا واحتفالاتنا وأفراحنا وأتراحنا وحلنا وترحالنا وزواجنا وسفرنا، فإن لم نحكم بما أنزل الله، فالآيات ثلاثة: ظالمون لأنفسنا، كافرون بعظمة هذا الشرع، فاسقون، خرجنا عن منهج الله.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (١١-٦٤) : الإخلاص

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

من لوازم إيمان المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، من لوازم إيمان المؤمن أن يكون مخلصاً، وهذا الموضوع هو أخطر موضوعات الدين، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

[سورة البينة الآية: ٥]

فالجوارح تنصاع لأمر الله، والإخلاص في القلب، وما لم يكن هناك إخلاص فلا قيمة لعمل الجوارح، إذاً: الإخلاص هو الدين كله، الدين كله إخلاص، فإن لم يكن إخلاصاً كان رياء، ولا قيمة لكل هذا النشاط الذي يمارسه، قال تعالى:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

[سورة البينة الآية: ٥]

الجوارح تنصاع لأمر الله، والقلب يخلص الوجهة إلى الله:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)

[سورة الزمر الآية: ٢ - ٣]

(قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ)

[سورة الزمر الآية: ١٤ - ١٥]

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة الأنعام الآية: ١٦٢-١٦٣]

ما مقياس العمل الحسن الذي يقبله الله؟ :

أيها الأخوة، حينما يقول الله عز وجل:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية: ٢]

ما مقياس العمل الحسن الذي يقبله الله عز وجل؟.

قالوا: ما كان خالصاً وصواباً؛ خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

فالعمل الخالص الذي لا يوافق السنة لا يقبله الله عز وجل، والعمل الذي يوافق السنة، وليس فيه إخلاص لله عز وجل لا يقبله الله، لذلك كان الإخلاص ومطابقة السنة شرطان لا ينفع أحدهما من دون الآخر، الذي يؤكد ذلك:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

العمل الصالح ما كان صواباً، وما وافق السنة.

متى يكون العمل غير نافع؟ :

يعني أحياناً ترون أن هناك حفلاً غنائياً ريعه للعمل الخيري، وأن هناك مسابقة فيها معاصٍ لا تعد ولا تحصَى يرصد ريعها للأيتام، هذا مرفوض في الدين، الأهداف النبيلة لا يتوصل إليها إلا بوسائل نبيلة، لذلك أخطر ما في الموضوع: قد يكون للإنسان أعمال كالجبال، فإذا لم يكن مخلصاً لم تنفعه، قال تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

[سورة الفرقان الآية: ٢٣]

خيبة أمل لا توصف: أن يكتشف الإنسان في نهاية المطاف: أن كل عمله لا قيمة له:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

[سورة الفرقان الآية: ٢٣]

أخطر شيء في حياة المؤمن أن يتفحص قلبه :

إذا ملك إنسان بيتًا غالياً جداً، وباعه بأغلى سعر، ويحلم بأحلام لا تنتهي، ثم اكتشف أن العملة التي كانت ثمن البيت مزورة، قيمتها صفر، وكل إنسان يبتغي في الدين غير الله سوف يصاب بهذه الخيبة، وحينما يكتشف الإنسان عدم إخلاصه في الدنيا، فهذا فضل من الله كبير، إذا اكتشف وهو حي وقلبه ينبض عدم إخلاصه، هذا فضل من الله كبير، لأنه يصحح، أما حينما يكتشف وهو على فراش الموت أن الأعمال التي عملها، والتي هي عند الناس أعمال جليلة وعظيمة، لكنه أراد الدنيا من أجلها، لذلك:

الصحابة الكرام ماذا قال الله عن بعضهم؟ قال:

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٢]

وضمن العمل الإسلامي، ضمن المساجد، ضمن الدعوة إلى الله، هناك دنيا أحياناً ، هناك دنيا مؤثرة، وأنت في العمل الإسلامي، أخطر شيء بحياة المؤمن أن يتفحص قلبه:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء الآية: ٨٨-٨٩]

ما موضع الشاهد في هذه الأحاديث؟ :

النبي -عليه الصلاة والسلام- يقول لسيدنا سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-:

((إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً ...))

وسئل عليه الصلاة والسلام عن الرّجُلِ يُقاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيّة، ويُقَاتِلُ رِيَاءً، أيّ ذَلِكَ في سبيل الله؟ فقال:

((مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هيَ العُلْيَا فَهُوَ في سَبِيلِ الله))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

والحديث الذي يقسم الظهر أنه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ يَقْتَتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى رُكْبَتِي، فَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ، تُسَعَّرُ بِهِمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

لماذا؟ الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قارئ، وفلان شجاع، وفلان متصدق، وقد قيل .

فلذلك يقول سيدنا عمر: تعاهد قلبك.

إذا أخلصت في متابعة قلبك دلك الله على الخلل :

الإنسان بحاجة إلى متابعة قلبه، وأنا أؤكد لكم: أن الإنسان إذا أخلص في متابعة قلبه، دله الله على الخلل، لأن الإنسان كما قال الله عز وجل:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة الآية: ١٤-١٥]

بإمكانك أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، وبإمكانك أن تخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل، أما أن تخدع الله أو أن تخدع نفسك لثانية، هذا أشد أنواع المستحيل، ولا ثانية، كل إنسان برمجه الله أو فطره الله فطرةً يكتشف خطأه ذاتياً، لكن بعضهم يكابر:

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ)

[سورة النمل الآية: ١٤]

المظاهر لا قيمة لها عند الله، هذا الدليل :

ويقول الله عز وجل في الحديث الصحيح فيما يرويه النبي عن ربه:

((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ))

((إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ، ولا إلى صُوَرِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي في سننهما، ومالك في الموطأ]

المظاهر لا قيمة لها عند الله عز وجل.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ؟))

[أخرجه الترمذي في سننه]

قالوا عن الصدق والقصد والإخلاص كلمات ثلاثة لمضمون واحد: إفراد الحق سبحانه وتعالى بالقصد في الطاعة، أو تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

قف هنا :

يروى أن إنسانًا لزم صلاة الفجر في الصف الأول أربعين عاماً، تخلف في يوم واحد، فقال: ماذا يقول الناس عني هذا اليوم؟ سقطت عبادة أربعين عاماً.

أيها الأخوة، صدقوا: أنه ما من موضوع أخطر من هذا الموضوع، الإنسان وقته ثمين، أن يفاجئ بأن عمله لم يكن مقبولاً، لذلك: العبرة بقبول العمل لا بحجم العمل، عمل قليل مع الإخلاص، خير من أعمال كالجبال مع الرياء.

ما قيل عن الإخلاص :

قال بعضهم: الإخلاص: استواء الأعمال في الظاهر والباطن.

-المرائي ظاهره خير من باطنه، والصادق قد يكون باطنه خيراً ظاهره-.

الإخلاص نسيان رؤية الخلق، بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزين للناس بما ليس فيه، سقط من عين الله.

وقال بعض العلماء: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك.

-إن تركت عملاً من أجل الناس فهذا هو الرياء، وإن فعلت عملاً من أجل الناس فهذا هو الشرك- والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

والإخلاص: سر بين العبد وربه لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هواً فيميله، سر بينك وبين الله.

وقيل لأحد العارفين: أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص، لأنه لي لها فيه نصيب.

عدم الإخلاص: أن تطلب على عملك شاهداً غير الله، أو مجازياً غير الله.

أنت حينما تريد أن يشهد الناس عملك، أن يروا فضلك، أو يروا دعوتك، أنت حينما تريد أن تري الناس ما عندك، فهذا خدش في الإخلاص.

بعضهم قال: ما أخلص عبد أربعين يوماً، إلا ظهرت ينابيع الحكمة في قلبه، وأجرها الله على لسانه.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد، انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء .

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (١٢-٦٤) : الاستقامة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

من لوازم إيمان المسلم :

أيها الأخوة الكرام، من لوازم إيمان المسلم: أنه مستقيم على أمر الله، ولعل الاستقامة أخطر موضوعات الدين، بل هي الحالة الوحيدة التي إذا كنت فيها قطفت كل ثمار الدين، وإن لم تكن فيها لم تقطف من الدين شيئاً، بل أصبح الدين ثقافة وعادات وتقاليد ليس غير، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت الآية: ٣٠]

أيها الأخوة، تصوروا أن بيتاً فيه كل الأجهزة الكهربائية من دون استثناء، لكن الكهرباء مقطوعة عن هذا البيت، كل هذه الأجهزة لا معنى لها، كتل معدنية فقط، عبء، أما إذا سَرَت الكهرباء في البيت، فكل هذه الأجهزة تعمل، الثلاجة حفظت لك الطعام، والمكيف أمدك بالهواء البارد، والمكواة أعانتك على هندامك الحسن، وكل آلة في هذا البيت تعمل بانتظام، وتؤدي وظيفتها ما دامت الكهرباء في البيت سالكة، والإنسان إذا لم يستقم حجب عن الله، فإذا حجب الزواج، ليس له معنى كما أراده الله عز وجل، ليس للأولاد المعنى الذي أراده الله فيما لو كنت مستقيماً، المال الوفير ليس له معنى الذي أراده الله فيما لو كنت مستقيماً.

كلمة دقيقة :

فلذلك: الكلمة الدقيقة، وقد نوهت البارحة إليها: أن المسلمين ليسوا على شيء ولا واحدًا بالمليون، أقلّ كلمة تشير على أقل شيء في اللغة شيء، ذرة غبار لا ترى بالعين هي شيء، فإذا قال الله عز وجل:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

[سورة المائدة الآية: ٦٨]

ويا أيها المسلمون، لستم على شيء حتى تقيموا القرآن، لذلك: هناك مليون نشاط إسلامي لا قيمة لها إطلاقاً إن لم نستقم على أمر الله:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت الآية: ٣٠]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الأحقاف الآية: ١٣-١٤]

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود الآية: ١١٢]

إياك أن تقول: أنا لست مكلفاً باستقامة الأنبياء، ومن قال لك: إنك إن استقمت كنت نبياً؟ من قال لك ذلك!!؟ إن الله أمر المؤمنين كما أمر به المرسلين، حينما يحتاج المريض إلى حقنة إبرة، أقلّ إنسان في عالم الطب عليه أن يعقمها، وأعلى إنسان في عالم الطب جراح قلب عليه أن يعقمها، فيستوي أقل ممرض مع أكبر طبيب في تعقيم هذه الحقنة، فلذلك: في أمور الاستقامة لا تفاوت بين الأنبياء والمؤمنين، الاستقامة حدية، بينما الأعمال الصالحة والنوايا الطيبة: هذه مختلفة من إنسان إلى آخر:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ)

[سورة فصلت الآية: ٦]

متى يقطف العبد ثمار الدين ومتى يحرم منها؟ :

أخوتنا الكرام، عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((قَالَ أَبُو بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّه عَنْه-: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ شِبْتَ، قَالَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ))

ماذا في هود؟ هذه الآية:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن الآية: ١٦-١٧]

إذاً بالتعبير التجاري: الاستقامة ضربة المعلم، أنت حينما تستقيم قطفت كل ثمار الدين، يوجد في الدخل شبهة، وفي العلاقات الاجتماعية شبهة، وتقصير، واختلاط، ومصافحة، وإطلاق بصر، أعمالك الصالحة محفوظة، وقد تنال أجرها في الدنيا، إلا أن هذا التخليط بين الاستقامة وعدم الاستقامة، هذا المخلط بينه وبين الله حجاب، هو محروم من أن يقطف ثمار الدين، لذلك ورد:

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

مشكلة المسلمين في هذا العصر :

أيها الأخوة، مشكلة المسلمين في الأعم الأغلب: أن خمسة وتسعين بالمئة لا يقتلون، ولا يسرقون، ولا يزنون، ولا يشربون الخمر، هذه كبائر، لكن ما الذي حجبهم عن الله؟ ما توهموها صغائر! لذلك:

لا صغيرة مع الإصرار.

-لذلك الصغيرة إذا توهمتها صغيرة، وأصررت عليها انقلبت إلى كبيرة-.

ولا كبيرة مع الاستغفار.

إنسان يركب مركبة في طريق عريض عرضه ستون مترًا، لكن عن يمينه وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق، الكبيرة حرف إدارة المقود تسعين درجة فجأة، على الوادي مباشرة، لكن لأن الطريق عريض، يمكن أن يتلافى السقوط بحركة معاكسة كبيرة، لكنه استغفر الله، وتاب منها، أما لو أثبتت المقود سنتيمترًا واحدًا بعد مئتي متر تكون في الوادي، الصغيرة حرف المقود سنتيمترًا، عندما ثبته على الوادي.

لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

تعريف الاستقامة :

سيدنا الصديق سئل: ما الاستقامة؟ قال: ألا تشرك بالله شيئاً.

الاستقامة تعني التوحيد، الصديق -رضي الله عنه- فهم الاستقامة بسببها، أنت حينما توحد تستقيم، لماذا لا يستقيم الإنسان؟

أحياناً إذا رأى شخصاً قوياً إذا أطاعه فاز، وإن أغضبه خسر، فيعصي الله، ويطيعه، من ضعف توحيده خرق الاستقامة، سيدنا الصديق فهم الاستقامة بسببها، سيدنا عمر فهم الاستقامة بآليتها، قال: الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب

- أي الحيل الشرعية والمخاتلة، وفيها فتوى، وهذه شيخ الأزهر أفتى بها!-.

وسيدنا عثمان فهم الاستقامة بسرها، وهو الإخلاص، فقال: استقاموا: أخلصوا العمل لله.

وسيدنا علي فهم الاستقامة في حدودها الدنيا، قال: استقاموا؛ أي أدوا الفرائض.

وسيدنا الحسن قال: استقاموا على أمر الله: عملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته.

ومجاهد قال: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله.

وبعض العلماء قال: استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة.

قف عند هذا الحديث :

قال أعرابي: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحد غيرك، يريد كلمة واحدة، تجد في أصول التفسير خمسين مرجعًا، التفاسير بالآلاف، في علم الحديث ثمانية آلاف مرجع! في تاريخ التشريع والمحكم والمتشابه وأصول الفقه والسيرة ملايين الكتب، هذا الأعرابي أراد من النبي أن يضغط الإسلام كله في كلمة واحدة.

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ بَعْدَكَ، قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

أيها الأخوة، لذلك يوجد لهذا الحديث تتمة، قال: أريد أخف من ذلك، هذه ثقيلة علي، -صعب أن أضبط بصري، ولساني، وسمعي، ولا أغنية، ولا أتمتع بمنظر امرأة على الشاشة مثلاً، كل هذا حرام!؟ هذه ثقيلة-، قال: إذاً فاستعد للبلاء.

حينما لا يستقيم الإنسان يحجب عن الله، فكل ثمار الدين: السكينة، والشعور الأمن، والحكمة، والتوفيق، والتأييد، والنصر، والحفظ، كل هذا العطاء الكبير يلغى، ما دام في روغان كروغان الثعلب.

ثمار الاستقامة :

الآن ثمار الاستقامة:

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ))

يا ترى لن يحصوا نتائج الاستقامة، يا ترى سكينة؟ نعم، شعور بالأمن؟ نعم، حكمة؟ نعم ، توفيق؟ نعم، سعادة زوجية؟ نعم، أولاد أبرار؟ نعم، صحة طيبة؟ نعم، مكانة في المجتمع؟ نعم.

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ))

ما معنى قول النبي -عليه الصلاة والسلام-: (قاربوا وسددوا)؟ :

لكن النبي -عليه الصلاة والسلام- يعيش معنا، لأن الله أخبره بما سيكون قال:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ))

يوجد في آخر الزمان صعوبات، أنت لن تستطيع أن تركب مركبة إلا إذا دفعت رسم التأمين، والتأمين حرام، لكن هذا الرسم يقترب من الضريبة، هنا لم تسدد، لكنك قاربت الهدف ، لذلك قال سيدنا عمر:

ليس بخيركم من عرف الخير، ولا من عرف الشر، ولكن من عرف الشرين، وفرق بينهما، واختار أهونهما.

هذه حالة في آخر الزمان فيها صعوبات بالغة جداً، وأنت بأعلى درجة من الورع والاستقامة، لكنك أحياناً أمام شرّين، تتقي الشر الأكبر بالشر الأصغر، هذا معنى: (قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا).

امرأة فرضاً متفلتة إلى أقصى درجة، لن تستطيع أن تجعلها تتحجب الحجاب الإسلامي الكامل، فإذا سمحت لها بمعظم الحجاب ريثما تألف هذا الحجاب، وتتصل بالله، وتذوق حلاوة الإيمان، هذا معنى: (قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا).

الإنسان لا ينتقل فجأة من التفلت إلى الاستقامة التامة، كما فعل الله عز وجل في تحريم الخمر، أنت كداعية لو أعطيت هذا الذي يطلب الهدى كل التفاصيل لرفض هذا الدين، لكنك تعطيه الأشياء السهلة الواضحة، والتي يستطيعها، فإذا تمكن إيمانه في قلبه، أخذ الأشياء الأخرى، هذا معنى: (قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا).

أنت مؤمن، لو دعوت إلى الله، فأنت تحتاج أن تكون مع الناس مرناً، كما حرم الله الخمر بالتدريج.

هل يستطيع العبد أن يدفع ثمن دخول الجنة؟ كيف يحوز عليها؟ :

آخر نقطة في الدرس:

((قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ))

هذه تعني عندما يمتن الله عز وجل علينا بالجنة، هذه الجنة لا يستطيع مخلوق على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة أن يدفع ثمنها، لكن يقدم سببها، بيت ثمنه مئة مليون، كل عملك الصالح في الدنيا، وكل استقامتك وورعك يساوي مفتاح البيت، خمس عشرة ليرة، فإذا كان معك مفتاح البيت فلا تقل: هذا البيت ملك لي، لا، قل: هذا بفضل الله عز وجل، أنت دمت ثمن مفتاحه فقط.

الجنة عطاء لا يستطيع مخلوق أن يؤدي ثمنه، لكن يستطيع المؤمن أن يقدم سببه، وفرق كبير بين السبب والثمن، واحد استقام، صلى وصام، قال: أنا لي الجنة، هذا حقي، لا، ليست من حقك، الجنة بفضل الله عز وجل فقط، لكن النار بالعدل، فهي محض عدل، والجنة محض فضل.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (١٣-٦٤) : خيار الإيمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :


الفرق شاسع بين من يملك عقيدة صحيحة ومن يملك عقيدة فاسدة

أيها الأخوة الكرام، في سورة الأنعام في قوله تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ١]

يغيّرون ما أذاعوا به، يعتقدون اعتقادًا آخر، معنى ذلك: أن خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت، هذا الذي رفع لواء الكفر، والذي روج أفكار الكفر، وهذا الذي آمن بالدنيا، وهذا الذي كذب بالآخرة، وهذا الذي أله هواه وشهواته، حينما يأتيه ملك الموت يرجع إلى الحق، ولكن بعد فوات الأوان، والدليل: أن أكفر كفار الأرض فرعون، قال:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات الآية: ٢٤]

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص الآية: ٣٨]

وحينما أدركه الغرق قال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس الآية: ٩٠]

أخطر موضوع: أن خيار الإيمان خيار وقت، لا خيار قبول أو رفض.

من شرد عن الله اخترع تصورات غير صحيحة :

أيها الأخوة، المشكلة: أن هذا الذي شرد عن الله عز وجل، يخترع توازنات ومعادلات تصورات وتقييمات كلها غير صحيحة، لكنه يقنع بها مكابرة، لأنها تتمشى مع شهواته ومصالحه، فالذي ينتفع من فكرة ما، لا يمكن أن يعتقد بغيرها، لأن هذه الفكرة التي انتفع بها مرتبطة بمصالحه وشهواته، لذلك: في الإيمان نعمة لا يعرفها إلا المؤمن؛ أنه كلما عاش، وامتد به العمر، وكلما تطورت الأمور، واستجدت مستجدات، وكلما ظهرت أحداث، كل هذا الذي يجري يؤكد إيمانه، بينما الذي اعتقد عقيدة فاسدة، وبنى تصورات خاطئة، وانطلق من منطلقات غير صحيحة، سوف يصاب بإحباط شديد. نظن مثلاً: أن الجماعية، وترجيح مصالح الجماعة على مصالح الفرد، وأن نرفع لواء : لا إله في العالم الشرقي، هذا الذي يسعد البشر، فإذا هذا الذي طرح، والذي مورس كان سبب شقاء البشر، الذي اعتقد بهذا الاعتقاد، وظن في وقت ما أنه أصاب الحقيقة، فلما ظهر زيف هذا، حدثت معه حالة إحباط، الآن المؤمن يشعر بنعمة لا تقدر بثمن: أن الأحداث، ومجريات الأمور، والنوازل، والوقائع كلها تؤكد تصورات المسلم عن كل شيء.

المسلم يملك تصورا صحيحا عن الكون والحياة والإنسان:


تصورات المؤمن الصحيحة تعطيه راحة وتوازن

يوجد نعمة في الإسلام هي: نعمة أن المسلم يملك تصورًا صحيحًا عن الكون والحياة والإنسان، وعمّا قبل الحياة، وعمّا بعد الحياة، هذه الفلسفة أو التصور تعطيه راحة نفسية، ولا شيء يأتي، ولا شيء يستجد إلا يؤكد ذاك التصور، يوجد حالة اسمها توازن، المؤمن متوازن نفسياً، بينما إنسان اعتقد عقيدة زائغة، أو ركز على المال وحده، أو على التقدم، أو على التقنية ، أو على قيم الغرب، كما يقال: الحرية والديمقراطية، ثم كشف الغرب على حقيقته، فالذي يعتقد هذا الاعتقاد، أصيب بخيبة أمل وحالة إحباط.

دقق في هذه الكلمة:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ١]

يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ)

[سورة الأنعام الآية: ٢٠]

يعرفون أن هذا القرآن حق من عند الله، ويعرفون أن رسول الله هو رسول الله كما يعرفون أبناءهم. بربكم: هل في الأرض معرفة أوثق وأسرع من أن يعرف الإنسان ابنه؟ هل هناك أب على وجه الأرض يسأل ابنه: من أنت؟ ما اسمك؟ ما ترتيبك بين أولادك؟ مستحيل، معرفة الأولاد معرفة بديهية، الله عز وجل يقول:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٢٠]

آية ثانية تؤكد هذه الحقيقة:

(ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

[سورة الأنعام الآية: ٢٣]

الفتن في الأرض لا تعد ولا تحصى :

الآن: هناك فتن في الأرض لا تعد ولا تحصى، تطرح أفكار وشبهات وطروحات كلها لا أصل لها في الحقيقة، لكن هذه الطروحات تتماشى مع مصالح من يطرحها، لذلك سمى الله هذه الطروحات المناقضة لما في القرآن الكريم ولما في السنة الصحيحة، سماها فتنًا:

(ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

[سورة الأنعام الآية: ٢٣]

قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

[سورة الأنعام الآية: ٢٤]

أيها الأخوة، يجب أن نعتقد جميعاً أن هذا الذي يطرح فكراً، أو قيماً، أو مبادئ تتناقض مع وحي السماء والحق الصريح، إنما يطرحها لشهوة يريد أن يمارسها تحت هذا الغطاء، ويريد أن يطرحها لهوى في نفسه يريد أن يحققه، لذلك: بطولة الإنسان أن يهتدي إلى الحق، لا أن يهتدي إلى الباطل، الباطل أيضاً مزخرف.

قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ١١٢-١١٣]

أيها الأخوة، أسوق هذا الكلام، لأن أي إنسان يريد أن يتماشى مع شهواته، لا بد من أن يغطي نفسه بفكر وبعقيدة وتصور، يغطي نفسه بهذا الفكر، ويدافع عنه، لكن الله يكشف زيف هؤلاء.

أنواع الاختلاف بين الناس :

١-الاختلاف الطبيعي :

شيء آخر؛ الله عز وجل حينما قال:

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: ١٩]

أيها الأخوة، الاختلاف قد يكون، وفي الأعم الأغلب بسبب الهوى والحسد والعدوان، لذلك يمكن أن نطرح: أن هناك اختلافاً طبيعياً سببه نقص المعلومات، لو أننا في اليوم التاسع والعشرين من رمضان سمعنا صوت مدفع، نشك أهو مدفع العيد أم تفجير في الجبل؟ نقص المعلومات يجعلنا نختلف، هذا الاختلاف طبيعي ليس محموداً ولا مذموماً، ما الذي يحسمه؟ أن نفتح، ونستمع في نشرة الأخبار: أن غداً أول أيام العيد، حُسِمَ الأمر:

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: ١٩]

الأنبياء حسموا الخلاف، فالخلاف الذي بسبب نقص المعلومات، حسم ببعثة الأنبياء، هذا خلاف طبيعي، ليس محموداً ولا مذموماً.

٢-الاختلاف القذر:

لكن الخلاف القذر هو: خلاف الأهواء والمصالح.

صدقوا أيها الأخوة، يكاد يكون خمسة وتسعون بالمئة من الاختلاف في الأرض في كل شيء، بسبب الهوى والمصالح، لذلك: هذا الخلاف القذر الذي مبعثه الأهواء والمصالح:

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: ١٩]

بسبب البغي والحسد.

٣-الاختلاف المحمود :


التنافس في العمل الصالح من الاختلاف المحمود

لكن الاختلاف المحمود هو: أن تتصور أن أكبر شيء يرضي الله إنفاق المال، وقد يتصور إنسان آخر أن أكبر شيء يرضي الله تسليك الناس إلى الله، أو إنشاء المساجد، أو رعاية الأيتام، أو توفير الأعمال للشباب، أو تزويج الشباب، أو نشر الحق، أو الرد على أباطيل الكفار، المؤمنون يتنافسون في طرائق لإرضاء الله عز وجل، هذا الاختلاف محمود، اختلاف التنافس، قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين الآية: ٢٦]

فحينما نتنافس جميعاً على اختيار طريقة ترضي الله أكثر فهذا خلاف محمود، أما الخلاف القذر: أن يكون الهوى سبب اختلافنا.

من يملك رؤية صحيحة ونظرا حادا يكشف زيف الأفكار :

على كل؛ هاتان الآيتان:

(الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٢٠]

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٢٤]

الرؤية الصحيحة تكشف زيف أية أكاذيب تروج

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٢٤]

والشيء بالشيء يذكر، رجل يمثل رعاة البقر كان يروج للدخان، ويقول: تعال إلى حيث النكهة، فمات بسرطان الرئة! قال كلمة وهو على فراش الموت: كنت أكذب عليكم، الدخان قتلني. فأنا أتمنى على كل أخ كريم مؤمن: ألاّ يكون ضحية كذبة ذكية، والله الذي لا إله إلا هو، يطرح في العالم في المكتبات والصحف وأجهزة الإعلام التي تأتينا من الخارج، يُطرح من الكذب ما لا يصدق، والإنسان أحياناً لضعف إيمانه واطلاعه، يصدق هذه الأكاذيب، هي كلها أكاذيب، لكن وراءَها مصالح، كل كذبة ورائها مصلحة.

فالإنسان حينما يهبه الله عز وجل رؤية صحيحة، ونظراً حاداً نافذاً ثاقباً، يكشف زيف هذه الأفكار، فيعتصم بالحق.

من أجل أن تكون المرأة متعة في كل مكان، نروج لها نزع الحجاب، هناك شهوة وراء هذه الدعوة، هي تغطى أنها نصف المجتمع، وأن الإنسان إيمانه في قلبه، وأن هذه التقاليد القديمة ليست إسلامية، إنما هي عثمانية، وأن الحجاب تخلف، هذا الذي يروج، مع أن الحجاب أصل في الدين، في القرآن والسنة، لكن أعداء الحجاب يروجون أنه من العادات والتقاليد، ووراء هذا الترويج شهوة، أن يستمتع بالمرأة في أي مكان، في المكتب، في الطريق، في الجامعة، وأن تكون سلعة رخيصة، وتكون ضحية ذئب بشري، فلذلك: حينما يأتي الإنسان إلى بيت من بيوت الله ليتلقى الحق الصريح، هذا القرآن الكريم منهج الإنسان، ويدعوك لسبل السلام مع نفسك، وبأسرتك، وفي عملك، وفي دنياك وآخرتك:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه الآية: ١٢٣]

الخطر على الدين من أدعيائه:

اخترت لكم في هذا الدرس هذه الآيات التي تكشف زيف وكذب من يروج للباطل، أقول هذا الكلام، لأن الترويج للباطل الآن بأعلى درجة، حتى في الفضائيات، والندوات الدينية، هناك من يقول في ندوة دينية: إن قطع اليد توحش، المشكلة: أن الخطر على الدين ليس من أعدائه، بل من أدعيائه.

نرجو الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا عقيدة سليمة، وإيماناً بهذا الكتاب، لأن يوم القيامة تكشف فيه الحقائق، وكل بطولة الإنسان: أن يأتي المستقبل وفق ما تعتقد، أما إذا جاء المستقبل بخلاف ما تعتقد، دفعت ثمناً باهظاً من سعادتك وسلامتك.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هي عقيدة الجبر؟ :

أيها الأخوة الكرام، في سورة الأنعام آية، قال تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]

هذه مقولة المشركين:

(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]



أين هذا الكلام؟ كله كذب:

(كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]

أخوتنا الكرام، ما من عقيدة شلت المسلمين كعقيدة الجبر، هم قاعدون لا يتحركون، وكأنهم يتوهمون أن الله قدر عليهم ما هم فيه، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٣٧]

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]

في اللحظة التي تتوهم أن الله أجبرك على كل أفعالك، وأن الله لا رأي لك فيه إطلاقاً، وأنت مسير، ولست مخيراً، اعتقد أن الحياة لا معنى لها، والتكليف لا معنى له، وحمل الأمانة لا معنى له، والثواب والعقاب تعطلاً، والجنة والنار لا معنى لهما إطلاقاً، وألغي الدين كله، إذا صحت عقيدة المرء صح عمله، وإذا فسدت عقيدته فسد عمله، وهناك كلمات كثيرة جداً يقولها العامة، ما أنزل الله بها من سلطان؛ إنها الكفر بعينه.

لم أقام عمر على إنسان شارب الخمر الحد مرتين؟ :


التخيير يثمن عملك

بل حينما جيء لسيدنا عمر بإنسان شارب للخمر، قال: أقيموا عليه الحد، قال: والله يا أمير المؤمنين، إن الله قدر علي ذلك، فقال: أقيموا عليه الحد مرتين؛ مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله.

ما لم تكن مخيراً فلست مسؤولاً، المسؤولية لا تتحقق إلا إذا كنت مخيراً، والتخيير يثمن عملك، يعطي عملك قيمة، قال تعالى:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان الآية: ٣]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة الآية: ١٤٨]

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام الآية: ١٣٢]

الآيات لا تعد ولا تحصى، قال تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: ٢٩]

يجب أن تعلم هذه الحقيقة :

لكن -أيها الأخوة الكرام- لا بد من توضيح حقيقة: أن في القرآن آيات محكمات، وفي القرآن آيات متشابهات، فالمتشابهات تشبه الاختيار من جهة، والجبر من جهة ثانية، فأية آية في كتاب الله يشم منها رائحة الجبر، فهذه تحمل على المحكمات، الآيات المتشابهات مهما كثرت، تحمل على الآيات المحكمات مهما قلت بالضبط، هذه قاعدة أصولية.

إذا قال الله عز وجل:

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة النحل الآية: ٩٣]

هذه الآية يجب أن تحمل على قوله تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: ٢٩]

أي: هذا الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، قال تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف الآية: ٥]



من اختار الضلال يضله الله

طالب في الجامعة ما داوم، ولا قدم امتحاناً، ولا اشترى كتباً، وما استجاب لعشرة إنذارات لإدارة الجامعة، بعد كل هذه المحاولات اليائسة في إقناعه أن يعود للدراسة، ولنيل الشهادات، صدر قرار بترقيم قيده، هذا القرار تجسيد لرغبته، زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، اختاروا الضلال فأضلهم الله بحسب اختيارهم، الآيات التي يشم منها رائحة الجبر مهما كثرت، تحمل على الآيات المحكمة التي تؤكد أن الإنسان مخير.

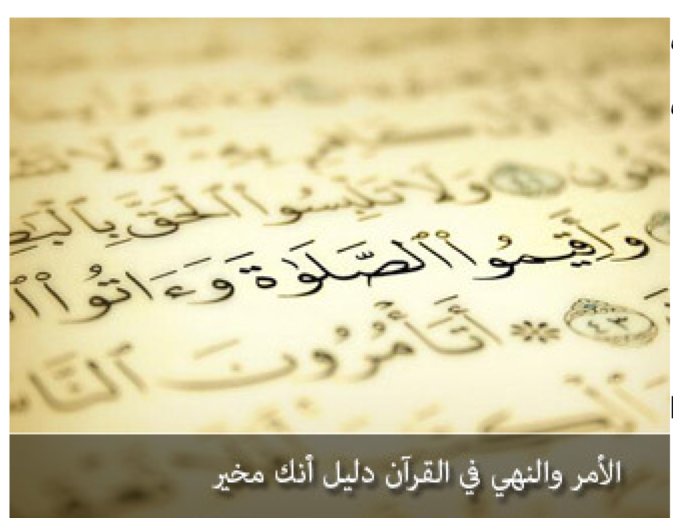
هل الإنسان مخير أم مسير؟ :

هذه الآية -أيها الأخوة الكرام- يقول عنها علماء التفسير: هي أصل في أن الإنسان مخير، قال تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]

هذا الكلام كذب، قال تعالى:



الأمر والنهي في القرآن دليل أنك مخير

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]

الإنسان مخير فيما كلف، ولوجود الأمر والنهي في القرآن الكريم، معنى ذلك: أنك مخير لمجرد وجود الأمر والنهي في القرآن الكريم، معنى ذلك: أنك مخير، ولا يعقل أن تكون مسيراً، وأن

يأمرك الله بأمر أو ينهاك عن شيء، الأمر ليس له معنى، والنهي ليس له معنى، ولكنك لست مخيراً في أمك وأبيك، هل اخترتهما؟ أبداً.

قال لي أحدهم: والدتي متعبة جداً، قلت له: طلقها، قال: كيف؟ قلت له: هذا قدرك، أنت مسير، أمك وأبوك وبلدتك وعصرك، وكونك ذكراً أو أنثى، وقدراتك العامة هذه ليس لك فيها اختيار، ولكن اعتقد اعتقاداً جازماً أنها لصالحك، يعبر عن هذا بقول الإمام الغزالي:

ليس في الإمكان أبدع مما كان.



ليس في إمكانك أبدع مما أعطاك فيما سيرك به، وحينما يأتي يوم القيامة، ويكشف الله لك حكمة ما ساقه إليك، لماذا عشت في السبعينيات، ولم تكن في العشرينات؟ لماذا كنت في الشرق الأوسط، ولم تكن في شيكاغو مثلاً؟ لماذا جئت من أم وأب مسلمين ولم تكن من أم وأب وثنيين فرضاً؟

حينما يكشف الله لك يوم القيامة الحكمة من هذه الأشياء التي قدرها لك، ينبغي أن تذوب كالشمعة شكراً لله، على أنه أعطاك أنسب شيء لصالح إيمانك، وسعادتك الأبدية، لذلك: إذا أجبر الله عباده على الطاعة سقط الثواب، ولو أجبرهم على المعصية سقط العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة:

إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

أخطر موضوع في العقيدة: موضوع ما إذا كان الإنسان مخيراً أو مسيراً؛ مسير فيما تكلمت ، ومخير فيما كلفت به.

دقق في هذا المثل :


حين تخترق القانون تفقد خيارك

ولكن الآن بالضبط دققوا في هذا المثل: تركب مركبة، والقيادة بيدك، أنت حر في قيادتها، والإشارة حمراء، وأنت مخير أن تلتزم بالقانون، أو أن تخترق القانون، أنت حينما تلتزم بالقانون تبقى مخيراً، أما حينما تخترق القانون تفقد اختيارك، لست مخيراً في قبول المخالفة أو عدم قبولها، لو أن المخالفة سحب الإجازة، أو حجز السيارة، أو إيداعك في السجن، أنت حينما اخترت خرق القانون فقدت اختيارك.

الإنسان في الدنيا حينما يختار أن يعصي الله عز وجل ، الآن يسوق الله بلية وتأديباً وعقوبة، ليس الإنسان مخيراً في قبولها أو رفضها، إذاً: أنت مخير في قضايا كبرى في حياتك هي لصالحك، ثم إنك مخير فيما كلفت، وبعد أن تكلف وتخير، إما أن تبقى مخيراً بطاعتك لله، وإما أن تفقد اختيارك حينما تختار أن تعصي الله، عندئذ:

إذا أراد ربك إنفاذ أمر، أخذ من كل ذي لب لبه.

مع الله عز وجل لا ينفع الذكاء أبداً:

ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

الإيمان والكفر .

قضية الاختيار والتسيير من أخطر قضايا العقيدة.

يقول أحدهم: قال تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: ٢٩]

لكن:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

[سورة الإنسان الآية: ٣٠]

أين اختيار الإنسان؟ أقول له: لقد ربط الله مشيئتك بمشيئته ربط فضل لا ربط جبر، لولا أن الله خلقك مخيراً، وشاء لك أن تكون مخيراً، واخترت الخير، ونعمت بالجنة، لولا أن الله شاء لك أن تكون ذا مشيئة، واستعملت المشيئة لصالحك، وكانت سبب دخول الجنة لما كانت.

الله عز وجل ربط كونك مختاراً، بأن الله من كرمه شاء لك أن تكون مخيراً، ليس هذا الربط ربط جبر، بل هو ربط فضل، فرق دقيق جداً، مثلاً:

قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي)

[سورة السجدة الآية: ١٣]

يعني يا عبادي، إذا زعمتم، إذا توهمتم: أنني أجبركم على المعاصي والآثام فأنتم واهمون، قال تعالى:

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آَبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأعراف الآية: ٢٨]

إذا توهمتم وزعمتم أنني أجبركم على المعاصي، لا، لو كنت مجبركم على شيء، لما أجبرتكم إلا على الهدى، ولكن الهدى الذي تجبرون عليه لا يسعدكم، لذلك:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٥٦]

لو أن الهدى الذي تجبرون عليه يسعدكم، لأجبرتكم على الهدى، هذا معنى ولو شئنا إجبار هويتكم، ولو شئنا إلغاء أمانتكم، إلغاء تكليفكم، إلغاء اختياركم، وأجبرناكم على شيء، لما أجبرناكم إلا على الهدى.

إذاً: عندما تصح عقيدتك يحسن ظنك بالله، وحينما يحسن ظنك تكون قد عبدت الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه، ومالك في الموطأ]

ولكن حسن الظن بالله ثمن الجنة، وغير المؤمنين يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، إساءة الظن بالله أحد أكبر المشكلات التي تعترض المؤمن في حياته.

خاتمة القول :

فقضية أن الإنسان مخير، قضية مقطوع بها، تؤيدها آيات كثيرة، وأحاديث كثيرة، ولكن هناك آيات يشم منها رائحة الجبر، وهي آيات متشابهات، الآيات المتشابهات مهما كثرت، تحمل على الآيات المحكمات مهما قلت.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (١٥-٦٤) : الصبر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيء المتفوق يحتاج إلى مرحلة إعداد :

لا قيمة للنجاح بدون جهد

أيها الأخوة الكرام ، من لوازم إيمان المؤمن أن يكون صابراً ، ولكن قبل شرح حقائق الصبر لابد من مقدمة .

لو أن رئيس جامعة وزع على الطلاب أوراق الإجابة ، وقد كتبت عليها الإجابة كاملة ، كتب أيضاً مئة علامة ، وما على الطالب إلا أن يكتب اسمه ، هل لهذا النجاح قيمة في المجتمع عند الناجح وعند إدارة الجامعة ؟ لا قيمة لهذا النجاح إطلاقاً ، لأنه من دون جهد، إذاً لا قيمة له ، أحياناً ملك له ابن ، لو أن هذا الابن طلب من أبيه قصراً لكانت القضية سهلة جداً ، لو طلب طائرةً خاصة القضية سهلة ، لو طلب يختاً في البحر أيضاً القضية سهلة جداً ، لو أن هذا الابن طلب أن يكون أستاذاً جامعياً ، ماذا يقول له الأب ؟ هذه عليك ، ليست عندي ، احصل على دكتوراه ، وتسلم هذا المنصب .

إذاً أن تتمتع بمرتبة علمية عالية لابد من جهد ، الآن في حياتنا الدنيا إذا ما أعدّ الإنسان نفسه للمستقبل عاش على سجيته ، يأكل ، ويشرب ، وينام ، مصيره أين ؟ عامل بسيط ، أو إنسان يمد يده للناس ، أما من أجل أن يأتيك دخل كبير بجهد يسير ، وبوقت قليل فلابد من إعداد لهذا المستقبل المشرق .

يتضح من هذه الأمثلة أن الشيء المتفوق يحتاج إلى مرحلة إعداد ، هذه سنة الله في خلقه .

الآن الله عز وجل حينما خلق النفوس في عالم الأزل عرض عليها الأمانة ، وعرض على هذه النفوس المجردة قبل عالم الصور أن تأتي إلى الدنيا ، وأن تودع فيها الشهوات ، وأن تعطى العقل ، وأن تعطى المنهج ، وأن تعطى حرية الاختيار من أجل أن تتعرف إلى الله بجهد كبير ، ومن أجل أن تحمل نفسها على طاعته بجهد أكبر ، ومن أجل أن تتقرب إليه بجهد أكبر وأكبر ، فإذا حقق الإنسان هذا استحق جنة ربه إلى أبد الآبدين ، فهذه الجنة لها ثمن كبير ، من لم يدفعه لا ينالها .

الصبر من لوازم الإيمان :

الآن جاء موضوع الصبر ، الله عز وجل أودع في الإنسان شهوات ، وسمح له بقناة نظيفة وزاوية محددة ، فإذا مارس هذه الشهوات وفق هذه الزاوية ، وضمن هذه القناة استحق جنة ربه بالآخرة ، وإذا مارس هذه الشهوات بلا ضابط ، وبلا قيمة ، خسر الدنيا ، وخسر الآخرة ، إذاً الصبر أصل في الدين ، أودع فيك حب النساء وسمح لك بالزواج فقط ، أما مئة علاقة مع مئة امرأة خارج الزواج فهذا العمل يخسر صاحبه الآخرة .

الصبر من لوازم الإيمان

إذاً ديننا مبني على الصبر ، الدين كله صبر ، ضبط العين يحتاج إلى صبر ، ضبط الأذن يحتاج إلى صبر ، ضبط اللسان يحتاج إلى صبر ، ضبط الحركة يحتاج إلى صبر ، ضبط الدخل يحتاج إلى صبر ، قد تأتي صفقة فيها ربح فلكي ، لكن فيها مادة محرمة، الذي آثر الشهوة على طاعة الله يأخذ هذه الصفقة، ويأتيه دخل كبير ، ويخسر الآخرة ، أصل الدين فيه صبر ، الصبر من لوازم الإيمان ، في الأصل أودعت فيك الشهوات، وسمح لك بحيز محدود منها ، هذا الحلال ، وما سوى ذلك هو الحرام ، فمن أوقع حركته وفق هذا الحيز نجح عند الله عز وجل .

شيء آخر : الإنسان يأكل ، ويشرب ، لكن حينما يمارس الحياة بلا ضابط ينشأ عنده آفات ، قد تنشأ آفة في جسمه ، تحتاج إلى حمية ، والحمية صعبة جداً ، محروم من الطعام الطيب ، لأنه لو أكل الطعام باعتدال لما احتاج إلى هذه الحمية ، وقد يدخن ، فيحتاج إلى عملية استئصال نصف الرئة ، والعملية فيها صعوبة بالغة ، لو ضبط حركته في الحياة ، وعلم أن هذا الدخان يؤذي رئتيه لما احتاج إلى هذه العملية .

الصبر أصل ، هناك شهوات الحركة فيها واسعة جداً ، وأنت مسموح لك بزاوية محددة ، فإيقاع الحركة وفق هذه الزاوية نوع من الصبر ، أو أن هناك خللاً يقتضي المعالجة، أي خلل يحتاج إلى دواء ، ومن قال لك : إن الدواء طيب ، الدواء مر ، فمادام ثمة خلل في الدواء فأنت تصبر مرتين ، تصبر على طاعة الله ، وتصبر على مداواة الله ، تصبر على طاعته ، وتصبر على مداواته ، لذلك الصبر من لوازم الإيمان ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((الإيمان نصفان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

ورود الصبر في القرآن الكريم :



طلب العلم يحتاج لصبر ومثابرة

والصبر في القرآن الكريم ورد في تسعين موضعاً ، لكن هذه المواضع أدرجت في ستة عشر نموذجاً .

أولاً : أمر الله بها ، أنت مأمور بالصبر، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)

[سورة البقرة : ١٥٣]

من قال لك إن مقعد الدراسة مريح جداً، غير مريح ، مقعد خشبي ، زاويته قائمة، والجو ليس دافئاً جداً ، ليس هناك مسليات ، لكن تصور إنسانًا في قاعة درس له مقعد كمقعد الطائرة ، يمكن أن يكون سريراً ، وأمامه كل المسليات ، والمقبلات ، والعصائر ، والشطائر ، والموالح ، ويشاهد الأفلام ، يمكن أن يوجد مقعد في درس بهذا الشكل ؟ إذاً مقعد الدرس يقتضي الخشونة ، نحن في دنيا إعداد للآخرة ، مادامت الدنيا إعداداً فإياك عبد الله والتنعم ، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين ، ليس معنى ذلك أنك لا تتنعم ، لكن معنى ذلك أنه لا ينبغي أن يكون النعيم في الدنيا قصداً كبيراً لك ، أنت في مرحلة إعداد ، أنت في دار عمل ، أنت في دار ابتلاء ، أنت في دار صبر ، فلذلك الله عز وجل أمر بالصبر ، قال تعالى :



وبشر الصابرين

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)

[سورة البقرة : ٤٥]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة آل عمران : ٢٠٠]

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)

[سورة النحل: ١٢٧]

أما أن يتوهم الإنسان أن الأمور تأتي في الدنيا كما يشتهي ، فإذا انتقل إلى رحمة الله دخل الجنة ، هذا من سابع المستحيلات ، الإمام الشافعي سئل : "أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال : لن تمكن قبل أن تبتلى "

الله تعالى أمر بالصبر ونهى عن ضده وأثنى على الصابرين :

ثم نهى عن ضده ، قال تعالى :

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)

[سورة الأحقاف الآية: ٣٥]

لو أنك استعجلت لهم معنى ذلك أنك لم تصبر ، ولا تبطلوا أعمالكم ، ولا تهنوا ، ولا تحزنوا ، معنى ذلك أنك لن تصبر ، أمر بالصبر ، ونهى عن ضده ، وأثنى على الصابرين ، قال تعالى :

(وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

[سورة البقرة : ١٧٧]

أثنى على كل الصابرين .

الله مع الصابرين بالتأييد و الحفظ و النّصر :

وحينما تقرأ قوله تعالى يحدثنا ربنا عن سيدنا أيوب :

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

[سورة ص : ٤٤]

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران : ١٤٦]

ألا تتمنى أن يحبك الله ؟ الإنسان الذي يصبر يحبه الله عز وجل ، بل فضلاً عن محبته هو معك إن كنت صابراً ، ومعنى هو معك أي هو معك بالتأييد ، والنصر ، والحفظ ، والتوفيق ، هذه المعية الخاصة ، قال تعالى :

(وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة الأنفال : ٤٦]

ونصحك بأنك إن صبرت فهو خير لك ، قال تعالى :

(وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)

[سورة النحل : ١٢٦]

كلّ شيء له عند الله جزاء إلا الصابر فالجزاء مفتوح :

(وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ)

[سورة النساء : ٢٥]

وكافأك على صبرك بأنه يجزيك بأحسن أعمالك ، لك مئة موقف ، أحد هذه المواقف رائع جداً ، يجعل هذه الموقف الرائع هو مقياساً لك ، فيجزيك بأحسن أعمالك ، قال تعالى :

(وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل : ٩٦]

وكل شيء له عند الله جزاء ، إلا الصابر فالجزاء مفتوح ، قال تعالى :

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

[سورة الزمر : ١٠]

وبشر الله الصابرين ، قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة : ١٥٥]

النصر مع الصبر :


الصابرون هم أصحاب العزائم وهم المتفوقون

وبين الله جل جلاله أن النصر مع الصبر ، قال تعالى :

(بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

[سورة آل عمران : ١٢٥]

والصابرون هم أصحاب العزائم ، هم المتفوقون ، قال تعالى :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

[سورة الشورى: ٤٣]

وأصحاب الحظوظ العالية ، أصحاب المقامات الرفيعة ، لا ينالونها إلا بالصبر ، قال تعالى :

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

[سورة القصص : ٨٠]

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة فصلت : ٣٥]

الصابر وحده ينتفع بالآيات والعبر :

والصابر وحده هو الذي ينتفع بالآيات والعبر ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

[سورة إبراهيم : ٥]

ونيل المطلوب والفرار من المحذور لا يكون إلا بالصبر ، قال تعالى :

(وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ)

[سورة الرعد : ٢٣]

الدنيا كلها لخصت بكلمة واحدة ، قال تعالى :

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

[سورة الرعد : ٢٤]

الدين كله صبر :

أصل حياتك في الدنيا الصبر ، صبر عن المعاصي ، وصبر على الطاعات ، وصبر على قضاء الله وقدره ، بل إن درجة الإمامة وهي أعلى درجات المؤمنين قال تعالى عنها :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

[سورة السجدة: ٢٤]

أيها الأخوة الكرام ، عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

والحديث عن الصبر طويل جداً ، لكن يجب أن تعتقد أن الدين كله صبر ، غض البصر صبر ، ضبط اللسان صبر ، ضبط الأذن صبر ، المعاصي المحببة للإنسان أودع الله فيها رغبة عند

الإنسان ، وأمرك أن تجتنبها ، ولم يحرمك ، بل سمح لك بحيز نظيف طاهر ، فإذا أوقعت حركتك في الحياة بهذا الحيز الطاهر النظيف فقد صبرت ، وإذا صبرت استحققت جنة الله عز وجل التي خلقنا من أجلها .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الشكر والعرفان من لوازم الإيمان :



أيها الأخوة ، من لوازم الإيمان الشكر والعرفان ، والله سبحانه وتعالى سخر لنا هذا الكون تسخير تعريف وتكريم ، تعريف بأسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، وتكريم هذا الإنسان :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: ٧٠]

مادام هذا الكون قد سخره الله لنا كي نتعرف إليه من خلاله ، فينبغي أن نؤمن أن نؤمن به واحداً ، وكاملاً ، وخالقاً ، ورباً ، ومسيراً ، وأن نؤمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، وما دام قد سخر هذا الكون لنا تسخير تكريم ينبغي أن نشكر ، فالإنسان حينما يؤمن وحينما يشكر يكون قد حقق الهدف من وجوده ، يؤكد هذا أن الله سبحانه وتعالى يقول :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: ١٤٧]

أي أنتم حينما تؤمنون ، وحينما تشكرون ، تتوقف عنكم كل معالجة ، لأنكم حققتم الهدف من وجودكم ، لذلك الإيمان كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الإيمان نصفان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

الشكر غاية ولأهله أحسن الجزاء :

الموضوع يشبه موضوع الصبر ، لقد أمر الله أن نشكره ، ونهى عن أن نكفره ، وأثنى على الشاكرين ، ووصف فيه خواص المتقين ، وجعله غاية خلقه وأمره ، فالشكر غاية، ووعد أهله بأحسن الجزاء ، وجعله سبباً لمزيد من العطاء ، وحارساً وحافظاً لنعمته ، وأخبر أن أهله هم الذين ينتفعون بآياته ، واشتق له اسماً من أسمائه ، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو ينقل الشاكر إلى مشكور، تشكر فتشكر ، وهو غاية الرب من عبيده ، وهو ثمن الجنة ، وأهله قليلون جداً .

(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

[سورة سبأ : ١٣]

قال تعالى :

(وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

[سورة البقرة: ١٧٢]

(وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

[سورة البقرة: ١٥٢]

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ)

[سورة النحل: ١٢٠ ـ ١٢١]

(إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

[سورة الإسراء: ٣]

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة النحل: ٧٨]

غاية الآيات الكونية أن نشكر .

(وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة العنكبوت: ١٧]

ينبغي أن تشكر لمن ترجع إليه :

(وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

[سورة آل عمران: ١٤٤]

ووعد الله عز وجل الذي يشكر أن يزيد من عطائه .

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)

[سورة إبراهيم: ٧]

المؤمن صبار شكور :

المؤمن صبار وشكور .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

[سورة إبراهيم: ٧]

النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه ، عَن الْمُغِيرَةِ يَقُولُ:

((قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا))

[متفق عليه عَن الْمُغِيرَةِ]

لذلك كان عليه الصلاة والسلام يدعو بهذا الدعاء :

((رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى لِي ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا ، لَكَ ذَكَّارًا ، لَكَ رَهَّابًا ، لَكَ مِطْوَاعًا ، لَكَ مُخْبِتًا ، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا ، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي ، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي ، وَأَجِبْ دَعْوَتِي ، وَثَبِّتْ حُجَّتِي ، وَسَدِّدْ لِسَانِي ، وَاهْدِ قَلْبِي ، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي))

[الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد عَنْ ابْنِ عَبَّاس]

مستويات الشكر :

مستوى الشكر الأول: معرفة النعم

أيها الأخوة ، الشكر له مستويات ثلاث:

أول مستوى : أن تعرف النعمة ، لأن معرفة النعمة أحد أنواع الشكر ، هناك نعم كثيرة جداً مألوفة ، لكن هذه الألفة لهذه النعم ينبغي ألا تجعلنا ننساها .

إنسان عنده زوجة لا تخونه ، هذه نعمة كبيرة جداً ، لكنها مألوفة عند الناس ، فحينما تكون مألوفة يتوهم الإنسان أنها ليست نعمة ، لكن لو كان العكس لغلى الإنسان كالمرجل ، نعمة أنك تتنعم بصحتك ، بأجهزتك ، بأعضائك ، بجوارحك ، بحواسك الخمسة، نعمة أنه لك مأوى ، فكلما نقلت المألوفات إلى النعم زادك الله نعماً وكرمك ، هذا المستوى الأول ، أن تعرف أنها نعمة ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا ، وَسَقَانَا ، وَكَفَانَا ، وَآوَانَا ، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ))

[مسلم عَنْ أَنَس]

ترون وتسمعون ماذا يحل في إخوتنا في فلسطين وفي العراق ، نعمة المأوى، نعمة السلامة ، نعمة أن العدد مساء صحيح ، هذه من نعم الله الكبرى.

المستوى الأعلى : أن يمتلئ القلب امتناناً لله عز وجل ، دون أن تشعر تلهج بحمد الله ، يا رب لك الحمد .

أعلى مستوى لشكر النعم أن تقابلها بعمل صالح

المستوى الأعلى والأعلى : أن تقابل هذه النعم بعمل صالح ، بخدمة عباده ، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى :

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

[سورة سبأ : ١٣]

الشكر الحقيقي هو ما ترجم إلى عمل .

على الإنسان أن يشكر الله الشكر الذي يليق بنعمه :

أيها الأخوة ، يقول الله عز وجل في حديث قدسي :

((أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها...))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

وفي حديث صحيح عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ :

((مَنْ لَمْ يَشْكُرْ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرْ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ ، التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[رواه الإمام أحمد عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ]

لكن أيها الأخوة ، المعنى الدقيق أن شكر النعمة لا يتم إلا بنعمة جديدة ، وهي نعمة الشكر ، لذلك في الدعاء الشريف :

((اللهم أعنا على دوام ذكرك وشكرك))

[ورد في الأثر]

أيضاً نستعين بالله على أن نشكره ، الشكر الذي يليق بنعمه .

من لم يشكر النَّاس لم يشكر اللَّه :

لكن لا بد من تعليق ، هناك إنسان يتوهم نفسه موحداً ، يقول : أنا لا أشكر إلا الله، جيد هذا الكلام ، لكن هذا الذي ساق لك الخير على يديه هو إنسان ومخير ، واختار أن يقدم لك هذا الخير، وفي الحديث:

((مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ))

[الترمذي عَنْ أبي سَعِيدٍ]

من لم يشكر الناس لم يشكر الله

ليس هناك تناقض بين شكر الناس وبين شكر الله ، لكن الله عز وجل هو الذي مكن هذا الإنسان أن يقدم لي هذه الخدمة ، وسمح له بذلك ، ووفقه إلى ذلك ، إذاً أنا واجبي أن أشكر الله أولاً ، ثم أن أشكر هذا الإنسان ، لأن هذا يقوي العمل الصالح في المجتمع ، أما كلما جاءتك نعمة من إنسان فتنكرت له ، وقلت : أنا لا أشكر إلا الله ، ليس هذا من أخلاق المؤمن.

الشكر يقوي العلاقات بين الناس :


الشكر يقوي العلاقات بين الناس

شيء آخر ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ))

[الترمذي عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ]

كما أن الله شكور ينبغي أن تكون أنت كذلك شكوراً ، فأي إنسان قدم لك خدمة ينبغي أن تشكره عليها ، والحقيقة أن الشكر يقوي العلاقات بين الناس ، أية خدمة قدمت لك أية هدية قدمت لك ، أي معروف صنع لك ينبغي أن تبادر ، فتشكر هذا الذي قدمه لك ، هذا من أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام :



((مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ))

[الترمذي عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ]

الحقيقة هناك أشخاص مهما قدمت إليهم المعروف ، ولا كلمة ، ولا شكر ، ولا إشارة ، ولا عبارة ، ولا اتصال هاتفي، ولا بطاقة شكر ، وكأنه واجب عليك أن تكون خادماً له ، وهو في استعلاء وكبر ، والعياذ بالله ، وهناك أشخاص أقلّ خدمة تقدمها له يبادر فيشكرك ، فإذا استطعت أن ترد على هذه الخدمة بخدمة فهذا هو الأصل ، أما إذا لم تستطع فادع له، فإنك بهذا تشكره ، أثن عليه وادعُ له ، إن قلت له : جزاك الله خيراً ، فهذا نوع من الشكر .

على الإنسان أن يتحدث بالنعم المشتركة بين كل العباد :

شيء آخر ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ))

[الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

النبي عليه الصلاة والسلام جاءه صحابي ونزع عن ثوبه قشة ، فرفع النبي يديه إلى السماء ، وقال: جزاك الله خيراً .

أما التحدث بنعمة الله فهناك من يتوهم أنك إذا سافرت إلى بلد ، واستمتعت ، وأنفقت أموالا طائلة ، ولك دخل كبير ، فكلما جلست في مكان تحدثت عن نعمة الله عليك بهذا الدخل الكبير ، وبهذا الطعام الطيب ، وبهذه الحركات الممتعة ، ليس هذا هو القصد ، القصد أن تتحدث بالنعم المشتركة بين كل العباد ، أما أن تبدو فقيراً وأنت غني فهذا أيضاً ليس من الدين في شيء ، وفي الحديث عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ :

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ))

[الترمذي عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

أنت في بحبوحة ارتَدِ ثيابًا جميلة ، ثيابًا نظيفة ، أن تكون بمظهر رثٍّ وأنت لست كذلك فهذا من كفر النعمة أيضاً .

من استعان بالله على شكر نعمه أدى حقيقة نفسه :

ثم إن الإنسان أيها الأخوة حينما يستعين بالله على شكر نعمه يكون قد أدى حقيقة نفسه ، وتأكد أنه يستحيل أن تأتيك نعمة ، وأن تشكرها ثم تحجب عنك ، لأن الله :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: ١١]

إذا كنت شاكراً لنعمه فأنت في حصن حصين ، وأنت في بحبوحة من رب العالمين ، أما إذا تغيرت أخلاقك ، واستغنيت عن الله بعد النعم فانتظر زوال هذه النعم ، والله عز وجل إذا أعطى أدهش ، وإذا أخذ أدهش ، أحياناً الإنسان ينتقل من كل شيء إلى لا شيء، وقد سمعت عن أناس كثيرين لهم دخول فلكية ، والله انتهت حياتهم أنهم نقبوا بالقمامة ، شيء لا يصدق ، إنسان من دخل فلكي إلى تنقيب بالقمامة !؟ .

فأرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون مؤدبين مع الله ، وأن نشكر نعم الله علينا ، فكل نعمة أنت فيها ينبغي أن تشكر الله عليها .

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (١٧-٦٤) : بناء الكيان الإسلامي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أسلوب القرآن في التعليم :

أيها الإخوة ؛ قد يتسأل بعض الإخوة الكرام عن سبب ورود قصة بني إسرائيل بشكل مكثف في القرآن الكريم ، الحقيقة أن الأمراض التي وقع فيها بنو إسرائيل المسلمون مهيئون أن يقعوا فيها ، والأصح وقد وقعوا بها ، هذا أسلوب غير مباشر ، أبلغ في التعبير ، اخترت آية في هذه الليلة ، يقول الله عز وجل :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

[سورة الأعراف الآية : ١٦٩]

المعنى الدقيق :



أن معنى هذا الدين الدقيق تكاليف منوعة ، بعض التكاليف لا تكلف شيئاً ، في عصور تأخرهم اكتفوا بالحد الأدنى، يصلون ، يحجون ، يعتمرون ، لكن بناء الأمة ، الطرف الآخر بنى أمته بناء قوياً جداً ، فأملى إرادته على كل الشعوب ، نحن ماذا ينبغي أن نفعل؟ المشكلة أننا حينما نكون ضعافاً الطرف الآخر يملي علينا كل شيء ، يمنعنا أن نقرأ قرآننا ، يمنعنا أن نعلم أولادنا أمور الدين ، يمنعنا أن نحافظ على استقامتنا ، يملي علينا ثقافته وشركه ، وإباحته ، لذلك لا يكفي أن نأخذ الحد الأدنى ، لا بد من أن نأخذ الحد الأعلى، كيف يؤخذ الحد الأعلى ؟ .

أيها الإخوة ؛ ورد بالحديث الشريف عن عوف بن مالك رضي الله عنه : أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال :

((إن الله يَلُومُ على العَجْزِ))

[أخرجه أبو داود]

يَلُومُ ... هذا الحديث دقيق جداً ، الإنسان يقول : انتهينا ، يستسلم ، الإنسان بشعوره أنه ضعيف ، ولم ينتصر ، ولن تقوم له قائمة ، هذا الشعور أقرب إلى اليأس منه إلى التفاؤل ، أنا أقول لكم كلمة، وكل مسلم معني بها :

كيف تكون قوياً ؟

كيف تطور عملك ؟

كيف تقوي إنتاجك ؟

كيف تحل مشكلاتك ؟

ما لم ننطلق إلى الحد الأعلى ، الحد الأدنى صلينا ، وقلنا الأمر كله بيد الله عز وجل ، طيب ، الصحابة الكرام صلوا ، لكن بنوا أمة ، فتحوا البلاد ، راياتهم رفرفت في أطراف الأرض ، إذاً نحن حينما نأخذ بالأسباب نكون مؤمنين حقاً .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً)

[سورة الكهف الآية : ٨٣ - ٨٥]

هذا الكلام موجه لكل مؤمن ...

ينبغي أن تفكر في حل مشكلاتك .

ينبغي أن تفكر في مستوى رفع دخلك .

ينبغي أن تفكر في إتقان عملك .

ينبغي أن تعمق اختصاصك .

ينبغي أن تكون لبنة في بناء الأمة .

حتى نستطيع أن نستقل ، لا أن نكون تبعاً للأقوياء .

لذلك أن نأخذ عرض هذا الأدنى ، أن نكتفي بالأشياء التي لا تقدم ولا تؤخر ، طبعاً الصلاة تقدم وتؤخر ، ولكن إذا كنت مؤمناً حقاً ، وتتبع كلام الله ، فالله يأمرك فيقول :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال الآية : ٦٠]


نصبح أقوى عندما نستغني عن الاستيراد ونطور صناعتنا

إخوة كثر عمقوا اختصاصهم ، فحلوا مشكلات كثيرة في بلدهم ، واستغنينا بخبرتهم عن أن نستورد خبرات الآخرين ، أذكر هذا الكلام ، لأن الأمر الآن معركة المسلمين مع الطرف الآخر معركة نكون أو لا نكون ، بوادرها واضحة تماماً ، لو تتبعتم ما يجري في العالم ، سوف يفرضون علينا ثقافتهم ، وانحرافهم ، وإباحيتهم ، وسوف يمنعوننا من ممارسة عباداتنا ، ومن تعليم أولادنا ، ومن تحجيب نساءنا ، وبوادر الأمر واضحة جداً ، فلذلك هذا الدين الكل متكامل ، لا يمكن أن نكتفي منه فقط للعبادة الشعائرية ، لا بد من أن ترافق العبادة الشعائرية بناء لهذا الكيان الإسلامي ، البناء الآن لا يكون إلا بالعلم .

فكل طالب يدرس دراسة جامعية ويتفوق هذا ساهم ببناء أمته ، وكل إنسان عنده صناعة متواضعة لو طورها ، وقدم إنتاجًا جيدًا ، واستغنينا عن أن نستورد ، وقدم إنتاجًا حل به مشكلته في بلده فهذا إنسان ساهم ببناء الأمة ، وكل إنسان صناعي ، أو زراعي ، أو تجاري ، أو خدمي ، أو اختصاصي ، أحياناً يأتي طبيب من بلاد الغرب ، ويقيم في بلده ، كأن بلاد الغرب جاءت إلينا دون أن نشعر ، قد يجري عمليات كثيرة جداً بأعلى درجة .

الحد الأدنى والحد الأعلى :

درس اليوم متعلق بـ : ألاّ نأخذ من الدين الحد الأدنى ، ينبغي أن نأخذ الحد الأعلى ، أن نسهم في بناء أمة ، يعني مثلاً :

حينما صدر قانون الاستثمار ، الشيء الغريب أن كل الذين استفادوا من هذا القانون أنشؤوا منشآت سياحية فقط ، وسيارات ، هذه المشاريع كلها لا تقوي بلدنا ، ولا نستطيع بها أن نواجه الأعداء ، ليس عندنا شيء استراتيجي ، فأنا أقول : لا نكتفي بالحد الأدنى ، إن أدرنا لهذه الأمة أن تبقى ، الأخطار والله أيها الإخوة محيطة بنا من كل صوب ، والأخطار أخطار إبادة وتدمير ، كما ترون ، ألا ترون ما يجري في بلاد المسلمين في العراق ، وفي فلسطين ؟ قضية إبادة ، وليست قضية إحلال شيء مكان شيء ، ولا قضية نشر شيء ، فهذا الذي أتمناه أن كل إنسان يسهم في تقوية

أمته، باختصاصه ، بخبرته ، بوظيفته ، بدراسته ، بطبه ، بهندسته ، بتجارته ، بصناعته ، ببيعه ، بشرائه .

أذكر لكم أن شاباً متفوقاً في اختصاصه أصلح جهاز ، يُصلّح كل عام بالملايين ، يصيبه عطل كل عام ، بقدرة قادر ، صُمم هذا الجهاز ليُصلّح كل عام ، وتبتز أموالنا بأرقام فلكية ، شاب من هذه البلدة استطاع أن يحل هذه المشكلة بربع ساعة ، ذكر لي هذا إنسان يعمل في حقل دقيق جداً ، قلت: لو عندنا شباب بهذا المستوى لاكتفينا عن أن نستجدي خبرات الآخرين ، الطالب عندما يدرس دراسة جامعية ، يعمق اختصاصه ، يتفوق ، يسخر اختصاصه لأمته يكون الأمر غير هذا الحال .

لفتت نظري هذه الآية :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

[سورة الأعراف الآية : ١٦٩]

كل شيء يكلف ، ولا يحتاج إلى جهد ، ولا إلى سهر ، ولا إلى بحث ، ولا إلى درس نفعله ، ونحن مرتاحون ، اكتفينا بالحد الأدنى ، الحد الأدنى عبادات شعائرية ، أما الحد الأعلى فبناء الكيان الإسلامي ، هذا يبنى بالعلم ، بالاختصاصات ، يبنى بالإخلاص ، يبنى بالتعاون ، يبنى بإنكار الذات ، يبنى بالتطوير ، يبنى بكل وسيلة نقوى بها .

أنا ذكرت اليوم أن ثقافة أيّ أمة ملك البشرية جمعاء ، لأنها بمثابة العسل الذي استخلص من زهرات مختلف الشعوب على مر الأجيال ، وهل يعقل إذا بلغتنا جماعة من النحل أن نقاطع العسل الذي أخذ من زهراتنا ؟ ينبغي أن نطور أنفسنا ، أن نطور صناعتنا أن نطور إنتاجنا ، أن نستخرج ثرواتنا ، هذا إذا أردنا أن نتخذ قراراً ، وينفذ هذا القرار ، أما إذا كنا ضعافاً فإرادات الآخرين تملى علينا ، قد يقول أحدكم : هذا الكلام ليس واقعيًا ، أنا ماذا أفعل ؟ الشباب أكثرهم أمامي ، أنت شاب تدرس ، لمجرد أنك تفوقت في اختصاصك فقد ساهمت في بناء الأمة ، لمجرد أنك أتقنت صناعتك، الآن بعد حين سوف ندخل في السوق المشتركة سوف تأتي البضائع المتقنة الرخيصة ، ما لم نسارع إلى إتقان صناعتنا ، وإلى تخفيض نفقاتنا فلن نستطيع أن نصمد ساعة أمام البضاعة التي سوف تأتي بأعلى درجة من الإتقان ، وبأعلى درجة من السعر المحدود .

فالقضية الآن نواجه واللهِ مشكلة كبيرة ، أنا أريد أن أقرع أجراس الخطر ، وأن ننتبه لأنفسنا ، وكل واحد بإمكانه أن يفعل شيئاً يقوي كيانه الإسلامي ، ولا أن تكتفي بالعرض الأدنى .

آخر شيء ، العالم ينقسم إلى قسمين :

قسم أخذ بالأسباب بشكل مذهل كالغربيين ، لكنهم اعتمدوا عليها ، ونسوا الله فوقعوا في الشرك ، ولهم عند الله تأديب كبير جداً .

القسم الثاني ونحن منهم ، لم نأخذ بالأسباب تكاسلاً ، ولسوء فهم لديننا تواكلنا ، ولم نتوكل ، فوقعنا في المعصية .

نحن لم نأخذ بها فأصبحنا ضعافاً ، هم أخذوا بها ، وأشركوا ، لكن الموقف الكامل أن نأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم نتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء .

إذاً ، ينبغي ألا نكتفي بالحد الأدنى ، ضمن نشاط الدين في حدود دنيا سهلة جداً ، يركب طائرة ، يذهب إلى العمرة ، يتمتع في فندق عدة أيام ، يطوف ويسعى ، ويرجع معتمرًا فندق شيء جميل ، وهي واجب ، والإنسان قد يتأثر تأثرًا كبيرًا جداً ، لكن هل نكتفي بالحج والعمرة فقط ، ونهمل أعمالنا ؟ نهمل أولادنا ؟ نهمل تربية أولادنا ؟ نهمل إتقان صنعتنا ؟ هناك خلل كبير في حياتنا أيها الإخوة ظهر بهذه الأزمان ، وهذا الخلل لا يحل إلا إذا كان الوعي الذي ينبغي أن يكون عندنا في أعلى مستوى .

و الحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا آثرنا ولا تؤثر علينا أرضنا وارضى عنا ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (١٨-٦٤) : الحياء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من لوازم الإيمان الحياء، الله عز وجل يقول:

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤))

(سورة العلق)

لا شك أن أي واحد منا إذا كان في حضرة إنسان من وجهاء قومه محترم يخجل أن يكون له وضع شاذ في جلسته، ومنطقه، وحركته، وتعبيره، وكلامه، والإنسان حينما يراقب الله عز وجل، ويشعر أنه في قبضته وحركته وسكنته وأقواله في علم الله عز وجل، علمك أن الله يعلم يولد حالة في نفس المؤمن هي الحياء.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

(سورة النساء)

لكن سبحانك ! يا رب، شعور الإنسان أن الله معه ليس متعباً، لو أن إنسانًا معك لم يفارقك إطلاقاً لا تحتمل، وهو معكم، لكن الله لطيف، معنا من دون أن تكون هذه المعية عبئاً علينا، لكنه يرى، ويسمع، وهو رقيب علينا.

شيء آخر، مهما تصورت دقائق الأمور فهي في علم الله لا تخفى عليه خافية.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩))

(سورة غافر)

والحقيقة أن خائنة الأعين ليس في مقدور البشر كشفها، يمكن أن تختلس نظرة، ولا تستطيع جهة في الأرض أن تضبطك بها، ومع ذلك هذه النظرة يعلمها الله عز وجل، فكلما نما إيمانك، وعلا قدر الله عندك، وكلما شعرت أنه معك، وأنه ناظر إليك انعكست في نفسك حالة رائعة هي الحياء.

أيها الإخوة، تكاد تكون هذه الصفة فاصلة بين من يستحي، ومن لا يستحي، الذي لا يستحي بعيد عن الله، جاهل بعظمة الله عز وجل، المؤمن يستحي، تجلس مع المؤمن سنوات وسنوات لا ينطق بكلمة نابية، ليس له نظرة غير حكيمة، ليس عنده حركة لا ترضي الله عز وجل.

يوجد حقيقة دقيقة، أن غير المؤمن لا يمكن أن يكون حيياً، لأنه في الصحيح، عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، يَقُولُ: إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي، حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ: قَدْ أَضَرَّ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ))

(صحيح البخاري)

لا تتوقع إنسانًا يعبدًا عن الإيمان حيياً، ولا يمكن أن تتوقع أن مؤمناً لا يكون حيياً، أبرز صفة للمؤمن بأنه يستحي، كلامه وسمعه وحديثه مضبوط ، جلس في بيت، هناك من ينظر بحدة إلى كل شيء، سمع حركة التفت، المؤمن يخجل أن يتفحص ببصره كل شيء، ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ))

(صحيح البخاري)

قد يحول الحياء بينك وبين مئات المعاصي، هذه المعصية ما الذي منعك منها ؟ حياؤك من الله عز وجل، إحساسك أنه معك، ويراقبك، ويسمعك، وأنه بصير بك، الحياء لا يأتي إلا بخير، والحياء من لوازم المؤمن، وكأن الحياء فاصل بين المؤمن وغير المؤمن.

ومن حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ))

(صحيح مسلم)

لمجرد أن تزيل عن الطريق شيئاً يؤذي المارة فهذا من الحياء، في فر بعض المركبات تستعين بحجر في وقوف عند الصعود فإذا سارت تركت هذا الحجر، فتجد مؤمن يقود مركبته في سفر وبسرعة عالية يقف، ويزيل هذا الحجر على طرف الطريق، لأن هذا الحجر قد يسبب حادثا قاتلا، ما الذي حمله على أن يقف، ويزيل الحجر عن الطريق ؟ هذا إيمان، رجاء أن يغفر الله له، أن هؤلاء البشر هم عباد الله، و يقعون في حادث مروع بسبب أن السائق لم ينتبه لهذا الحجر، وهذا الحجر كافٍ ليسبب مشكلة كبيرة، لمجرد أن تميط الأذى عن الطريق فهذا إيمان، فكأن النبي عليه الصلاة والسلام رتب التوحيد أولا، والحد الأدنى أيّ عمل صالح مهما ظننته صغيراً فهو يدل على الإيمان، والحياء شعبة من الإيمان، فالمؤمن إذا كان على حياء فهو في خير.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا))

(صحيح البخاري)

فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه.

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ غُسْلِ الْمَحِيضِ فَقَالَ:

((تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا، فَتَطَهَّرُ، فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ دَلْكًا شَدِيدًا، حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً، فَتَطَهَّرُ بِهَا، فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: وَكَيْفَ تَطَهَّرُ بِهَا ؟ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! تَطَهَّرِينَ بِهَا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ كَأَنَّهَا تُخْفِي ذَلِكَ: تَتَبَّعِينَ أَثَرَ الدَّمِ، وَسَأَلَتْهُ عَنْ غُسْلِ الْجَنَابَةِ، فَقَالَ: تَأْخُذُ مَاءً فَتَطَهَّرُ، فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، أَوْ تُبْلِغُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ))

(صحيح مسلم)

والذي لا يستحي لا خير منه، وكان عليه الصلاة والسلام يكره أن يواجه الإنسان بما يكره، فإذا صعد المنبر يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، كان يستحي أن يواجه أحد أصحابه بما يكره، فإذا أراد أن ينصح أصحابه كان يعمم، ولا يخصص، لئلا يستحي أحد من هذه المواجهة.

لكن يوجد حديث يفهم على معنيين متناقضين:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ))

(صحيح البخاري)

هذا الحديث له تفسيران الأول: تهديد، كقوله تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف)

هذه لام الأمر، يعني اكفر، وسترى نتائج الكفر ،هذا أسلوب التهديد.

وقد قال بعض شراح الحديث: إن هذا الحديث قد يعني أنه تهديد، فإذا لم تستحي من الله فاصنع ما شئت، فسوف ترى !أسلوب التهديد، لكن بعضهم اختار معنى آخر، وهو دقيق جداً، أنت حينما لا تستحي من الله في شأن شرعي، والناس ينكرون عليك هذا العمل لا تعبأ بهم ما دام الله معك، أو راضياً عنك، أو ما دمت وفق منهج الله، أو ما دمت تسعى لإرضاء الله، ولو كان هذا الذي تفعله مستنكراً ممن حولك.

أحياناً تكون هناك ضرورة شرعية كي تتزوج امرأة ثانية، والناس لا يقدرون ذلك، والتعدد في الزواج مرفوض اجتماعياً، مقبول شرعاً، فلو أنك ابتغيت بهذا التعدد رضوان الله عز وجل، وكل من حولك أنكر هذا فلا ينبغي أن تعبأ به، فإذا لم تستحي من الله فاصنع ما شئت، هناك نساء يتمنين أن يزني زوجها كل يوم، ولا يتزوج عليها امرأة ثانية، لأن التعدد مرفوض اجتماعياً، لكنه مقبول عند الله بشروط، لكن التعدد الموجود في مجتمعنا مرفوض أيضاً، لا يوجد عدل، يميل إلى واحدة

كل الميل، يعطيها مودته ووقته، واهتمامه وماله، والثانية مهملة، فنحن ما رأينا تعدداً شرعياً، بل تعدداً ظالماً فلذلك: قد يكون المجتمع على صواب حينما يرفض التعدد، لأنه رأى تعدداً ظالماً، ولم ير تعدداً عادلاً، على كل إذا كان عملك ضمن الشرع أفضل ألف مرة ولو استنكر الناس عملك من أن تعصي الله عز وجل، فالمعصية مرفوضة كلياً، بينما لو سلكت طريقاً مغطى بالشرع هذا أفضل ألف مرة من الحالة الأولى، فإذا لم تستحي فاصنع ما شئت.

الشيء اللطيف: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَسْتَحْيِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ))

(سنن الترمذي)

في الرأس يوجد عين، والعين ينبغي أن تعبد الله بغض البصر عن المحرمات، وتتبع العورات، والأذن ينبغي أن تعبد الله بألا تسمع ما يسخط الله، واللسان ينبغي أن يعبد الله بأن لا ينطق إلا بالحق.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

(صحيح البخاري)

فأن تحفظ الرأس وما وعى، الحواس التي أودعها الله في الرأس ينبغي أن تستحي من الله أن تستخدمها في معصية الله.

((وَالْبَطْنَ وَمَا حوى))

ينبغي ألاّ تأكل طعاما بمال حرام، ينبغي ألا يدخل جوفك إلا طعاماً حلالاً،

((وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا))

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء)

ينبغي أن يدع الترف في الدنيا والمبالغة في المباحات، هذه لا تتناسب مع إنسان أراد الآخرة،

((فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ))

والحياء من صفة المؤمنين، ولا يأتي إلا بخير، وربما يحجزك عن معصية تسبب هلاك الإنسان.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (١٩-٦٤) : أحكام الله ضمان لسلامة الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

التناقض في أفكار الكفار:



أيها الإخوة ؛ في سورة يونس عليه السلام آية ، هي قوله تعالى :

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة يونس الآية : ١٥]

الملمح في هذه الآية أن الذين لا يرجون لقاءنا ، لا تعجبهم أحكام القرآن يريدون تبديل أحكامه ، وهذه المشكلة الأولى الآن مع العالم الإسلامي ، قال تعالى :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً)

[سورة الإسراء الآيات : ٧٣ – ٧٤]

أيها الإخوة الكرام ، أعداء المسلمون يسمحون بالمظاهر الإسلامية ، بالمساجد ، بتلاوة القرآن ، بكل شيء لا يتعلق بمنهج الحياة ، لكن منهج الحياة يجب أن يكون كما يتصورونه ، لذلك المشكلة الأولى التي مع المسلمين هي تبديل منهجهم وشريعتهم ، هنا قال تعالى :

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا)

[سورة يونس الآية : ١٥]

الناس رجلان :

هنا وقفة ، الناس رجلان ...

- إما أنه رجل يرجو لقاء الله عز وجل ، ويعمل له ، ويسعى إليه ، ويجهد في سلامته بعد الموت ، إذاً هو يرجو لقاء الله أن يموت على الإيمان ، أن يموت موحداً لله عز وجل ، مطبقاً لمنهجه .

- أو أن هناك آخر ليس ضرورياً أن يقول : ليس هناك آخرة ، لكن في حركاته وسكناته لا يرجو إلا الدنيا ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا يسعى إلا إليها ، ولا يعبأ كثيراً ما إذا كانت حركته مطابقة للشرع أو لا ، لا يريد إلا الحياة الدنيا الآخرة ليست داخلة في حساباته .

هذا يزعجه ما في الدين من أحكام ، يزعجه الحجاب ، يزعجه تحريم الربا ، يزعجه تحريم الاختلاط ، يزعجه النظام الإسلامي في كسب الأموال ، فكل شيء من أحكام لا يقبله ، لأنه لا يرجو لقاء الله عز وجل ، أراد الدنيا ومصالحه في الدنيا ، ورغباته في الدنيا ، وشهواته في الدنيا ، لذلك لا يرجو لقاء الله عز وجل ، إذاً لا يقبل أحكام الله عز وجل .

قبل أيام مرت الآيات :

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

[سورة المائدة الآية : ٤٤]

والآية الثانية :

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

[سورة المائدة الآية : ٤٥]

والآية الثالثة :

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة المائدة الآية : ٤٧]

العبرة بالمضمون لا بالشكل :

فالعبرة أيها الإخوة الكرام لا بالمظاهر الدينية ، العبرة بالالتزام الديني ، إذا أردنا أن ينظر إلينا الله عز وجل بالعطف والرحمة ، والتأييد والنصر فيجب أن نقيم الإسلام في حياتنا ، لذلك قال تعالى :

اعتماد الإسلام منهج حياة

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية : ٣٣]

من أجمل ما في هذه الآية أنه مادامت سنة النبي عليه الصلاة والسلام قائمةً فيهم ، في بيوتهم ، وفي أعمالهم ، وفي أفراحهم ، وفي أتراحهم ، وفي كسب أموالهم ، وفي إنفاقها ، وفي تربية أولادهم ، فهم في بحبوحة من عذاب الله ، قال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية : ٣٣]

الأحكام القرآنية ضمانا لسلامة الإنسان :

إذاً يتضح أن هذا الذي لا يرجو لقاء الله عز وجل لا يحتمل هذه الأحكام ، ويراها حداً لحريته ، بل هي في الحقيقة ضمان لسلامته ، وفرق كبير بين أن تفهم أحكام الله عز وجل ضماناً لسلامتك ، وبين أن تفهمها حداً لحريتك ، الذي يرجو الله واليوم الآخر يراها ضماناً لسلامته ، والذي لا يرجو إلا الدنيا يراها حداً لحريته ، لذلك ورد في بعض الأحاديث .

عَنْ أَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ : خَرَجَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ عِنْدِ مَرْوَانَ بِنِصْفِ النَّهَارِ قُلْتُ : مَا بَعَثَ إِلَيْهِ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلَّا لِشَيْءٍ سَأَلَ عَنْهُ ؟ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ : سَأَلَنَا عَنْ أَشْيَاءَ سَمِعْنَاهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ))

[أخرجه ابن ماجه]

إنسان يرجو لقاء الله ، وإنسان لا يرجو لقاء الله .

أريد أن أؤكد على ناحية دقيقة جداً ، أنه لا تجد في العالم الإسلامي كله من ينكر الآخرة بلسانه ، لكن لو دققت في سلوك الناس تجد معظم المسلمين لا يفكرون بالآخرة ، هذا الذي يغتصب بيتاً ، أو يغتصب مالاً ، أو يغتصب شركةً كيف تراه يؤمن بالآخرة ؟ مستحيل ، لو آمن بالآخرة ، وأن هناك حساباً دقيقاً ، وأن هناك إلهاً عادلاً ، وأن هناك من يأخذ من الظالم للمظلوم لا يقبل أن يأكل مالاً ليس له .

أيها الإخوة الكرام ؛ العبرة لا بالتكذيب القولي ، ولكن بالتكذيب العملي ، وهو أشد أنواع التكذيب .

شيء آخر ، يقول الله عز وجل :

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآَنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي)

[سورة يونس الآية : ١٥]



المشكلة أن الإنسان يتصور إذا كان خاضعاً لقانون أن هذا القانون من وضع البشر ، وقد تكون معركة بين عقلين ، فإذا كان واضع القانون ذكياً فقد يكون من يطبق عليه القانون أذكى منه ، فبأسلوب أو بآخر يلغي مفعول هذا القانون بالتفاف حوله ، هذا يقع في العالم كله ، لكن من عظمة الله عز وجل أن التشريع الإسلامي ليس من عند البشر ، بل من عند خالق البشر ، لذلك جميع البشر يخضعون لهذا التشريع ، أي تشريع ، ولو افترضنا جدلاً ليس في الإسلام صيام ، والجهات الرسمية أرادت من أجل صحة المواطنين أن تفرض الصيام ، هل تستطيع أن تحمل الناس جميعاً ولو في بيوتهم ؟ مستحيل ، ما من شيء ، وما من نظام في الأرض يمكن أن يطبق بحذافيره إلا إذا كان من عند الله ، لأن الله معكم أينما كنتم ، معك في بيتك ، في خلوتك ، في جلوتك ، إذاً بشكل دقيق لا يمكن أن ينجح تشريع إلا إذا كان من عند خالق البشر ، لأن الذي وضع التشريع معك في كل مكان هو عليك رقيب ، هو لك بالمرصاد ، يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور ، لذلك هنا قال تعالى :

(مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة يونس الآية : ١٥]

لو تتبعنا الآيات التي تبين حدود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام الآية : ١٥]

هذا حد نبينا عليه الصلاة والسلام ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق ، يخاف إن عصى الله عذاب يوم عظيم ، هذا حد ، الحد الثاني قال تعالى :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

[سورة الأعراف الآية : ١٨٨]

الحد الثالث قال تعالى :

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

[سورة الجن الآية : ٢١]

الحد الرابع ، قال تعالى :

(لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف الآية : ١٨٨]

فلأن لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً فمن باب أولى لا أملك ذلك لكم ، فإذا كان قمة البشر لكم أعلى مخلوق بين البشر يخاف إن عصى ربه عذاب يوم عظيم لكم ولا يعلم الغيب لكم ولا يملك لأحد نفعاً ولا ضرا ، فهذا مقام العبودية ، قال تعالى :

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

[سورة النجم الآية : ١٠]

وقد بلغ النبي عليه الصلاة والسلام سدرة المنتهى ، وأوحى إلى عبده ما أوحى ، ومع ذلك يخاف إن عصى الله عذاب يوم عظيم .

إذاً حينما ترى أن حدود الشرع قيوداً لك فاعلم أن الطريق طويل أمامك ، حينما تتوهم أن حدود الشرع قيود ، أما حينما تفهم الحدود ضماناً لسلامتك فأنت فقيه ، ودائماً وأبداً لا يعنينا كثيراً الأطر الخارجية ، الآن الأبنية الإسلامية شيء يلفت النظر ، أنا دخلت مسجدًا في الدار البيضاء كلّف ألف مليون دولار ، فوق البحر ، فن المغرب في هذا المسجد ، يوجد عندنا أطر إسلامية ، أما هل التعامل اليومي إسلامي ؟ طريقة البيع والشراء ، استثمار الأموال إسلامي ؟ تربية الأولاد إسلامي؟ ما يعرض على الشاشة إسلامي ؟ هنا المشكلة :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)

[سورة الإسراء الآية : ٧٣]

لا يتخذونك خليلا إلا إذا تخليت عن دينك ، ورضيت أن تطبق مناهجهم في كل شيء ، مناهجهم الاقتصادية والاجتماعية والعلمية :

(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً)

[سورة الإسراء الآية : ٧٤]

هذه الآية أيها الإخوة تمثل جهود الطرف الآخر منذ نشوء الإسلام ، وإلى يوم القيامة ، المعركة معركة تبديل منهج ، إذا بدلنا نتخذ أخلاء لهم ، وإن لم نبدل فنحن إرهابيون .

هذه المشكلة القائمة ، وكلما تمسكنا بإسلامنا ، وبتعاليم ديننا ، وبقرآننا أعطينا لله عز وجل سببًا أن ينصرنا ، لو دعونا الله ليلاً نهاراً ، في الحرب السابقة التي شنت على العراق لا يوجد مسجد في العالم الإسلامي إلا قنت في الصلوات ، و دعا الله عز وجل أن ينصر المسلمين ، ومع ذلك لم ينصرهم، هذا الجواب ، أو هذا الموضوع يجاب عنه : ما لم نغير ، ما لم نبدل ، ما لم نقِم أمر الله في بيوتنا ، وفي أعمالنا فلا نستطيع أن نطالب الله أن ينصرنا .

لذلك أنا كنت أدعو ، وأقول :

اللهم انصرنا على أنفسنا حتى ننتصر لك ، عندئذ نستحق أن تنصرنا على أعدائنا ، وأمامنا جهاد نفسي ، جهاد النفس والهوى ، و ليس في الأرض جهة تمنعك أن تجاهد نفسك وهواك ، ليس في الأرض جهة تمنعك ، ولا تسائلك لماذا كنت صادقاً ؟ لماذا كنت أميناً ؟ لماذا كنت عفيفاً ؟ طرائق الجهاد النفسي مفتوحة على مصارعها ، والجهاد الدعوي من يمنعك أن تعلم أولادك مبادئ الإسلام ؟ من يمنعك أن تعلم من حولك مبادئ الإسلام ؟ والجهاد الدعوي أبوابه مفتوحة على مصارعها .

بقي الجهاد البنائي ، من يمنعك أن تكون الأول في اختصاصك ؟ الأول في صناعتك ؟ الأول في تجارتك ؟ الأول في زراعتك ؟ من يمنعك أن تكون منتجاً ؟

الجهاد النفسي ، والجهاد الدعوي ، و الجهاد البنائي متاح لكل مسلم ، ولا تستطيع جهة في الأرض أن تمنعك منه ، ولا أن تسائلك : لمَ فعلت كذا ؟ فالطريق أمامنا طويل ، وكل واحد منا ينبغي أن يسلكه ، فلعل الله سبحانه و تعالى يرحمنا .

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٢٠-٦٤) : الأخلاق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلق :

أيها الإخوة الكرام ، من لوازم المؤمن أنه ذو أخلاق ، ذلك أن الأخلاق في تعريفها الدقيق : هي ضبط للسلوك .

فالله عز وجل أودع في الإنسان الشهوات ، وسمح له أن يتحرك بها من دون قيد أو شرط ، لكن التشريع الحكيم ألزمه بحيز ينبغي ألا يتعداه ، الإنسان يستطيع أن يمارس أية شهوة أودعها الله فيه بشكل كامل ، إلا أن الشريعة الغراء سمحت له في علاقته بالمرأة بالزواج فقط ، وفي كسبه للمال بكسب المال الحلال ، وفي أية شهوة أودعت في الإنسان سمح له أن يمارسها ضمن قناة نظيفة ، هي التشريع الإلهي

فكل إنسان أوقع حركته وفق النطاق الذي سمح الله به فهو ذو خُلق .

لذلك الأخلاق كسبية تقوم باختيار ، ثم بإرادة ، ثم بفعل .

الآن النبي عليه الصلاة والسلام مع أنه كان قمة في كل شيء قال الله له :

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى)

[سورة الأعلى الآية : ٦]

القرآن يتلى عليه مرةً فيحفظه ، كان أفصح العرب ، كان جميل الصورة ، فكل خصائصه التي تعينه على أداء الرسالة منحه الله إياها ، إنها وسائل الدعوة ، إلا أن الله حينما أثنى عليه أثنى على خُلقه فقط .

الأمر يتّضح تماماً كما لو أن ابناً طلب من أبيه قصراً ، وأبوه ملك ، فمنحه القصر ، طلب طائرة خاصة فمنحه طائرة خاصة ، طلب يختاً فمنحه اليخت ، لكن لا يعقل أن يكرم هذا الابن حينما يمنح يختاً أو طائرةً ، أما حينما يتفوق في دراسته ، وهي من كسبه يكرم .

لذلك كل أدوات الدعوة من فصاحة إلى ذاكرة قوية إلى حكمة إلى ... هذه كلها من خصائص الدعوة ، وقد تفضل الله على النبي عليه الصلاة والسلام ، لكن حينما يمدح النبي صلى الله عليه وسلم يمدح بشيء من كسبه ، ألا وهو الخلق، فالخصائص قد تكون وهبية ، بينما الخلق هو كسبي ، قال تعالى :



(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم : الآية ٤]

السيدة عائشة سئلت عن خلقه فقالت :

((كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ))

[مسلم]

لو قرأت القرآن الكريم كله ، أثنى الله على الصادقين وكان صادقاً ، أثنى على المتصدقين وكان متصدقاً ، أثنى الله على الصابرين وكان صابراً ، فما من صفة وردت في القرآن الكريم فاضلة إلا والنبي صلى الله عليه وسلم تمثلها قلباً وقالباً ، إذاً كانت أخلاقه القرآن .

مكارم الأخلاق :

وقال بعضهم :

الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي ، وقد جمعت مكارم الأخلاق في آية ، قال تعالى :

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

[سورة الأعراف : الآية ١٩٩]

كلمة

(خُذِ)

تعني شيئاً ثميناً ، أنت حينما تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك فأنت قد أخذت العفو ، عفوت عنه حينما قطعك فوصلته ، وعفوت عنه حينما حرمك فأعطيته ، وعفوت عنه حينما ظلمك فأنصفت معه .

عن أبو هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال :

((أَمَرَنِي رَبّي بتِسْع : خَشْيَةِ الله في السِّرّ والعلانية ، وكلمة العدل في الغضب والرضى ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أصِلَ مَنْ قطعَنِي ، وأعطي مَنْ حَرَمَنِي ، وأعْفُوَ عَمّنْ ظلَمَنِي ، وأن يكون صَمْتِي فِكْرا ، ونُطْقِي ذِكْرا ، ونظري عبرة ، وآمرُ بالعُرْف ، وقيل : بالمعروف))

[ساقه القرطبي في تفسيره بصيغة التمريض]

(خُذِ الْعَفْوَ)

الآن الأوامر :

(وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ)

العرف ما تعرفه الفطر السليمة بداهة ، لك فطرة سليمة أيها الإنسان ، إنك في أصل تركيبك ، وفي أصل جبلتك ، وفي أصل فطرتك تحب الصدق ، تحب الإنصاف ، تحب الرحمة ، الله عز وجل أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو ، ويأمر بالعرف ، يجب أن تأمر أيها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقيم الأخلاقية التي فطر الإنسان عليها .

(وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ)

والناس يستجيبون أو لا يستجيبون ، يمدحون أو يذمون ، الإنسان المتفلت لا تعجبه مكارم الأخلاق ، يحب أن يأخذ ما ليس له ، يحب أن يعتدي على أعراض الآخرين ، قال تعالى :

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

[سورة الأعراف : الآية ١٩٩]

وثمة أحاديث صحيحة تبين أن أثمن شيء في الدين على الإطلاق حسن الخلق .

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ:

((الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ))

[مسلم]

مِن أوسع الكلمات دلالة على مكارم الخلاق :

((الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ))

ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ :

((سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : التَّقْوَى ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ ، وَسُئِلَ : مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّارَ ؟ قَالَ : الْأَجْوَفَانِ ، الْفَمُ وَالْفَرْجُ))

[ابن ماجه ، أحمد]

يعني شهوتا الطعام والجنس .

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا))

[أحمد ، الترمذي]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

وعَنْ عَائِشَةَ رَحِمَهَا اللَّهُ قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ))

[أبو داود ، أحمد]

الإنسان صائم في النهار ، قائم في الليل ، يأتي الذي له أخلاق حسنة فيسبقه بهذه الأخلاق .
وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا ، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا ، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ))

[أبو داود]

المراء المشاحنة ، وإن سألتني : هل يمكن أن يضغط الدين كله بكلمة بعد صحة الاعتقاد ؟ الجواب: حسن الخلق .

هذا الأمر دعا بعض كبار العلماء أن يقول : الإيمان هو الخلق ، ومن زاد عليك في الإيمان زاد عليك في الخلق .

وعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ : الْمُتَكَبِّرُونَ))

[الترمذي]

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ :

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَزْهَرَ اللَّوْنِ ، كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ ، إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ ، وَلَا مَسِسْتُ دِيبَاجَةً وَلَا حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلَا عَنْبَرَةً أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[مسلم ، أحمد]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ :

((خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ ، وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي أُفًّا قَطُّ ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا ؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا))

[متفق عليه]

الفضيلة وسط بين طرفين :

أيها الإخوة الكرام ؛ شيء دقيق ، هو أن كل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين ، كل خلق محمود قبله خُلق مذموم ، وبعده خلق مذموم ، والفضيلة وسط بين طرفين .

الجود خلق محمود ، أما الإسراف فخلق مذموم ، البخل خلق مذموم ، يوجد إنفاق عشوائي طائش ، يوجد تبذير ، يوجد إسراف ، ويوجد تقتير ، والجود بينهما .

التهور خلق مذموم ، الجبن خلق مذموم ، بينهما الشجاعة .

ما من خلق محمود إلا وقبله وبعده خلقان مذمومان ، فالفضيلة وسط بين طرفين .

الطيش خلق مذموم ، التهيب خلق مذموم ، الحلم بينهما .

الأناة فضيلة ، عدم الحركة إطلاقاً رذيلة ، لا يتحرك إلى شيء من شدة حذره وخوفه وقلقه ، يلغي عمله كله ، والتسرع خلق مذموم .

لو ذهبت إلى بنود الأخلاق كلها لا تجد خلقاً فاضلاً إلا ويكتنفه خلقان مذمومان ، لذلك قالوا : الفضيلة بين طرفين .



أيها الإخوة الكرام ؛ صاحب الأخلاق الفضلى يسبق الصائم القائم ، وقد يصل إلى أعلى درجات الجنة ، طبعاً أقول : الأخلاق الفاضلة التي بنيت على إيمان ، أما هناك أخلاق تبنى على الذكاء ، هذه أخلاق أهل الدنيا ، تقتضي مصلحته أن يكون صادقاً ، تقتضي مصلحته أن يكون منصفاً .

قلت مرة : إن الأخلاق التي تلفت النظر في العالم الغربي هي أخلاق أساسها الذكاء ، لأنهم يعبدون المال من دون الله فكانوا بهذه الأخلاق ، وإذا تضررت مصالحهم يصبحون وحوشاً ، أليس كذلك ؟ كان الامتحان صعباً ، وسقطوا ، مادامت الأمور كلها لصالحهم فهم صادقون ، منصفون ، يعرفون قيمة الإنسان ، تقتضي مصلحتهم ذلك ، أما إذا مست مصالحهم ينقلبون إلى وحوش كاسرة ، لذلك يجب أن نفرق بين أخلاق الأذكياء وأخلاق العباد المؤمنين .

المؤمن خلقه أصيل ، لا يتأثر لا بإقبال الدنيا ولا بإدبارها ، لا بتحقيق مصالحه ولا بتعطل مصالحه، لا بالغنى ولا بالفقر ، الخلق الإيماني خلق ثابت ، خلق أصيل .

بينما الخلق الشيطاني خلق مبني على الذكاء ، ومبني على تحقيق المصالح ، فإذا مست المصالح يصبح هذا الأخلاقي وحشاً كاسراً .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من لوازم المؤمن أنه متواضع، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان الآية: ٦٣)

أي في سكينة ووقار متواضعين، ليسوا مرحين، ولا متكبرين، أي علماء حكماء، أي أصحاب وقار وعفة، لا يسفهون، وإن سفه عليهم حلموا، هذا معنى قوله تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

الهَون بالفتح ؛ صفة المؤمنين، الرفق واللين، والهُون بالضم ؛ الهوان صفة الكافرين، ويقول الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة المائدة الآية: ٥٤)

معنى أذلة ؛ أي ينقادون لهم، يشفقون عليهم، يرحمونهم، يعطفون عليهم، ليس ذل هوان، إنه ذل انقياد، كيف أن الأم لما أودع الله في قلبها من الرحمة يستطيع ابنها أن يسألها، وأن تجيبه، تجيبه برحمتها به، لذلك المؤمن كالجمل الذلول، والمنافق والفاسق ذليل.

فرق كبير بين ذلول وذليل، وقيل: إن الذل يعشق الكذاب والنمام والبخيل والجبار، فالكذاب والنمام، والبخيل والجبار لا بد لهم من ذل حينما يكشف أمرهم.

أما معنى قوله تعالى:

(أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

من عزة القوة والمنعة والغلبة، قال عطاء: أذلة على المؤمنين أي هم للمؤمنين كالوالد لولده، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته، و في آية أخرى:

(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

(سورة الفتح الآية: ٢٩)

وفي حديث صحيح عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ))

[أبو داود، ابن ماجه]

أكاد أقول: إن السمة البارزة بالمؤمن التواضع، وإن السمة البارزة للكافر الكبر.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ))

[أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه]

وفي حديث احتجاج الجنة والنار عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ:

((احْتَجَّتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتْ الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ، مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا فُقَرَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ ؟ وَقَالَتْ النَّارُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ ؟ فَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَقَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ لَهَا مَا يَشَاءُ، وَأَمَّا النَّارُ فَيُلْقَوْنَ فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ فِيهَا، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ، قَطْ، قَطْ))

[أحمد، وأصله في البخاري]

هذا الذي كان في الدنيا متواضعاً، كان لين الجانب، كان كالجمل الذلول، هذا مصيره إلى الجنة.
وفي الحديث القدسي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ))

[رواه مسلم]

وفي رواية فمن نازعني قصمته.

وحينما يرى الإنسان عدوه مستكبراً ينبغي أن يفرح، لأن الله سوف يقسمه.

وفي جامع الترمذي عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ))

[الترمذي]

قد يكون الإنسان في المرتبة الدنيا في المجتمع، لكنه جبار، لو وكلته على رَجلين لسحقهما، التجبر لا يعني أنك عظيم، قد يكون الإنسان في المرتبة الدنيا، ومع ذلك يكون جباراً.

كان عليه الصلاة والسلام يمر على الصبيان فيسلم عليهم، وكانت الأمة ؛ الطفلة الصغيرة تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت، وكان إذا أكل عليه الصلاة والسلام لعق أصابعه الثلاث، وكان صلى الله عليه وسلم في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط، وكان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة

واليتيم، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء، وكان هين المأونة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذلة، جواداً من سرفٍ، رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم، وكان صلى الله عليه وسلم يقول:

((ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النّار، وبِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النّارُ ؟ عَلَى كُلّ قَرِيبٍ هَيّنٍ سَهْلٍ))

[رواه الترمذي]

وحَدَّثَنَا عَبْدَانُ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ ـ قدم الخروف ـ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

[رَوَاهُ الْبُخَارِيّ]

وكان يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يوم قريظة على حمار، مختوم بحبل ليف، عليه إكاف من ليف.

أيها الإخوة، من أقوال العلماء الربانيين عن التواضع:

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله "، فهو خاضع للحق، ولو نطق به طفل صغير، بينما المتكبر لا يخضع للحق، ولو نطق به أعلم العلماء،

(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ)

(سورة البقرة: الآية ٢٠٦)

وقيل التواضع: ألا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب، إنك حسنة من حسنات ربك، منحك نعمة الوجود، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد ونعمة الهدى والرشاد.

وقال الجنيد: التواضع خفض الجناح، ولين الجانب.

وقيل: قبول الحق من كان، والعز في التواضع، فمن طلبه في الكبر، من طلب العزة في الكبر كمن يطلب الماء من النار، العز في التواضع، ومن أراد أن يكون عزيزاً عن طريق الكبر والهيمنة وإرهاب الناس أصبح ذليلاً.

وقيل: الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة.

وقال عروة: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، قال: لمّا أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة فأردت أن أكسرها. سيدنا الصديق كان يحلب شياهًا لجارة له عجوز، فلما تسلم الخلافة، ظنت الجارة أن هذه الخدمة

توقفت، لأنها لا تليق بخليفة المسلمين، ففي اليوم الأول من توليه الخلافة طُرق باب العجوز، فقالت لابنتها: افتحي الباب، فلما فتحت، فقالت: من الطارق ؟ قالت: يا أمي جاء حالب الشاة، وهو خليفة المسلمين.

ومر الحسن على صبيان معهم كسرٌ من خبزٍ، فاستضافوه على خبز فقط، فنزل وأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم، لهم الفضل، لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منهم، فلهم الفضل بهذه السابقة.

يروى أن سيدنا أبا ذر رضي الله عنه ما كان معصوماً، عيّر بلالاً بسواده، ثم ندم، فألقى بنفسه على الأرض، وحلف لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه، فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال ذلك.

سيدنا عمر بن عبد العزيز بلغه أن واليا له اشترى خاتماً بألف درهم، فكتب إليه عمر بلغني أنك اشتريت فصاً بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم، وأشبع به ألف بطن، واتخذ خاتماً بدرهمين، واجعل فصه حديداً، واكتب عليه: رحم الله عبدًا عرف قدر نفسه.

أيها الإخوة الكرام، التواضع معرفة بالله عز وجل، لأن الجاهل لا يعرف الله، يرى نفسه كبيراً، أما المؤمن فيرى عظمة الله عز وجل، هذه الرؤية جعلته متواضعاً، وإذا أجرى الله على يديه الخير يعلم علم اليقين أن هذا هو فضل الله عليه، كلما تواضعت لله رفعك، وما من إنسان أعزه الله في الدنيا كسيدنا رسول الله ، وكان ما من إنسان أشد تواضعاً من رسول الله ، الله عز وجل أقسم بعمره الثمين قال له:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢))

(سورة الحجر)

فالتواضع ليس سلوكاً متكلفاً، الأذكياء يتواضعون من أجل أن ينتزعوا إعجاب الناس، نريد تواضع المؤمنين، متواضع حقيقة.

أيها الإخوة، أنت حينما تتواضع تأسر قلوب الآخرين، وأنت تريد أن تجلب قلوبهم، فالمتكبر لا يحبه أحد، والمتكبر لا يوقره أحد في غيبته، إذا كان كبيراً، قوياً، جباراً، يُعظم في حضرته، لكنه في غيبته مثال السخرية، أما المتواضع فمكرَّم في حضرته وفي غيبته، وكلما تواضعت لله زادك الله عزاً، فإذا أدرت عز وجل الدنيا والآخرة فاقتدِ برسول الله صلى الله عليه وسلم.

أقول لك مرة ثانية: التواضع ليس سلوكاً متكلفاً، بل هو سلوك طبيعي، تعرف أن الله تفضل عليك، إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل، ونسبه إليك، هذا هو التواضع، أنت أمام جبل شامخ، وأنت لا شيء، فإذا لم ترَ الجبل رأيت نفسك شيئاً كبيراً.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٢٢-٦٤) : حكم من قصة سيدنا يوسف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة سيدنا يوسف :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أيها الإخوة الكرام ؛ الكلام إما أن يسلك طريقاً مباشراً ، وإما أن يسلك طريقاً غير مباشر ، من الطرق غير المباشرة القصة .

القصة تعرض فكرة ، ولكن لا بشكل مباشر ، بل عن طريق شخصيات وأحداث وبداية ، وعقدة ، ونهاية ، وتحليل ، وسرد ، ووصف .



قصة سيدنا يوسف أطول قصة في القرآن

الحقيقة أن قصة سيدنا يوسف أطول قصة في القرآن الكريم ، لكن بطولة المؤمن أن يضع يده على مغزى القصة، الذي يقرأ قصة ، ولا يبحث عن الفكرة التي يعبر عنها فكأنه ما قرأ قصة ، الأفكار في هذه القصة عرضت على شكل حوادث ، وعلى شكل تحليل، وعلى شكل بداية ، وعقدة ، ونهاية . والحقيقة أنه قلما تجد قصة ذكر بها المغزى مباشرةً ، لكن الله سبحانه وتعالى قال :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف الآية : ٢١]

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي :

((أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد))

[الحكيم الترمذي في نوادر الأصول]

فإخوة يوسف أقوياء ، وقد مكروا به ، ووضعوه في غياب الجب ليتخلصوا منه

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف الآية : ٢١]

صار عزيز مصر ، الذين عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام هم في مزبلة التاريخ ، والصحابة الكرام الفقراء الذين وقفوا معه أعلام في الدنيا والآخرة .

المغزى من القصة :

المغزى الأول :

أول مغزى في هذه القصة أنه مستحيل أن تطيعه وتخسر ، وأن تعصيه وتربح .

المغزى الثاني :

أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان الشهوات ، وبإمكانه أن يمارس هذه الشهوات بكل حرية وطلاقة ، ولكن الله سمح له بكل شهوة بحيز عند الله مقبول ، وما سوى هذا الحيز مرفوض .

حينما يضبط الإنسان شهوته وفق منهج الله يستحق من الله التكريم ، الآن الله عز وجل يكرمه بسعادة تفوق ملايين المرات عن اللذة التي كاد أن يحصلها من شهوة محرمة .

لذلك إن لم تقل وأنت مطيع لله عز وجل : أنا أسعد الناس ففي إيمانك خلل .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية : ٥٠]

المعنى المخالف لو أنك اتبعت هواك وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليك إطلاقاً ، فسيدنا يوسف كان شاباً في ريعان الشباب ، وكان عبداً ، وهناك أكثر من عشر أسباب تدعوه إلى أن يقترف المعصية ، أولاً غريب ، وثانياً التي دعوته إلى الفاحشة سيدته ، وليس من صالحها أن تفضحه ، وهو أعزب ، ووسيم .

غلقت امرأة العزيز الأبواب ودعت سيدنا يوسف للمعصية فأبي

في كتب التفسير كلام طويل حول الأسباب التي يمكن أن تكون مخففة له لو اقترف الفاحشة ، ومع ذلك قال :

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

[سورة يوسف الآية : ٢٣]

جعله الله عزيز مصر ، لذلك يروى أن جارية في القصر تعرفه عبداً مملوكاً ، ثم رأته عزيز مصر ، فقالت : سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعته ! لذلك الله عز وجل يقول :

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح الآية : ٤]

هذه الآية في ظاهرها موجهة إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن في حقيقتها هي لكل مؤمن ، كل مؤمن يؤثر طاعة الله يرفع له ذكره .

الشيء الثاني : أن المؤمن ولاسيما الشاب حينما يجعل قدوته هذا النبي الكريم الذي تميز بالعفة ، ماذا قال سيدنا جعفر عن رسول الله للنجاشي ؟ قال له :

((حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف صدقه وأمانته وعفافه))

[أحمد عن أم سلمة]

وكأن هذه الكلمات الثلاث أركان الخلق الكريم ، صادق إذا تحدث ، أمين إذا عاملته ، عفيف إذا استثيرت شهوته .

الآن إذا تتبعت ما ينشر في الصحف في العالم كله من فضائح ، كل هذه الفضائح تندرج في بابين ، فضيحة مالية أو فضيحة جنسية .

الشهوة وهوامش الأمان :

فهذا النبي الكريم هو قدوة لكل شاب ، لكن هذه الشهوة لا يمكن أن تنجو منها إلا إذا جعلت بينك وبينها هامش أمان .

فغض البصر هامش أمان .

وعدم الخلوة بامرأة أجنبية هامش أمان .

وعدم صحبة الأراذل هامش أمان .

وعدم مطالعة الأدب الإباحي هامش أمان .

من هنا قال الله عز وجل :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

[سورة الإسراء الآية : ٣٢]

لم يقل : لا تزنوا ، قال :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

إنك إذا تخطيت هامش الأمان جرتك هذه الشهوة إلى نهايتها دون أن تشعر ، وما من إنسان تلبس بفاحشة الزنا إلا وكان يعتقد أنه لم يصل إلى ما وصل إليه ، ولكنها سلسلة ، فالشريف من يهرب من أسباب الخطيئة .

موازنة بين اللذة والسعادة :



أيها الإخوة الكرام ؛ هناك شهوة ينتج عنها لذة ، وهناك اتصال بالله ينتج عنه سعادة ، اسمحوا لي أن أوازن بين اللذة والسعادة .

اللذة حسية ، تأتيك من الخارج ، من طعام ، من شراب ، من بيت ، من امرأة ، اللذة متناقصة لا يمكن أن تمدك اللذة بشعور مريح مستمر ، واللذة التي تمارس إن كانت بخلاف منهج الله تنتهي بكآبة .

لذلك أيها الإخوة ، المرض الأول في العالم هو الكآبة ، إنهم متفلتون ، يفعلون ما يروق لهم ، لكن العقاب الإلهي المعجل تلك الكآبة ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه الآية : ١٢٤]



أما هذا الذي يغض بصره ، ويضبط شهوته مع من سمح الله بها ، هي زوجته ويكتفي بزوجته ، ولا ينظر :

(إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ)

[سورة طه الآية : ١٣١]

ويرضى بإكرام الله له من خلال هذه الزوجة ، الله عز وجل يذيقه سعادة من نوع آخر .

فالشهوة واللذة حسية تأتيك من الخارج ، لا يمكن أن تمدك بسعادة مستمرة ، إن كانت خلاف المنهج تعقبها كآبة .

والمشكلة أيها الإخوة أن اللذات من أجل أن تصل إلى المتعة فيها أنت بحاجة ماسة إلى شروط ثلاثة:

إلى وقت ، وإلى مال ، وإلى صحة .

ولحكمة أرادها الله أن هذه الشروط لا يمكن أن تجتمع في إنسان ، ففي البداية شاب في ريعان الشباب عنده صحة جيدة ، وعنده وقت مديد ، لكن ليس معه مال يعينه على اقتناص الشهوات ، في مرحلة أخرى أسس عملا ، عنده صحة ، وعنده مال ، لكن ليس عنده وقت ليحقق هذه الشهوات ، في خريف العمر عنده مال ، وعنده وقت لكن ليس عنده صحة ، أما السعادة :



أولاً : تنبع من الداخل ، ولا تحتاج إلى شروط خارجية ، حينما تنعقد مع الله صلة محكمة تشعر أنك ملكت الدنيا ، تشعر بسعادة لا توصف ، تنبع من الداخل ، والسعادة الناتجة عن اتصالك بالله عز وجل مستمرة من بداية الحياة إلى نهايتها ، لذلك ، لا يحزن قارئ القرآن .

ما دمت تقبل على الله ، وتذوق من الله حلاوة القرب فأنت في سعادة ولو كنت في أسوأ ظرف ، قد تسعد بالسكينة ، وقد حرمت معها كل شيء ، وقد تشقى بفقدها ، وقد ملكت الدنيا من أطرافها ، هذه حقائق أيها الإخوة ، نحن حينما نقرأ هذه السورة يجب أن نعرف أن الشهوة إن ترفعت عن جانبها المحرم عوضك الله قرباً وسعادةً وتوفيقاً لا حدود له .

والشيء الدقيق أن الله تعالى قال :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

[سورة يوسف الآية : ٥٢]

هذا قانون ، مستحيل لإنسان يخون ويحقق أهدافه بالخيانة ، لا بد من أن يفتضح .

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

[سورة يوسف الآية : ٥٢]

الشيء الثاني : أن تفاصيل الحياة وضع في جب .

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ)

[سورة يوسف الآية : ١٩]

ألقي سيدنا يوسف بالجب وامتحن بعفته ونجح

أُخذ إلى القصر ، امتحن من امرأة العزيز ، نجح بالامتحان ، دخل السجن.

مرة أيها الإخوة أحد إخواننا الكرام دخل السجن ، من حقه علي أن أزوره في السجن كي أطمئنه ، وكي أرفع من معنوياته ، لأنني على يقين قطعي أنه بريء ، لكن هناك خطأ طفيف جداً أودى به إلى السجن ، لما دخلت ماذا أقول له ، قلت له : إن نبياً كريماً أدخله الله السجن ليكون تسلية لكل مؤمن دخل السجن ظلماً ، الله عز وجل جعل الأنبياء بالتعبير الشائع كبش فداء ، سيدنا يوسف سُجن ، وسيدنا نوح ابنه كان كافراً ، وسيدنا لوط زوجته كافرة ، وسيدنا إبراهيم أبوه كافر ، ونبي كان عقيماً ، ونبي كان مريضاً ، فكل ما يطرأ على الإنسان من ظروف تمثلت بالأنبياء ليكونوا قدوة لنا .

أنا الذي أرجوه أن تكون هذه السورة منهجاً للشباب .

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنْ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ))

[أحمد في المسند]

((إن الله تعالى يباهي بالشاب العابد الملائكة ، يقول : انظروا إلى عبدي ، ترك شهوته من أجلي))

[ابن السني ، والديلمي في مسند الفردوس عن طلحة]

لكن أنصح الشباب بغض البصر ، أنصح الشباب بعدم الخلوة مع فتاة لا يحل له أن يخلو بها ، ألاّ يصحب الأراذل ، ألاّ يطالع أدباً مكشوفاً ، ألاّ يتابع مسلسلاً فاضحاً ، يجب أن يبتعد عن أسباب الفاحشة ، عندئذ يتولى الله حفظه فهو في مظلة الله .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، المؤمن ذاكر لله عز وجل، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى))

(سنن الترمذي)

الذكر في القرآن الكريم على عشرة أوجه:

الوجه الأول: أن الله أمر به مطلقاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة الأحزاب)

الأمر ينصب لا على الذكر، بل على كثرة الذكر، ذلك لأن المنافقين يذكرون الله، لكنهم يذكرونه ذكراً قليلاً.

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (١٤٢))

(سورة النساء)

الأمر به مطلقاً.

يقول الإمام الحسن البصري: " تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وفي قراءة القرآن، فإن وجدتم وَجدتم، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق "، إن لم تجد حلاوة في الذكر، ولا في تلاوة القرآن، ولا في الصلاة فاعلم أن الباب مغلق، بالذكر يصرع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

الوجه الثاني في الذكر: أن الله سبحانه وتعالى نهى عن ضده، قال تعالى:

(وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥))

(سورة الأعراف)

هناك ذاكر، وهناك غافل، نقيض الذكر الغفلة، بل إن الله سبحانه وتعالى علق الفلاح والنجاح والتفوق في الذكر، قال تعالى:

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥))

(سورة الأنفال)

مطلق النجاح، الإنسان يأتي إلى الدنيا ويغادرها، نجاح مطلق في أن يذكر الله عز وجل، والعذاب المقيم الدائم للغافلين عن الله عز وجل.

الوجه الثالث: أن الله سبحانه وتعالى أثنى على أهل الذكر قال: أهل ذكري أهل مودتي.

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً(٣٥))

(سورة الأحزاب)

الآن الوجه الرابع: الإخبار عن أن الذكر أكبر شيء في العبادات !

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت)

أكبر شيء في الصلاة أن تذكره، الدليل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤))

(سورة طه)

أيها الإخوة:

الوجه الخامس: أن الله سبحانه وتعالى قرن الذكر مع كل العبادات كيف ؟

الصلاة:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤))

الصيام:

(وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥))

(سورة البقرة)

الحج:

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً)

(سورة البقرة)

ختم به صلاة الجمعة:

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠))

(سورة الجمعة)

أما التفكر فقد قال الله عز وجل:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ)

(سورة آل عمران)

فالذاكر هو الذي ينتفع من الذكر.

أيها الأخوة:

الوجه السادس: الذاكرون هم أهل السبق، كما روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ، فَقَالَ: سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ، قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ))

(صحيح مسلم)

السبق في الذكر.

وفي حديث آخر، عَن أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

(صحيح مسلم)

الوجه السادس: ويكفي في شرف الذكر أن الله سبحانه وتعالى يباهي ملائكته بأهله، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ، قَالَ: آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ:

((مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ))

(صحيح مسلم)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ:

((لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ))

(سنن الترمذي)

طبعاً الذكر واسع جداً، إن دعوت الله فأنت ذاكر، إن قرأت القرآن فأنت ذاكر، إن قرأت حديث رسول الله فأنت ذاكر، إن استغفرت فأنت ذاكر، إن ابتهلت فأنت ذاكر، إن سبحت فأنت ذاكر، إن كبرت فأنت ذاكر، إن هللت أو حمدت أو قرأت كتاباً في العلم كي تزداد معرفة بالله، إن فتحت كتاب فقه، وتتبعت به قضية تعينك على طاعة الله فأنت ذاكر..... أي نشاط على الإطلاق إذا كان يتصل بالله عز وجل بشكل أو بآخر فهذا ذكر، بل الحقيقة الكبرى في الكون أن الله موجود، وواحد، وكامل.

الوجه السابع: القرب من الله، فكل شيء يقربك من الله فهو من الذكر، وكل شيء يبعدك عنه فهو من الغفلة، أنت بين حالين، حال الذكر والقرب، وحال الغفلة والبعد.

الوجه الثامن: لا يوجد عبادة تدور مع الإنسان في كل أوقاته إلا الذكر، إذا أويت إلى الفراش وقلت:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ))

(سنن الترمذي عن البراء بن عازب)

فأنت ذاكر.

إذا استيقظت وقلتَ:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

فأنت ذاكر.

إذا صليت فأنت ذاكر، أية عبادة شعائرية، وأية عبادة ذكرية أو مالية، أي عبادة تقربك من الله فأنت ذاكر، فلذلك الذكر يدور مع الإنسان في كل أحواله وحركاته وسكناته.

وفي المسند وغيره من حديث أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ))

(سنن الترمذي)

عَن ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

: ((لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ))

(سنن الترمذي)

الوجه التاسع: الذكر حياة، والغفلة موت: عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ، وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ))

(صحيح البخاري)

الذاكر حي الغافل ميت.

الآن نوع الذكر:

الوجه العاشر: ذكر الله لك في الملإ الأعلى: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

(صحيح البخاري)

الله عز وجل شاكر، أنت في مجلس من الممكن أن تتحدث عن نفسك، وبطولاتك، ودخلك، وإنفاقك، وأولادك المتفوقين، وزوجتك الوفية، معظم الناس همهم تسليط الأضواء على أشخاصهم، لكنك في هذا المجلس أردت أن تثني على الله، وتعرف الناس بالله، وتبين عظمة الله ورحمته وقدرته، الآن مكافأة لك تُذكر في جمع أرقى من هؤلاء بمستوى أعلى، تذكر فيه بخير، أنت ذكرته، وهو يذكرك في مستوى أرقى.

((وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ))

والحقيقة أن أنواع الذكر ثلاثة: ثناء، ودعاء، ورعاية، فالثناء سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

والدعاء: ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا، وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

الرعاية: أن تسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظك، ويلهمك الصواب، ويوفقك إلى الخير، ويؤيدك بنصره، ويرعاك في حياتك الدنيا.

أيها الإخوة، كلما أكثرت من ذكر الله قربك إليك: أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في أواخر سورة يوسف يقول الله عز وجل:

(رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١))

(سورة يوسف)

من أدق ما قاله المفسرون في معنى قوله تعالى:

(رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ)

لو توهمنا أن الملك هو ملك الدنيا، أن تكون ملكاً، هناك ملوك كثيرون، وهناك طغاة أكثر، أيّ طاغية قد يقول:

(رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ)

لكن المعنى الدقيق لهذه الكلمة: أن هذا النبي الكريم بلغ ما بلغه من الرفعة عند الله، لأنه ملك نفسه يوم راودته امرأة العزيز، لذلك قال بعض كبار المفكرين في أوروبة: ملكنا العالم، ولم نملك أنفسنا، فالإسلام مبني على ضبط الذات، بينما الحضارة المادية مبنية على السيطرة على الطبيعة، فرق كبير بين أن تسيطر على ذاتك فتضبط نفسك، وتستقيم، وتصدق، وتكون أميناً، وبين أن تكون ذكياً، فتخترع أجهزة كثيرة تسيطر بها على الطبيعة.

فكأن حضارة الإسلام أساسها ضبط الذات، أن يملك الإنسان نفسه، هذا النبي الكريم لأنه ضبط نفسه عندما دعته امرأة ذات منصب وجمال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف)

البطولة أن تضبط نفسك، أما أن تضبط المادة، هذا شيء يستطيعه كل إنسان درس، وتعلم، واخترع، وملك ناصية الدنيا.

(رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ)

أي ملكت نفسي عند الشهوة، من يملك نفسه عند الغضب، وعند الشهوة هو الذي حقق الهدف من وجوده، وهذا الامتلاك هو ثمن الجنة !

الحقيقة: هناك نص، وهناك تفسير النص، وقد يكون التفسير بعيد جداً عن قصد القائل، حينما يفهم الإنسان من قوله تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨))

(سورة الشمس)

حينما يتوهم أن الله ألهم النفس البشرية أن تكون فاجرة وقع في خطا عقدي كبير جداً، لكن ينبغي أن يفهم الآية على أن الله جبل هذه النفس جبلة تكشف الخطأ ذاتياً، ألهمها فجورها حينما تفجر، وألهمها تقواها حينما تتقي.

وبين أن تفهم الآية:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة)

هناك من يفهمها فهماً سطحياً، فيظن أن الله لم يشأ للبعاد الهدى.

(وَلَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

ولكن المعنى ليس كذلك، أنتم تدعون أن الخطأ الذي ترتكبونه من خلق الله، وهذا خطأ كبير، الخطأ من كسبكم، ومن اختياركم، ولو شئنا أن نجبركم على شيء ما لما أجبرناكم إلا على الهدى. آيات كثيرة وأحاديث كثيرة تفهم فهماً مغلوطاً، حتى لو أنك فهمت بعض الآيات على أنها تعني الجبر، هي لا تعني الجبر، ولكن تقاس على آيات محكمات تعني أن الإنسان مخير.
لذلك الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلت، فإذا قرأت قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

(سورة الرعد)

هذا هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، كقوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف)

هذا النبي الكريم فيه شيئان: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ

(رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ)

كل هذا الخير والإعزاز والرفعة التي تفضلت بها علي بسبب أنني ملكت نفسي عندما جاءته امرأة ذات منصب وجمال، وهي امرأة العزيز فراودته عن نفسه، قال تعالى:

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

لذلك هذه الشهوة إذا امتنعت عن جانبها المحرم ترقى، وإذا مارست جانبها المحلى ترقى، فبالشهوة ترقى مرتين، ترقى إلى الله صابراً، وترقى إلى الله شاكراً.

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ)

(سورة الأعراف)

الإنسان يفهم هذه الآية فهماً ما أراده الله، الفتنة الامتحان، يا رب إنك امتحنتنا من خلال هذا الامتحان ينجح أناس، ويرسب أناس.

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ)

لو رأيت كل الآيات التي قد يلتبس معناها على بعض الناس لوجدت لها معنى دقيقًا، ولكن الله جل جلاله أراد من خلال هذه الآيات أن يمتحن العباد، هناك من يحسن الظن بالله عز وجل، وهناك من يسيء الظن به، وحسن الظن بالله ثمن الجنة.

تماماً كما لو قلت لواحد: أعطِ فلانًا ألف درهم ونصفه، فالبخيل يفهم النص على أنه ألف ونصف درهم، والكريم يفهمه على أنه ألف وخمسمئة، فبينما تعيد الضمير على الألف، وبينما تعيد الضمير على الدرهم، هذا معنى قوله تعالى:

(مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

(سورة آل عمران)

أيها الإخوة، ملمح آخر: الحقيقة حينما قال الله عز وجل في سورة الرعد:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

(سورة الرعد)

قرأت مقالة لعالم من بلاد تؤمن أنه لا إله ! كتاب في الفيزياء يقول هذا العالم: لو أن الأرض تفلتت من جاذبية الشمس لاحتجنا إلى أن نعيدها إلى جاذبية الشمس لمليون مليون حبل فولاذي، وكل حبل قطره خمسة أمتار، يتحمل من قوى الشد ما يزيد على مليوني طن، معنى ذلك أن الأرض مرتبطة بالشمس بقوة جذب تساوي مليون مَليون ضرب مليوني طن، مليوني مليار طن !! هذه قوة جذب المس إلى الأرض، قال: كل هذه القوة من أجل أن تحرف الأرض ثلاثة ميليمترات كل ثانية حتى ترسم مسارًا مغلقًا حول الأرض، فدورة الأرض حول الشمس بسبب هذه الجاذبية، فتحتاج إلى ألفي مليار طن من أجل أن تحرف الأرض ثلاثة ميليمترات كل ثانية، لو أنها تفلتت لاحتاج إلى مليون مَليون حبل، قطره خمسة أمتار، لو زرعنا هذه الحبال في الوجه المقابل للشمس ما الذي يحصل ؟ أن بين كل حبلين مسافة حبل واحد، نحن أمام غابة لا تنتهي من الحبال الفولاذية، هذه الغابة تمنع البناء، وأشعة الشمس، وزراعة الأرض، والمواصلات، وكل شيء، لذلك قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

أي بعمد لا ترونها، من لطف الله عز وجل أن الأرض مرتبطة بالشمس بقوى تجاذب، لكن هذه القوة ليست مادية ليست حبال فولاذية، إنما هي قوى موجودة، لكن يمكن أن تخترقها، لو أنني علقت شيء بحبل فولاذي لا تستطيع أن تخترقه، لكن قدرة الله عز وجل كما لو وضعت قطعة حديد على ورقة، وتحت الورقة مغناطيس إن حركته تحركت هذه القطعة المعدنية، لكن لا يوجد اتصال مباشر، هذه القوى الجاذبية فيها لطف إلهي كبير.

هل تستطيع أن تنشئ بناء من عشرة طوابق من دون أعمدة إطلاقاً ؟ وهو أعلى من الأرض بخمسة أمتار ؟ مستحيل، لا بد من دعامات، هذا معنى قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

رفع السماوات بعمد لا ترونها، هي الآن قوى التجاذب، وهذا من الإعجاز العلمي، لكن النبي عليه الصلاة والسلام فسر بعض الآيات تفسيراً علمياً، وفرق كبير بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي، عندما كسفت الشمس، وصادف مع كسوفها موت إبراهيم عليه السلام ابن رسول الله فالصحابة الكرام لشدة محبتهم للنبي، وتعظيمهم له، وتقديرهم له، توهموا أن كسوف الشمس بسبب موت إبراهيم، هذا التفسير عاطفي، وليس علميًّا، لذلك وقف النبي وخطب في أصحابه، فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ))

(صحيح البخاري)

هذا التفسير علمي، كنت مرة في العمرة، وسمعت في مكة المكرمة أنه ينبثق من قبر النبي ضوء قدسي نحو أطباق السماء، سمعت هذا من أشخاص كثر في مكة، لما ذهبت إلى هناك، وقفت أمام أحد المدرسين، وهو يدرس، وقبل أن يختم درسه قال: اتصل بي أمير المدينة، وأخبرني بأن إدارة الحرمين جعلت أشعة الليزر فوق مقام النبي يخترق أطباق السماء، إرشاداً للطائرات التي تحلق حول المدينة المنورة، فهذا العمود من النور عبارة عن أشعة ليزر ! لكن فهم في مكة فهماً عاطفياً، والتفسير العلمي هكذا.

فالتفسير العلمي أن تربط النتيجة بالسبب، وتكون علاقة النتيجة بالمقدمة علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة.

أيها الإخوة، التفسير العلمي للآيات شيء، والإعجاز العلمي شيء آخر، الإعجاز العلمي إنسان يركب مركبة فضائية، فجأة يصبح الجو مظلماً، فيخاطب القاعدة الأرضية: لقد أصبحنا عمياً، ما

الذي حصل ؟ لما كانت هذه المركبة تخترق أطباق السماء ضمن طبقة الهواء، وهذه الطبقة تقترب من خمسة وستين ألف كيلو متر في الهواء، حالة فيزيائية اسمها انتثار الضوء، فحينما تنعكس أشعة الشمس على ذرات الهواء تعكس ذرات الهواء هذه الأشعة على بقية ذرات الهواء، فأنت في سماء الأرض ضمن الطبقة الهوائية ترى ضوءاً، ولو لم تر أشعة شمس، لكن بعد أن انعدم الهواء ألغي انتثار الضوء، وأصبح الجو مظلماً، تقرأ قوله تعالى:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥))

(سورة الحجر)

هذه الآية من آيات الإعجاز، لأنه لا أحد يعلم قديماً أن الجو بعد جو الهواء مظلم ظلامًا تامًّا.

أيها الإخوة،

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢))

(سورة الرعد)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٢٥-٦٤) : العمل الصالح

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، كما ترون، يعيش المسلمون محنة صعبة جداً، والله عز وجل يقول:

(وَقُلِ اعْمَلُوا)

[سورة التوبة: ١٠٥]

بعد الإيمان بالله، وبعد الاستقامة على أمر الله ليس شيء أعظم عند الله من عمل صالح تتقرب به إلى الله، لو أن كل مسلم له حرفة، له اختصاص، حصل درجة علمية معينة، فأراد أن يقدم شيئاً من اختصاصه، أو من خبرته، أو مما ميزه الله عز وجل لمسلم فقير، لو أن هذه الأعمال اتسعت، طبيب بإمكانه أن يعالج مرضى فقراء، والذي عنده مخبر بإمكانه أن يحلل لمرضى فقراء، مدرس الرياضيات بإمكانه أن يعلم بعض الطلاب الفقراء، أي إنسان له حرفة وله مصلحة بإمكانه أن يقدم شيئاً، يقول الله عز وجل:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠))

[سورة الكهف: ١١٠]

أي إن الإنسان لا يتألق عند الله، ولا يكون قريباً من الله عز وجل إلا إذا بذل مما أعطاه الله شيئاً. لفت نظري في مطلع هذا الشهر الكريم أن بعض الأخوات الكريمات يصنعن الطعام، وهن فقيرات، يتقاسمن ثمن الطعام، ويصنعنه، ويقدمن الطعام لأسر فقيرة، هذه الأخت الكريمة أدت الذي عليها، لا يوجد إنسان لا يوجد عنده اختصاص، أو حرفة، أو عنده ميزة، أو عنده شيء أكرمه الله به، لو أن كل واحد منا أراد أن يقدم شيئاً مما أكرمه الله به لأخيه المؤمن لكنا في حال غير هذا الحال.
مثلاً كم من إنسان بإمكانه أن يترجم، يوجد في كل مسجد عدد من المتخصصين باللغة الإنكليزية، لو ترجمت كتباً إسلامية إلى لغات أجنبية فهذا أفضل، كم من محامٍ في المسجد، لو أنهم اجتمعوا، وقرروا أن يأخذوا بعض الدعاوى لأناس فقراء مظلومين ؟ كم من مدرس لغة إنكليزية، كم من مدرس رياضيات، لغة عربية، لو تتبعت المهن التي يعيشها الناس لوجدت كل إنسان مسلم يتقن شيئاً، فإذا أخذ الإنسان قراراً أن يتقرب إلى الله بعمل ما فهذا أفضل.

هذا الكلام لا يعني أن الإخوة الكرام لا يقدمون شيئاً، يقدمون شيئاً قيماً جداً، ولكنه عمل مبعثر، ليس بعمل جماعي منظم، لو اجتمع الإخوة المحامون، وقرروا أن يعاونوا المظلومين من الفقراء، لو اجتمع الإخوة الأطباء أصحاب المخابر، أصحاب الاختصاصات اللغوية مثلاً، أصحاب الصناعات المعينة، لو أن إنساناً ميسورًا كفل طالب علم، لأن هذا ذخر للأمة، الجامعة أحياناً تستقبل

ألف طالب، ينجح ستة وثلاثين بالألف، فكل هذه النفقات الكبيرة من أجل ستة وثلاثين طالبًا تخرج، هم دعامات للأمة، فلو أن إنسانًا ميسورً تولى طالب علم لكان حالنا غير الذي نحن فيه.

كنت أتمنى من قبل أن إنساناً ميسورًا يقبل طالب علم أن يعمل عنده بنصف دوام، ويحتسب عند الله نصف الدوام الآخر، يتيح له أن يتعلم، وأن يقدم له شيئاً من جهده، فنال الأجر بعضاً من أجره على جهده، وبعضاً صدقة من الله عز وجل لهذا طالب العلم، أقول: إلى متى نستمع الدروس، ونتأثر ؟ يا أخي فكرة رائعة، تكلم بها الشيخ، لفتة لطيفة، ملمح بالآية رائع، إلى متى ؟ إلى متى نتأثر، ونستمع، ونثني على المتكلم، والمسلمون كما ترون عندهم مشكلات لا تعد ولا تحصى. والله أيها الإخوة الكرام، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، إنه متاح أمام كل واحد أن يعمل أعمالا صالحة لا تعد ولا تحصى بين أيدينا، حينما يرى الله عز وجل المدرس علم طالبًا فقيرًا، والصيدلي أعطى دواء لمريض فقير، طبعاً بتحقيق دقيق، وبمنهج، وبأصول، لا بشكل عشوائي، والمحامي دافع عن مسلم مظلوم، والذي عنده مخبر مثلاً عمل فحصًا لبعض المرضى الفقراء، أنا لا أنكر أن هؤلاء يقدمون دائماً، لكنه تقديم كيفي وعشوائي ومبعثر، أما لو تعاون كل أصحاب حرفة على حل مشكلات المسلمين لنجحنا.

أنا سمعت من أخ كريم أنشأ مجموعة عمارات خارج دمشق، وباع البيت بكلفته فقط، والضرائب تحملها هو، لأي إنسان فقير مؤمن يريد أن يؤوي إلى بيت، هذا عمل عظيم، أن تبني بناء، وتتحمل نفقات، وتتحمل جهداً كبيراً، ثم تبيع البيت بكلفته فقط، يكاد يكون الثمن إلى النصف تقريباً، قال لي: وتحملت الضرائب.

إنسان آخر سمعت عنه في ريف دمشق أنشأ بناء ضخماً، والبيوت كلها للإيجار لطلاب العلم، تاجر عمارة عنده آلاف الأعمال الصالحة، الطبيب المهندس، المحامي، المدرس، التاجر، الصانع، صاحب المعمل، الأعمال لا تعد ولا تحصى، لكن يجب أن نعلم أيها الإخوة أن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، وأن الله سبحانه وتعالى ربط عطاءه بالعمل الصالح، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً)

[سورة النحل: ٩٧]

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠))

[سورة الكهف: ١١٠]

أيها الإخوة الكرام، يقول لي أحد الإخوة: أنا متضايق، أصلي، لكن لا أشعر بحلاوة الصلاة، أقرأ القرآن الكريم، لا أشعر بحلاوة التلاوة، ما السبب ؟ أقول له: أنت لما استقمت سلمت، لكنك لم تسعد، أما العمل الصالح فيسعد المؤمن، أنت حينما تستيقظ، وفي همك أن تخدم إنساناً تقرباً إلى الله،

حينما تستيقظ، وتحرص على أن تحل مشكلة إنسان، عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

[متفق عليه]

أردت من بهذا الدرس الموجز أن أبين للإخوة الكرام أنه ما لم تعطِ، ما لم تبذل، دائماً الإنسان بالاستقامة يستخدم ما النافية، أنا ما أكلت مالاً حراماً، ما تكلمت كلامًا لا يرضي الله، ما اغتبت، ما فعلت كذا، الاستقامة عمل سلبي، امتناع، لكن الجنة تحتاج إلى عمل إيجابي، ماذا قدمت ؟ ماذا قدمت بين يدي الله عز وجل ؟

واللهِ لا أعتقد أن ثمة واحدًا منا، وأنا معكم يقدر أن يحدث شيئاً في المجتمع، وأقول لكم كلمة دقيقة: إن الشيء الذي قد يجريه الله على يديك قد لا يتناسب أبداً مع طاقاتك المحدودة، ولكن يتناسب مع نواياك الطيبة، فكم من إنسان أجرى الله على يديه الخير الكثير ؟ الصحابي نعيم بن مسعود كان من زعماء غطفان، وجاء ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو في الخيمة فكر، يخاطب نفسه هكذا، حوار ذاتي، يا نعيم، ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ أجئت لتحارب هذا الرجل الطيب، ماذا فعل ؟ سفك دماً، أم انتهك عرضاً، أم أكل مالاً، ماذا فعل ؟ فصحا: أين عقلك يا نعيم ؟ نهض، تحرك، وانتقل إلى معسكر النبي عليه الصلاة والسلام، ودخل على النبي الكريم، النبي فوجئ، قال: من ؟ قال: نعيم، ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال: جئت مسلماً، قال: مرني ماذا أفعل ؟ قال: أنت واحد، خذل عنا، هذا الصحابي الذي بلحظة تفكير دقيقة أسلم، واستطاع أن يوقع بين قريش واليهود، هو أحد أسباب النصر في معركة الخندق.

أنت حينما تتحرك، حينما تخرج من ذاتك، حينما تقول: يا رب، ماذا أفعل ؟ أنا أذكر لكم هذا المثل، مجند غر التحق بالخدمة الإلزامية، وهناك وحدة كبيرة جداً فرقة، وعلى رأسها لواء، وبين الجندي الغر واللواء عشرون إلى ثلاثين رتبة، وفي النظام العسكري لا يمكن لهذا الجندي أن يقابل اللواء إلا عن طريق التسلسل، ولا بشهر، من سبع نجوم إلى سبعتين، إلى ثمانٍ، إلى ثمانيتين، إلى نجمة، نجمتين، ثلاث، نجمات، تاج، أين أنت، وأين اللواء ؟ هذا الجندي الغر إذا رأى ابن اللواء يكاد يغرق، فأنقذه، بإمكانه أن يدخل إلى غرفة والده من دون أن يستأذن، ويستقبله، ويرحب به، ويجلسه إلى جانبه، ويأتيه بالضيافة، خلافاً للتقاليد العسكرية، لأنه عمل عملاً طيباً .

أنت حينما تريد أن تتألق مع الله اعمل عملاً اجعله خالصاً لوجه الله، وكل إنسان يملك شيئا، يملك خبرة، يملك مالاً، يملك علماً، يملك سلطة، أحياناً يملك شيا نادرًا أحياناً.

أتمنى أن يكون التقديم بشكل منظم، كل أصحاب حرفة يجتمعون، ماذا يمكن أن نعمل لخدمة المسلمين ؟ هذا عمل طيب، بلغني أن إنسان في ندوة شجع المترجمين، لترجمة مئات الكتب الإسلامية، اجتمع مئتا وسبعون مترجماً، وجلسوا، وترجموا عشرات الكتب للغة الأجنبية، حققوا شيئاً، فالإنسان وحده ضعيف، ابحث عن أخيك، المحامي الثاني، المحامي الثالث، كيف نحل مشكلة المظلومين.

حدثني أخ طبيب أسنان عندنا هنا، قال: جاءتني معلمة لإصلاح أسنانها، فلما سمعت بالرقم للتقويم بمبلغ كبير اعتذرت، قال: نويت أن أقوم بهذا العمل لوجه الله، هي معلمة، وحينما تبتسم تظهر أسنانها غير جيدة، أقسم لي بالله أنه خلال إصلاح أسنان هذه المعلمة عاش في جنة، لأن هذا العمل لوجه الله.

إذا كل واحد منا فكر بعمل لله، لا يبتغي منه سمعة، ولا ثناءً، ولا شكرًا، ولا تعليقًا، ولا تنويهًا بالجريدة، لوجه الله، قال تعالى:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (٩))

[سورة الإنسان: ٩]

إذا كان الإنسان يشكو من جفاف قلبه، يشكو من عدم تفاعله مع الآيات، مع الأحاديث فعليه بالعمل الصالح، ويدعم هذه الآية:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: ١١٠]

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، فكلما كبر عملك كبر مقامك عند الله عز وجل، لقوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: ١٩]

وهذا العمل الصالح عملة الآخرة، إنسان أحياناً يكون مليونيراً، يسافر إلى بلد تستخدم عملة خاصة أخرى، وهذه العملة التي يحملها لا قيمة لها، فكل نشاطك في الدنيا ينتهي عند الموت، ولكن العملة الرائجة يوم القيامة هي الأعمال الصالحة، فلعل الله عز وجل يطلع علينا فيرى هذا التعاون، وهذه الرحمة، وهذه الشفقة، وهذا الحرص.

والله هناك طبيب من إخواننا عاهد الله إذا عاد من اختصاصه من بلاد بعيدة يحمل البورد حتى يجمع الأطباء المؤمنين الذين لم يتح لهم هذه الدراسة العليا ليعلمهم ما تعلم، أنت حينما تخرج من ذاتك تكون عند الله عظيماً.

هذا الدرس إن شاء الله قال تعالى:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

[سورة التوبة: ١٠٥]

اعمل عملاً تبتغي به وجه الله، هذا الذي يرقى بك عند الله، هذا الذي يعود عليك من الله سكينة، تجد حلاوتها في قلبك، هذا معنى الثواب، الثواب من ثاب، أي رجع، أنت رفعت إلى الله عملاً خالصاً، الآن يعيد الله عليك من هذا العمل سكينة تسعد بها.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٢٦-٦٤) : حاجة الإنسان إلى العلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من لوازم المؤمن أنه على علم، ذلك أن مرتبة الإيمان مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية، وما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لذلك منزلة العلم إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح، مغلقة عنه أبوابها، وهذا إجماع العلماء.

ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق ونواب إبليس، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم.

الطرق كلها مسدودة على الخَلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نقصد بالعلم هنا العلم بالكتاب والسنة، هذا العلم الذي يحقق للإنسان السلامة والسعادة، من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

ويقول عالم آخر: مقيد بأصول الكتاب والسنة.

وقال بعضهم: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال، و كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء برسول الله فهو عيش النفس مع هوى نفسه، والدليل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: الآية ٥٠]

ومن عمل عملاً بلا اتباع سنة فباطل عمله.

وقال بعضهم: الصحبة مع الله بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم، ومع أولياء الله بالاحترام والخدمة، ومع الأهل بحسن الخلق، ومع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثماً، ومع الجهال بالدعاء لهم والرحمة، ومع الحافظين أي الملكين بإكرامهما واحترامهما، وإملائهما ما يحمدانك عليه، ومع النفس بالمخالفة، ومع الشيطان بالعدم.

ومن أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)

[سورة النور: الآية ٥٤]

العلم قائم، والخوف سائق، والنفس حرون، بين ذلك جموح، خداعة، رواغة فاحذرها، وراعها بسياسة العلم، وسقها بتهذيب الخوف يتم لك ما تريد.

الآن يوجد كلام يقال، أعتقد الآن هذه الأقوال قلت، من هذا الكلام غير الصحيح قولهم: نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت مباشرة، وأنتم تأخذونه من حي يموت، هذا كلام باطل.

وقال آخر، وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق ؟ فقال: وما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاق ؟ هذا ادعاء وكذب أنه يتلقى العلم من الله مباشرة، هذه للأنبياء فقط عن طريق الوحي، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إنما العلم بالتعلم، وإنما الكرم بالتكرم، وإنما الحلم بالتحلم))

[الطبراني]

هذا جهل، وكلام شيطاني، ولولا عبد الرزاق ـ نقصد علماء الحديث ورواة الحديث ـ لما وصل إلينا هذا الكم الكبير من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أحالك على غير أخبرنا وحدثنا فقد أحالك على خيال شاطح، أو على قياس فلسفي، أو على رأي نفسي، فليس بعد القرآن وأخبرنا إلا الشبهات، ومن فارق الدليل ضلّ عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة.

وكل طريق لم يصحبها دليل من القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم والشيطان الرجيم. أيها الإخوة الكرام، لا علم ينجي الإنسان في الدنيا إلا إذا كان مقتبساً من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله و سنة رسوله))

[النسائي]

الآن: يوجد موازنة بين العلم والحال، الإنسان أحياناً يشعر بحال طيب، والحال الطيب مرغوب فيه ومسعد، لكن هذا الحال العلم حاكم عليه، كل إنسان يحقق نجاحاً حتى في الدنيا يشعر بحال طيب، السارق حينما ينجح في سرقة بيت يشعر بحال، من الذي يُقيم هذا الحال ؟ العلم، هناك حال شيطاني، فالعلم حاكم على الحال، العلم خير من الحال، نفع الحال لا يتعدى صاحبه، ونفع العلم كالغيث يقع على الوهاد والآكام، فرق كبير بين الحال الذي لا يتعدى صاحبه والعلم الذي ينتفع به الناس جميعاً.

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة، ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبها، وربما ضاقت عليه، العلم هادٍ، والحال الصحيح مهتد به، العلم تركة الأنبياء، وأهله عصبتهم، وهو حياة القلوب، ونور

البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال.

به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السابقين، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب، هو إمام، والعمل مأموم، هو قائد، والعمل تابع، هو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه.

مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربى، وبذله صدقة، وبذله ومدارسته تعدل الصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب و الطعام.

قال بعض العلماء: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه، لأنه ما من حركة ولا سكنة إلا و لها حكم شرعي، إما أنه فرض، أو واجب، أو سنة مؤكدة، أو سنة غير مؤكدة، أو مستحسن، أو مباح، أو مكروه كراهة تنزيهية، أو مكروه كراهة تحريمية، أو حرام، ما من حركة ولا سكنة على وجه الأرض إلا ويغطيها حكم شرعي، فأنت بحاجة إلى العلم كما تحتاج إلى التنفس.

ويقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة.

يقول ابن وهب: كنت بين يد مالك رضي الله عنه فوضعت ألواحي، وقمت لأصلي فقال: ـ طبعاً قام ليصلي النافلة ـ فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما كنت عنه ؟

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم الآية:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ)

[سورة آل عمران: الآية ١٨]

وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، لذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المبطلين، العلم حجة الله في أرضه، ونوره بين عباده، وقائدهم، ودليلهم إلى جنته، ومدنيهم من كرامته))

[أحمد دون زيادة " العلم حجة...."]

وقد فضل النبي عليه الصلاة والسلام العلماء على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ سَلَكَ طريقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طريقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

[مسلم، الترمذي، أبو داود، ابن ماجه، أحمد، الدارمي]

طريق العلم طريق الجنة، والله عز وجل يقول:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (١١٤))

[سورة طه: الآية ١١٤]

الشيء الدقيق أن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً، هذا الدين دين علم، أي من ادعى أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبلغه بشيء يخالف سنته ترد الرؤيا، ويثبت الحديث، ديننا دين علم، ودليل، ومن لم يأت بالدليل ضل سواء السبيل، لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، وكل البدع التي دخلت على الدين بلا دليل.

لذلك أنت أمام كم كبير من المقولات والتصورات والأطروحات في الدين ما أنزل الله بها من سلطان، والدين الصافي المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله يتوافق مع الفطرة، وأية إضافة، أو أي تحوير، أو تبديل، أو حذف نهايته إلى الإخفاق، لما أضفنا على الدين ما ليس منه تفرقنا، ولما حذفنا من الدين ما هو منه ضعفنا، العالم الإسلامي الآن بأسه بينه، لأنه فرق وطوائف وشيع، وكل فرقة تكفر الأخرى، حينما أضفنا على الدين ما ليس منه تفرقنا، وحينما حذفنا من الدين ما هو منه أصبحنا في مؤخرة الأمم.

هذا الدين لا يقبل الإضافة، ولا الزيادة، ولا التعديل، ولا التغيير، ولا التطوير، ولا الحذف، لأنه دين الله.

إن أردت أن تجدد فيه فالتجديد في الدين أن تنزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٢٧-٦٤) : السكينة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٨-١٠-٢٠٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، هناك ما يسمى بعلم النفس الإسلامي، فالإنسان له نفس سواها الله عز وجل بخصائص معينة، قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨))

(سورة الشمس)

شاءت حكمة الله عز وجل أن يكون الإنسان ضعيفاً، وأن يكون هلوعاً، وأن يكون عجولاً، هذه نقاط الضعف الثلاث تجعل الإنسان يضطرب إذا نزلت نازلة، أي إنسان حينما يقلق على رزقه، أو على صحته، أو على أهله، أو على أولاده يضطرب أشد الاضطراب، وهذا الخوف والاضطراب لا ينجو منه أحد، حتى الأنبياء.

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ)

(سورة القصص الآية: ٢١)

ويبدو أن هذا الخوف باعث كبير جداً إلى الله، فلا شيء يدفعنا إلى الله كأن نخاف، والخائف يحتاج إلى ملاذ، إلى ركن ركين، إلى قوي يستعين به، إلى عظيم يستظل بظله، إلى غني يغتني به، فطبيعة النفس البشرية أن فيها نقاط ضعف ثلاث، والآيات تشير إلى ذلك

(الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

(سورة المعارج)

من حكمة الله أيضاً أن الله ثبت مليارات الأشياء في حياتنا، الشمس تشرق كل يوم، ليس هناك قلق إطلاقاً على عدم إشراقها، بل بإمكانك أن تحدد بعد ألف عام في اليوم الفلاني متى تشرق، ثبات مذهل، هذه الساعة التي بأيدينا، والتي نضبطها على أدق ساعة في العالم، أدق ساعة في العالم تضبط على مرور نجم، فالله عز وجل ثبت حركة الأفلاك، ثبت خصائص المواد، تبني بناء شامخًا، تضع في البناء الحديد، لو أن الحديد يبدل خصائصه لانهار البناء، خصائص الحديد ثابتة، الذهب ثابت، تشتري ذهب بالملايين، لو أنة تبدل خصائصه، ويصدأ بالماء بعد حين لذهبت كل هذه الملايين سدى، إذاً ثبت لك خصائص المعادن، وخصائص المواد، وثبت البذور، تزرع الفستق فيكون المحصول فستقًا، لكن لو زرع الإنسان شيئًا، وكان المحصول شيئًا آخر لأصبح في اضطراب، لو تتبعت الأشياء الثابتة، القوانين المضطربة في حياتنا لوجدت العجب العجاب، كل

شيء ثابت، هذا الثبات يدعو إلى الاستقرار، وثبات النظام، والطمأنينة، فالقوانين الثابتة تعينك على التنبؤ، لولا القانون الثابت لما كان هناك تنبؤ، كما ترون من استقرار الحياة بسبب ثبات القوانين، ثبات الخصائص، المعادن، وأشباه المعادن، والمواد، والأغذية، والنباتات، كل شيء له قانون ثابت.
الآن الاستثناء، الله عز وجل لحكمة بالغةٍ بالغة حرك الصحة والرزق، فالصحة متبدلة، والرزق متبدل، وحرك استقرار الأرض، يأتي زلزال فجائي، فينهار البناء الشامخ الذي كلف مليارات، والذي تم إنشاؤه في بضع سنوات ينهار في ثوانٍ، الذي حركه لحكمة بالغة، والذي ثبته لحمة بالغة، الذي حركه من أجل أن يربينا، جعلك ضعيفاً، وحرك الصحة والرزق والمكان، فالإنسان بصحته تحت ألطاف الله عز وجل.

من عجيب الصحة أن الإنسان يغادر الدنيا لأتفه سبب، يقول لك: احتشاء، يقول لك: ما به شيء، يقول لك: سكتة دماغية، وأحياناً يكون الإنسان طريح الفراش ثلاثين سنة ولا يموت، فالصحة متبدلة، والرزق متبدل، جفاف، جفاف سنوات طويلة، النبات يموت، الحيوان يموت، الإنسان يغادر، يسيح في الآفاق، فهذا التحريك من أجل تربية الإنسان.

الآن جاء موضوع الدرس، موضوع الدرس السكينة، فالإنسان حينما يضطرب حينما تأتي جائحة، حينما تأتي كارثة كبيرة جداً، المؤمن له معاملة خاصة،

(الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

هكذا خلقه الله، أقوى إنسان في الأرض لو أطلعته على تقرير طبي أن فيه ورماً خبيثاً تجده برك.

(الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

أي إنسان، كل إنسان يقلق أشد القلق على صحته، وعلى ماله، وعلى أهله، وعلى أولاده، فهذا القلق الشديد يقابله عند المؤمنين سكينة، والشيء الذي يلفت النظر أن الإنسان مهما كان قوياً، لو أن بيده مقاليد الأرض كلها، لو أن الخمس قارات بيده يقلق أشد القلق، بل هو أشد الخلق خوفاً إذا كان مشركاً، هناك قانون الخوف.

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية: ١٥١)

والمؤمن يقابل الرعب بالسكينة، تجد الأخطار محدقة به من كل جانب، السيوف مسلطة عليه، ومع ذلك فهو مطمأن لوعد الله.

فمن لوازم الإيمان السكينة:

(الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

لكن لئلا يتوهم الإنسان أن أي مصلٍّ توضأ، وصلى صار في سكينة ؟ لا، أنا مضطر إلى قاعدة فلسفية:

إن الصفة قيد، اكتب كلمة إنسان، هذه تغطي ستة آلاف مليون، ضف كلمة واحدة، إنسان مسلم، مليار وثلاثمئة مليون، من ستة آلاف مليون إلى مليار وثلاثمئة مليون إنسان مسلم عربي، عشرون مليون إنسان مسلم عربي مثقف، مليونا إنسان مسلم عربي مثقف طبيب، إنسان مسلم عربي مثقف طبيب قلب، عشرة آلاف، إنسان مسلم عربي مثقف طبيب قلب جراح، خمسمئة، كل ما تضيف صفة تضيق الدائرة الآن اسمع الآية:

(الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١))

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥))

(سورة المعارج)

ليس أي مصلٍّ يستحق السكينة، الذي توافرت فيه كل هذه الشروط، يستحق السكينة.

إخواننا الكرام، لا أعتقد في عصر أصاب المسلمين بمحن كهذا العصر، طبيعة هذا العصر فوق كل إنسان، مليون سيف مسلط، أحيانا تركب مركبتك، إنسان بالمقابل تأخذه سنة من النوم، فيدخل في المركبة الأولى، قد يقطع النخاع الشوكي، فيصاب بالشلل الدائم، حوادث سير، قضية في القلب، قضية في نمو الخلايا، قضية فشل كلوي، قضية تشمع الكبد، هناك أمراض وبيلة تجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، وهناك مصائب في الأهل والأولاد والبيت والتجارة، والمال، مستودعات احترقت كلها، فهذا القلق الشديد من جهة الأهل، من جهة الأولاد، من جهة المال، من جهة الصحة، ما الذي يغطيه عند المؤمن ؟ السكينة، ولنقرأ الآيات، السكينة وردت في خمس آيات في كتاب الله، قال تعالى:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة التوبة الآية: ٢٦)

السكينة ؛ الطمأنينة، السكينة ؛ السكون:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

المؤمن متميز بالسكينة، الله عز وجل يلقي في قلبه السكينة، فهو في هدوء، في سكون، في رؤية صحيحة، في اعتماد على الله، الآية الثانية:

(إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

(سورة التوبة الآية: ٤٠)

الإسلام كله منوط بالغار، فإذا اقتحموا الغار، وقتلوا النبي عليه الصلاة والسلام وصاحبه أخذوا مئتي ناقة، كل ناقة بمليون ليرة تقريباً، في هذا الوضع الحرج الإسلام كله مبني على أن يروا من بالغار، أو لا يروه، قال له: لو نظر أحدهم إلى موطأ قدمه لرآنا، وفي قول آخر لقد رأونا، قال له:

((يَا أبا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ باثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا))

[أخرجه البخاري عن أبي بكر]

ألم تقرأ قول الله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨))

(سورة الأعراف)

(إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)

(سورة التوبة الآية: ٤٠)

الآية الثالثة:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤))

(سورة الفتح)

الآية الرابعة:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨))

(سورة الفتح)

الآية الخامسة:

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الفتح الآية: ٢٦)

لكن هناك تعليق هذه السكينة، متى نزلت ؟ يوم الهجرة، ويوم حنين، ويوم الحديبية، وكان عليه الصلاة والسلام يوم الخندق، الخندق حرب إبادة، الخندق الإسلام كله بكل المؤمنين قضية ساعات،

حتى إن أحد الذين كانوا مع رسول الله يقول: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟ كان عليه الصلاة والسلام ينقل تراب الخندق حتى وصل التراب إلى جلدة بطنه، وهو يقول:

اللَّهُمَّ لَوْلا أنْتَ ما اهْتَدَيْنا وَ لا تَصدَّقنا وَلا صَلَّيْنا

فأنْزِلَننْ سَكِينَةً عَلَيْنــا وَثَبِّتِ الأقدَام إنْ لاقيْنــا

إنَّ الألى قدْ بَغوْا عَلَيْنــا إذا أرَادُوا فِتْنَةً أبَيْنـــا

[رواه سلم بن إبراهيم عن البراء]

أيها الإخوة، نحن في أمسّ الحاجة إلى السكينة، نحن في أمسّ الحاجة إلى الدعم من الداخل، نحن في أمسّ الحاجة إلى وقار، إلى هدوء إلى عمل هادئ، وهذا يحتاج إلى اتصال بالله عز وجل، لا تنسوا هذه الآية:

(الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

المصلي الحقيقي ينزل على قلبه من السكينة ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٢٨-٦٤) : سورة مريم من الآية (٢) إلى الآية (٦)

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من منطلق أن لكل ظرف ولكل وقت ولكل عصر عبادة تتميز عن بقية العبادات، فلو أن عدواً اقتحم البلاد تأتي عبادة الجهاد في الدرجة الأولى، لو أن الجهل شاع بين الناس تأتي عبادة تعليم العلم في الدرجة الأولى، لو أن هناك فقراً مدقعاً سرى بين أفراد الأمة فكسب المال الحلال، وتوفير فرص عمل للمسلمين وحل مشكلاتهم تكون أول عبادة، من منطلق الآية الثانية من سورة مريم حيث، يقول الله عز وجل:

(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً (٥))

(سورة مريم)

سيدنا زكريا مع أنه نبي كريم، ومع أنه عند الله في مكان علي، لكن فكر فيما بعد حياته، من الذي يتابع هذه الدعوة بعد حياته ؟

من هذا المنطلق أرى أن كل إنسان وفق إلى عمل، إما في دعوة، أو في عمل من أعمال الدنيا المشروعة، جمع خبرات عالية جداً ينبغي أن يهيئ من يتابع هذا العمل من بعده من قبيل حمل هموم الأمة، فهذا النبي الكريم قال:

(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً (٥) يَرِثُنِي)

حينما يفكر الإنسان في الذي سيأتي بعده لا بد من أن يهيئ، ويخطط، طبعاً الكلام عام، قد يكون داعية يجب أن يهيئ عدداً معقولاً من الدعاة من بعده، على نسقه ومنهجه وعلى الأسلوب الذي كان يتبعه.

أيضاً هذا الموضوع أثير مرة، أحد الإخوة الكرام يدير مؤسسة ضخمة، وهناك خير كثير يعود على المسلمين من هذه المؤسسة، وله ابن، أقنعت الابن أن ألف إنسان يحلون محلك في الطب، أما هذه المؤسسة إذا توفي والدك تنتهي، فأن تكون مع الوالد في إدارة هذه المؤسسة أفضل بكثير، فدائماً الإنسان ينبغي أن يفكر في مستقبل الأمة، المشكلة أن الدول القوية الآن في المقياس العصري تخطط لمئة سنة قادمة، وأنا أقول لكم: إن كل الذي يجري على الساحة مخطط له من عشرين أو ثلاثين سنة، قد تأتي بعض الأحداث لتسرع، لكن هذا الذي ترونه الآن مخطط له قبل أحداث الحادي

عشر من أيلول، دائماً الإنسان الغبي يعيش الماضي، والأقل غباء يعيش الحاضر، والأقل غباء يعيش المستقبل.

مثلاً: الإنسان حينما يفلح في إلقاء الدروس فرضاً، إذا أعجبته نفسه فهو من شهوة العلم، أما إذا أعجبه الذين رباهم على شاكلته فهذا من إخلاص العالم، كل واحد منكم إذا تفوق في ناحية، ولا أحدد لو تفوق في عمل دنيوي مشروع، لكن يعود بالخير على المسلمين.

الإسلام ليس صلاة وصومًا، النبي عليه الصلاة والسلام من أدعيته:

((اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مدنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر))

معنى ذلك لا بد من صلاح الدنيا وصلاح الآخرة، لأن الحياة الدنيا قوام حياتنا، والإنسان حينما يسعى لتقوية أمته ربما رأى في المستقبل ما يسره.

الإنسان لا ينبغي أن يعيش مشكلته فقط، ولا أن يعيش نجاحه فقط، ينبغي أن يجعل هذا النجاح ينسحب على من حوله من أجل أن تستمر الحياة هكذا، هذا الكلام يلخص بكلمة في العالم الغربي اسمها العمل المؤسساتي، النظام أقوى من الأشخاص، فالأشخاص يأتون، ويذهبون، والعمل قائم بدقة بالغة، والأهداف محققة، والوسائل واضحة.

أنا أدعو كل أخ أن يخطط لأبنائه إذا كان يملك حرفة تفوق فيها، أو عمل تجاري، أو عمل صناعي، أو عمل زراعي.....

مرة أحد الطلاب جمع علامات تزيد على مئتين وثلاثين علامة في الشهادة الثانوية، وأهل الدنيا كلها يريدون الطب على أنه أعلى حرفة، فالتقيت بهذا الطالب سألته: في أي فرع سجلت في الجامعة ؟ قال الزراعة، أنا الحقيقة فوجئت، مع أن الزراعة تحتاج لمئة وخمسين علامة، قال: لأن والدي عنده أراض كثيرة جداً، من يديرها من بعدي ؟ أنا أولى، فالمسلم ينبغي أن يخطط لأولاده، وللمسلمين، وللمستقبل.

دائماً الإنسان الغبي ـ مرة ثانية، يعيش الماضي قال الشاعر:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمر بن كلثوم

دائماً نتغنى بالآباء والأجداد والعرب في مطلع نهضتهم.

ومرة وجدت إنسانًا يتحدث كثيراً عن أبطال عظام عاشوا في حقبة سابقة، قلت له: والله هذا هروب من الواقع، يجب أن يكون في حياتنا المعاصرة أبطال متفوقون، هذه الكلمة تركت في نفسي أثراً كبيراً، قال تعالى:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً (٥) يَرِثُنِي)

كل إنسان ينبغي أن يدعو الله عز وجل إذا وفقه الله في عمل أن يستمر هذا العمل، والحقيقة أن الإنسان مفطور على حب وجوده، وسلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، واستمرار وجوده، فالإنسان يحب أن يستمر، ولا يوجد طريق للاستمرار إلا الأولاد، فنحن حينما نعتني بأولادنا، ونخطط لهم حرفة إن كنا تفوقنا في الحياة الدنيا ينبغي أن يتابعوا بهذه الحرفة، حتى يكون المسلمون في خير.

من اللطائف في موضوع العبادة أن هناك عبادة الهوية، أنت من ؟ أنت قوي، العبادة الأولى إحقاق الحق، أنت غني، العبادة الأولى إنفاق المال، أنت عالم، العبادة الأولى تعليم العلم، أنت امرأة، العبادة الأولى رعاية الزوج والأولاد، هذه معروفة ذكرتها كثيراً، ولكن هناك عبادة الظرف، ظرف المسلمين الآن ليس بيدهم، التقنية العالية جداً، فإذا حصل إنسان علماً ينفع به المسلمين ينبغي أن يعمم هذا العلم.

طالب من طلابنا أحد الإخوة الكرام، ذهب لبلاد الغرب لينال شهادة البورد في الطب، قال لي كلاماً والله لا أنساه، أقسم بالله أمامي أنه إذا عاد لهذا البلد سالماً غانماً سيعلم كل من حوله من الأطباء الذي تعلمه هناك ! ليعم النفع على المسلمين، الآن: الوضع يحتاج إلى صحوة وتعاون. كلمة مؤلمة جداً، في العالم الغربي بأميركا اليهود ستة ملايين، لكن بتعاونهم الذي يفوق حد الخيال، أمسكوا بزمام الأمور في هذا البلد العملاق، والمسلمون عشرة ملايين لعدم تعاونهم ليس لهم وزن في تلك البلاد.

النقطة الدقيقة أن الطبيب هناك أمامه خياران، إما أن يفتح عيادة خاصة، وإما أن يعلم في الجامعة، العيادة الخاصة دخلها تقريباً عشرة أضعاف العمل في الجامعة، إلا أن العمل في الجامعة بيده قبول الطلاب الجدد، البورد بيد من يعمل في الجامعة.

الأطباء المسلمون اختاروا العيادات الخاصة، وعزلوا عن الجامعة، والطائفة القوية هناك اختارت العمل في الجامعة والدخل عشر، لكن الآن لا يستطيع طالب مسلم أن يصل إلى هذه الشهادة، الأبواب كلها أغلقت، أرأيتم كيف أن الطوائف الأخرى تعمل بتخطيط كبير جداً ؟

فالذي أتمناه عليكم أن هذه بلادنا، وهذه أمتنا، وهؤلاء المسلمون أحياناً أنا أنظر إلى الصغار، والله أتألم، لا أدري ما مستقبلهم، هل يتاح لهم أن يعملوا، هل يكونون أجراء عند الأقوياء ؟ هل يتاح لهم أن يعيشوا، ويتزوجوا ؟ الأب العاقل لا ينظر إلى واقعه هو إلى واقع أولاده.

فلذلك هذه الآية ينبغي أن تكون باعثاً لنا على أن نعتني بأولادنا، وننقل خبراتنا إلى من بعدنا على مستوى الدعوة إلى الله، على مستوى العلم الشرعي، أو العلم المادي، أو على مستوى الحرف، أو الصناعات، لأن اليوم عبادة العصر نحن متخلفون عن ركب الحضارة.

وأشد الألم أننا متخلفون عن روح العصر ومتخلفون عن ديننا، يوجد تخلف مزدوج.

ما الحل ؟ كل واحد يخطط لأولاده، ولم يبق في أيدينا ورقة رابحة إلا أولادنا، ويكاد يكون الآن العمل الفردي مستحيلا، ولا يوجد حل إلا بالتعاون.

قال طبيب لي: عمل عيادة فيها عشرة أطباء، شيء يلفت النظر !! متعاونون متفاهمون، يدخل المريض في هذا البناء فيجد كل الاختصاصات، هذا شيء يبعث على الفرح والتفاؤل، فكل إنسان يجب أن يتعاون.

بقيت نقطة دقيقة أتمنى أن تكون واضحة عندكم: أحياناً أتكلم كلام، وألقي توجيهات، لكن لا أسمع رد فعل لهذه التوجيهات إطلاقاً، فوجئت أن بعض التوجيهات التي وجهتها في بعض الدروس انقلبت إلى سلوك، وأعمال طيبة جداً، فحبذا إذا سمع إنسان توجيهًا، وترجمه لعمل لو أخبرني يعطيني حماسًا لي وتشجيعًا، يجعلني أشعر أن هذا الكلام لا يلقى بلا فائدة، الدليل: فيما ورد في الأثر أن أحداً كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر رجل قال:

((والله يا رسول الله إني أحبه قال: اذهب فأخبره أنك تحبه))

(البخاري)

إذا سمعت نصيحة في درس، وتأثرت بها تأثرًا بالغًا، وبلغتها لمن ألقى هذه النصيحة أنني استفدت من هذه النصيحة، وفعلت كذا هذا يعطي المتكلم حماسًا كبيرًا، وشحنة ليتابع الاهتمام بمن حوله. لكن أحياناً الإنسان يضن على من ألقى عليه بعض التوجيهات أن ينبئه بعض الإنجازات، المتكلم ماذا يرى ؟ استماعًا، استماعًا، استماعًا، لا يوجد حركة !!!!!

حدثني أخ كان في أميركا قال: إذا طبق أحدنا بعض المناهج الدينية، وتألق تألقًا شديدًا يدعى فيلقي كلمة لإخوانه عن أنه طبق هذا المبدأ، وحقق نتائج كبيرة.

أنا والله بنفسي أن أي أخ من إخواننا الكرام إذا كان طبق آية أو حديثًا، ووجد نتائج باهرة من خلالها أن أدعوه ليلقي عليكم هذه التجربة المتواضعة التي مر بها.

أحياناً تكون التجارب رائعة جداً، وأنا أقول لكم هذه الكلمة: الذي يشد الناس إلى الدين ليس الفكر الديني فقط، مع أنه فكر متألق جداً، الذي يشد الناس على الدين النجاح العملي الذي يحققه الإنسان في سره إلى الله عز وجل.

فأرجو أن تكون هذه الآية في سورة مريم باعثًا لنا جميعاً، على أن نخطط للمستقبل، لا أن ندمن السماع والتلقي، بل ينبغي أن نلقي، ونفعل شيئاً، ولا أحد في الأرض يمنعك أن تكون متفوقاً، وأن تعتني بأولادك، وأن يكونوا خلفاء لك من بعدك.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٢٩-٦٤) : العدل والإيمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في سورة الأنبياء آية، هي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥))

[سورة الأنبياء]

وكأن هذا قانون إلهي، من هم الصالحون ؟

أيها الإخوة، الدنيا لها نظام، والآخرة لها نظام، تماماً كهذه الساعة الرقمية، والساعة البيانية، هل يمكن أن تأخذ قطعة من هذه الساعة إلى هذه ؟ مستحيل، هذه لها نظام، وتلك لها نظام، الدنيا لها نظام، والآخرة لها نظام، العباد الصالحون هم الذين استثمروا ثرواتها، وحلوا مشكلات الناس، وأقاموا العدل فيها، لذلك الدنيا شيء، والآخرة موضوع آخر، الدنيا تصلح بالعدل والكفر، ولا تصلح بالإيمان والظلم، الإنسان أحياناً أمام ظاهرة يحتاج إلى أن يفسرها، هؤلاء الذين لا يملكون ذرة من إيمان هم أقوى أقوياء الأرض، متحكمون في كل خيرات الأرض، وأمرهم نافذ، وثقافاتهم معممة على كل ثقافات الشعوب، كيف نفسر ذلك ؟ هناك قوانين، الإنسان الأصلح للدنيا يتحكم بالدنيا، الذي يؤمن فرص عمل، الذي يقيم القانون فوق الجميع، ليس هناك تفرقة، الذي يضمن للناس حاجاتهم وطبابتهم ودخلهم، وتعويض بطالتهم، يجب أن تفهم الذي يصلح لإدارة الأرض هو القوي، لا يعقل أن إنساناً يعمل في اليوم ثماني ساعات كاملة، وإنسان آخر يعمل سبع عشرة دقيقة، تكون هذه الأمة تكون ضعيفة، والثانية قوية، الذي يعمل شعبها ثماني ساعات كاملة هي أقوى من أمة يعمل شعبها سبع عشرة دقيقة في اليوم.

ليس معقولاً أن شركة واحدة تعداد موظفوها أربعون ألفًا دخلها يساوي دخل أمة تعداد سكانها سبعين مليونًا، الذي يعمل أكثر يغتني أكثر، والذي يغتني أكثر يقوى أكثر، فالأرض لها قوانين، وأنت إن لم تحترم هذه القوانين تصبح في مؤخرة الأمم، هذا الموضوع ليس له علاقة بالدين، هذه الدنيا لها قوانين، لكن المؤمن مطلوب منه أن يكون خليفة الله في الأرض، وأن يعمر الأرض، فإذا قصر في هذا فإيمانه محفوظ عند الله، لكنه لا يستطيع أن يسيطر.

من أجل أن نفهم ماذا يجري الآن، حينما يكون القانون فوق الجميع، وحينما يكون العمل دؤوباً، وحينما توضع موازين دقيقة لتقييم الناس، هؤلاء الذين لا يعترفون على الأديان، يفعلون هذا هم

أقوياء الآن، والذين يأخذون الدين وحده، ويهملون أمور دنياهم، ولا يعملون، ماذا قال الله عز وجل؟

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥))

[سورة الأنبياء]

فإن كان المؤمن صالحاً لإدارة الأرض استخلفه الله فيها، قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور: الآية ٥٥]

فإن اكتفى المؤمن دون أن يفعل شيئاً، وكان كسولاً، ولم يحقق خلافة الله في أرضه، ولم يعمر الأرض لا يستطيع أن يكون قوياً، يدفع ثمن تقصيره، يبدو أن الدنيا أساسها السعي، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

[سورة الانشقاق: الآية ٦]

الآخرة أساسها التكريم قال تعالى:

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ)

[سورة النحل: الآية ٣١]

الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، الدنيا دار تكليف، والآخرة دار تشريف، يجب أ ن نفهم لماذا هؤلاء الغربيون أقوياء ؟ ليس معنى ذلك أن الآخرة لهم، لا الآخرة لها نظام آخر، الآخرة أساسها الإيمان والاستقامة والعمل الصالح، إن أردت أن تضغط الدين كله في كلمات ثلاث، إيمان، استقامة، عمل صالح، هذه بضاعة الآخرة فمن كان مؤمناً، واستقام على أمر الله، وعمل صالحاً، ولكن لم يكن صالحاً لإدارة الدنيا فلن يكون خليفة الله فيها، ولن يستخلف فيها، فإن أردتم أن تكونوا أقوياء فينبغي أن تكونوا صالحين لإدارة الدنيا.

الإنسان الذي يسافر إلى بلاد بعيدة شرقاً وغرباً، هناك مليون دليل عن أسباب قوتهم، حينما يتعاون المجتمع على ضمان صحي لكل الناس، أي إنسان يدخل مستشفى يجري أغلى عملية مجاناً، هذا حق المواطن، حينما تؤمن الأعمال لكل الناس، تعويض بطالة مؤمَّن لكل الناس، قد لا تجد فقيراً، أحياناً هذه الصفات التي يتمتع بها إنسان أنكر أديان كلها، لكنه كان صالحاً لإدارة الأرض، إذاً هو يستخلفه الله فيها، هكذا نظام الأرض إن جمعت بين الإيمان والاستقامة والعمل الصالح، وأن تكون خليفة الله في أرضه استخلفك الله عز وجل.

سيدنا عمر عين والياً، وامتحنه، قال: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ فقال: أقطع يده، فقال له: إذاً إذا جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه

الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها في الطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

لا أريد أن أجعل هذا الدرس مدحاً لهؤلاء، لكن شئنا أم أبينا عندهم تفوق اجتماعي، وضمانات للمواطنين، وعندهم القانون فوق الجميع، وعندهم أشياء إيجابية، أكاد أقول: إن كل إيجابياتهم إسلامية، لأنهم يعبدون المال فقط، هم لا يعبدون الله أبداً، يعبدون المال، لكن إيجابياتهم إسلامية، بل إن هذا النظام الإسلامي العظيم لو جاء ملحد، وطبقه لقطف ثماره، لو جاء ملحد ينكر وجود الله، وطبق النظام الإسلامي لنجح، لأن الإسلام أعطى الإنسان حاجته، أعطى الإنسان ما يكفيه من طعام وشراب وثياب وطبابة، لذلك الإنسان حينما تعطيه حاجاته، وتعطيه حريته وكرامته يعطيك نفسه كلها، أنا هذا الذي رأيته حينما سافرت، قوتهم لها أسباب، هم في حقنا مجرمون، لكن في حق شعوبهم عادلون، لذلك قال أحد العلماء، وكلما سافرت إلى تلك البلاد هذه الكلمة ترن في أذني: إن الله ينصر الأمة الكافرة العادلة على الأمة المسلمة الظالمة، توفير فرص عمل شيء مهم جداً أيها الإخوة، أن يكون التشريع فوق الجميع، ليس أحد فوق التشريع، كل الناس تحت التشريع، هذا الذي يقوي الأمة.

مر معي حديث، صدقوا أيها الإخوة، أبعاده كبيرة جداً ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ الْحَضْرَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((تُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ))

[النسائي، الترمذي، أبو داود، أحمد]

أنت قوي، وهناك شخص ضعيف تحت سلطتك، وبإمكانك أن تسحقه، وبإمكانك أن تتجاهل حاجاته، وبإمكانك أن تهمله، وبإمكانك أن تعتم عنه، وبإمكانك أن تلغي وجوده، هذا الضعيف أعطيته حقه، وكرمته، الآن الله عز وجل سيكافئك بمكافأة من جنس عملك، سينصرك على من هو أقوى منك،

((تُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ))

هذا المعنى التوحيدي.

هناك عنى آخر، هذا الضعيف حينما تعطيه حقه، تعطيه طعامه وشرابه وكساءه وطبابته، تعطيه ما يربي أولاده، ويطعمهم، ويفرحهم، هذا الضعيف حينما تعطيه حقه يصبح ولاؤه لك، يصبح المجتمع قوة لا يمكن أن تخترق، أما حينما يكون هناك خلل داخلي، فاختراق هذا المجتمع سهل جداً.
أيها الإخوة الكرام، ملمح آخر، لما أرسل النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة ليقيّم تمر خيبر أراد اليهود أن يغروه بحلي نسائهم كرشوة، فقال هذا الصحابي الجليل: جئتكم من عند أحب

الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا.

إنسان يقبل معك، وأنت صاحب معمل بأربع آلاف في الشهر، وأجرة الطريق ألف ثلاثة آلاف، ماذا يفعل بها ؟ وأنت تنفق في اليوم مئة ألف، ليس معقولا، فحينما نظلم بعضنا بعضاً لا نستحق نصر الله عز وجل، حينما يأكل الأب ما يشتهي في المطاعم الأب، وليس في البيت طعام فهذا أب ظالم، وحينما نظلم بعضنا بعضاً لا نستحق أن ننتصر، فقال اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا.

أنا الآن عندي شعور أن الكلام انتهى، نريد عملاً، إذا كنت تقدر في عملك أن ترعى من تحت يدك رعاية كاملة، أن تعطيهم حقهم، أن تعطيهم كرامتهم، تكون هذه المؤسسة كتلة متماسكة، لذلك أكثر المؤسسات في العالم الغربي تنمو بشكل عجيب السبب ؟ حينما أعطوا الموظفين حقوقهم الكاملة، ودخلاً يليق بكرامتهم الإنسانية هذا الموظف بقي معها، وكبر معها، أما حينما يقبل بدخل أقل من حاجته مضطراً إلى أن يتاح له فرصة أخرى يترك، فكل موظف في مكان ما، في قيادة حكيمة، كمعمل، أو مشروع، فرضاً، دائماً يفكر بالترك، إذاً ليس هناك نمو، متى ينبغي أن نفكر تفكيراً سليماً ؟ الآن هذه الدنيا أمامكم، نحن ضعاف، ونحن مستهدفون، وهناك من يحيك للمسلمين المؤامرات التي تزول لهولها الجبال، فإما أن نتبع قوانين الله عز وجل في أن نكون أقوياء، ونكون أقوياء إذا رحمنا ضعفاءنا، نكون أقوياء إذا أعطينا كلاً حقه، وأعطينا كلاً ما يليق به: لذلك:

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥))

[سورة الأنبياء]

من أدق تفسيرات هذه الآية: أنهم صالحون بإدارتها فقط، بعيداً عن دينهم، الدين بالآخرة، لذلك يقول أحد العلماء: الدنيا تصلح بالعدل والكفر، ولا تصلح بالإيمان والظلم.

هذا الملِك الذي كان سيدنا يوسف رئيس وزراءه هل استطاع سيدنا يوسف، وهو رئيس وزراء أن يحتجز إخوته من دون دليل ؟ لم يستطع، قال تعالى:

(مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ)

[سورة يوسف: الآية ٧٦]

دين الملك لا يسمح له أن يحتجز إنساناً من دون دليل، أو من دون بينة، فاخترع موضوع سرقة صواع الملك حتى حجزه، هذا كلام دقيق جداً، إن كنت مدير مؤسسة، إن كنت مدير معمل، رئيس دائرة، كنت مدير مؤسسة فيجب أن تعلم أنك حينما تقيم العدل بين الموظفين، وحينما تعطي الناس

حقوقهم، وحينما تسمح بالنقد البناء تقوى هذه المؤسسة، وقس عليها كل شيء، الدنيا تصلح بالعدل والكفر، ولا تصلح بالإيمان والظلم.

الآن، هل فهمنا لماذا الطرف الآخر قوي جداً، لماذا يتحكم في الأرض كلها الآن ؟ هناك إيجابيات عندهم لا يمكن أن تنكر، لكن يعاملوننا معاملة سيئة جداً، وهم أعداء ألداء لنا، إلا أنهم في بلادهم لهم ترتيب آخر، فنحن ينبغي كل واحد منكم لو صار رئيس دائرة، لو ولاه الله على عشرة أشخاص يجب أن يقيم العدل بينهم، يجب أن يضع مقياساً موضوعياً في كل شيء، المقاييس أحياناً لا تكون موضوعية، ولاءات شخصية، ليس هناك مقاييس موضوعية.

فهذه آية وأرجو الله عز وجل أن تترجم هذه الدروس في رمضان إلى سلوك، أن تترجم إلى عمل، والله كلما أسمع قصة عن إخوة كرام طبقوا ما في هذه الدروس، وتعاونوا على حل مشكلات بعضهم بعضاً، والله يمتلئ القلب فرحاً وسروراً، أن هذا الدرس انقلب إلى سلوك، وترجم إلى سلوك.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٣٠-٦٤) : حلاوة الإيمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

حلاوة الإيمان :

شعور المؤمن بحلاوة الإيمان من لوازم الإيمان

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أيها الإخوة الكرام ؛ مما يغمر قلب المؤمن شعور بحلاوة الإيمان وهذا الشعور من لوازم الإيمان ، وقد ورد في الحديث الصحيح في مواضع عدة من أبرزها :

عَنْ الْعَبَّاس بْن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

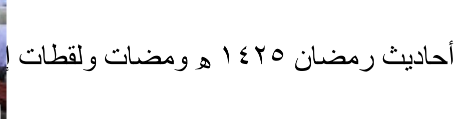
((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا))

[مسلم ، أحمد ، الترمذي]

فالإيمان طعم ، والقلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب .

لأوضح ذلك هناك حقائق يدركها العقل ، وهناك مشاعر تغمر القلب ، هذه المشاعر التي تغمر القلب هي حلاوة الإيمان ، والذي يشد الإنسان إلى الدين ، ويجعله يضحي بالغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، هي حلاوة الإيمان ، تماماً لو أنك تملك خارطة لقصر ، القصر منيف كبير فخم ، له إطلالات ، وأبهاء واسعة ، وغرف كبيرة ، لكن هذا القصر عبارة عن خطوط مبنية على ورق على هندسة ، وضع هذه الخطط مهندسون كبار ، لكن الذي يملك هذه الخارطة ليس عنده كوخ يسكنه ، لكن معه خارطة قصر ، أما حلاوة الإيمان فأن يمتلك هذا القصر ، وأن يسكنه ، وفرق كبير جداً بين من يمتلك خارطة لقصر وأن يسكن ذلك القصر ، الذي يلفت


المظاهر الإسلامية منتشرة والمسلمون كثر لكن لا وزن لهم



النظر أن الصحابة الكرام في أمد قصير رفرفت راياتهم في أطراف الدنيا ، وفي أمد قصير فعلوا ما يسمى المعجزات ، وأنهم انتقلوا من رعي الغنم إلى قيادة الأمم .

وتجد المظاهر الإسلامية الآن صارخة ، بل هي أشد وضوحاً من أي وقت مضى ، ومع ذلك المليار والثلاثمئة مليون مسلم ليس لهم وزن في العالم ، مع أنهم يشكلون تقريباً ثلث سكان الدنيا . الحقيقة أن قضية حلاوة الإيمان مشاعر تجعل الإنسان بطلاً ، تجعل الإنسان أسطورة ، والذي فعله الصحابة الكرام يكاد لا يصدق ، سيدنا الصديق يتلقى من سيدنا خالد طلب نجدة في معركة من المعارك كان المسلمون ثلاثين ألفاً ، والكفار ثلاثمئة ألف ، طلب منه المدد ، بالعقل البشري هل من المعقول أن يرسل سيدنا الصديق واحدًا مددًا ؟ طلب خمسين ألفاً ، فأرسل له الصديق القعقاع بن عمرو ، فلما وصل قال له : أين المدد ؟ قال له : أنا المدد ، قال له : أنت ؟ معه كتاب ، قرأ الكتاب، يقول سيدنا الصديق : والله يا خالد ، والذي أنزل القرآن على قلب محمد ، إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم ، واحد بألف ، واحد بمليون ، واحد بملايين ، فكان الواحد من أصحاب رسول الله بألف ، والألف من أمة شاردة متفلتة لا تساوي أفًّا ، واحد بألف ، وألف كأف .

ثمن حلاوة الإيمان :

الحقيقة حلاوة الإيمان لها ثمن باهظ ، وحلاوة الإيمان لها نتائج باهرة ، وكل شيء ثمنه باهظ نتائجه باهرة .

هذا الحديث أصل في هذا الدرس ...

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه]

الآن أذكر ثمن حلاوة الإيمان ...

البند الأول :

((أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

طبعاً لو سألت مليار مسلم : ألا تحب الله ورسوله أكثر من أي شيء آخر ؟ لا يتردد واحد من مليار أن يقول : طبعاً

حب النبي هو باتباعه كالرحمة في مواطن الرحمة

أنا أحب الله ورسوله أكثر من أي شيء آخر ، لكن هذا كلام ، قال شراح الحديث : أن يكون الله في قرآنه والرسول في سنته أحب إلى المؤمن مما سواهما عند التعارض ، فحينما تتعارض مصلحتك التي تتوهمها قريبة مع النص الشرعي ومع سنة رسول الله تضع مصلحتك تحت قدمك ، وتتبع نهج رسول الله ، هذا أول ثمن من حلاوة الإيمان ، فكما أن الله سبحانه وتعالى يذيقنا طعم الطعام والشراب ، أنت حينما تأكل تشعر بطعم ، والطعام أنواعه متفاوتة ، هناك طعام نفيس جداً ، فكما أنك تذوق طعم الطعام والشراب فكذلك حلاوة الإيمان يذوقها قلبك تماماً ، فإذا غمر شيء القلب حصلت دهشة ، وتفوق ، فأول ثمن حينما تؤثر طاعة الله على ما تتوهم من مصالح معجلة الآن دفعت بند من بنود حلاوة الإيمان .

((أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

أضرب بعض الأمثلة ...

أنت تذهب إلى بلد بعيد للدراسة ، تجد أنك لو اشتريت بيتاً بالتقسيط الربوي هذا البيت ثمنه دين عليك ، تؤدي أقساطه ، لأن عليك ديناً تتوقف الضرائب في الأعم الأغلب ، وهذا القسط من ثمن البيت ، وبعد حين البيت تمتلكه ، شيء مريح جداً ، تمتلك بيتًا ، وتدفع ثمنه تقسيطاً ، لكن طبعاً الفائدة عالية جداً ، ثم إنك لا تقلق من صاحب البيت ، فلا يأمرك أن تغادر البيت ، كل مصلحتك بقرض ربوي .

يأتي أخ آخر عنده أن القرض الربوي حرام ، يستأجر بيتًا ، وفي كل لحظة مهدد بأن يخرج من البيت ، وإذا جاءه أولاد كثر أخرج من البيت لبعض أنظمة الإيجار هناك ، ولأنه ليس عليه دين فعليه ضرائب .

فكل المتاعب وكل الأعباء من أن تستأجر بيتاً ، وكل الراحة النفسية والتسهيلات والتوفير والكسب بقرض ربوي ، شاءت حكمة الله ذلك .

الحرام سهل جداً ، والحلال صعب . لو أن الأمر على عكس ذلك لأقبل الناس على الحلال لا حباً بالله ، ولا طلباً لمرضاته ، ولا سعياً إلى جنة الله عز وجل ، بل لأنه أسهل ، لكن شاءت حكمة الله أن يكون الحلال صعباً ، والحرام سهلاً .

الحرام سهل والحلال صعب

يأتي إنسان يستأجر بيتًا ، وهو مهدد من الخروج من البيت ، وعليه ضرائب كثيرة ، وليس له في هذه البلاد بيت يملكه ، هذا دفع حلاوة الإيمان .

إذا قال لك الإنسان : أنا أسعد الناس في الأرض فصدقه ، لأنه دفع بندً من بنود ثمن حلاوة الإيمان، هذا البند الأول .

البند الثاني :

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

الإنسان بحسب طبعه يحب الأقوياء والأغنياء ، الأقوياء يدعمونه ، والأغنياء يغدقون عليه من أموالهم ، لكن لو أن له قريبًا مؤمنًا صالحًا مستقيمًا ، لكنه فقير ، هذا منسي ، فلذلك حينما يبني المؤمن علاقاته على أساس الإيمان يوالي المؤمنين ، ولو كانوا ضعافاً وفقراء ، ويتبرأ من العصاة والمشركين ، ولو كانوا أقوياء وأغنياء ، أيضاً هذا دفع البند الثاني من حلاوة الإيمان .

حلاوة الإيمان تجعل للحياة طعما

حلاوة الإيمان شيء مدهش أيها الإخوة!!!...

حلاوة الإيمان تجعلك بطلاً .

حلاوة الإيمان تجعل التبر عندك كالتراب .

حلاوة الإيمان تعطي للحياة معنى .

دقق ، بيت فيه جميع الأجهزة الكهربائية، من ثلاجة ، إلى مكيف ، إلى سخان ، إلى مسجلة ، أي جهاز كهربائي تتصوره موجود في هذا البيت ، لكن ليس فيه كهرباء ، كل هذه الأجهزة كتل معدنية لا معنى لها ، بل هي عبء ، تحجز مكانًا ، نحن في حاجة إليه ، أما إذا سرت الكهرباء في هذا البيت أصبح لكل جهاز معنى ، وأي معنى ، الثلاجة حفظت لك الطعام ، والمكيف قدم لك الهواء البارد ، وكل شيء أعطاك أعلى ما عنده لما سرت الكهرباء ، فهذه حلاوة الإيمان تسري ، فتجد للزواج طعمة ، وترى معظم الأزواج علاقته مع زوجته سيئة ، كل واحد سئم الآخر ، شيء غريب ، تكاد تكون معظم بيوتات المسلمين هكذا ، لأن حلاوة الإيمان ما سرت ، الزواج ليس له معنى ، الابن عبء ، يغدو الابن

غيظاً لوالديه ، ومن علامات آخر الزمان أن يكون المطر قيظاً ، والولد غيظاً ، ويفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً .

البند الثاني أن تبني علاقاتك على الولاء والبراء ، توالي مؤمناً ضعيفاً فقيراً ، تحبه ، وتزوره ، وترحب به ، وقد تمتنع عن إقامة علاقة حميمة مع إنسان متفلت بنيتَ علاقاتك على الولاء والبراء، تحب المؤمنين ، وقد يكون لهم أخطاء كثيرة ، وقد ينالك منهم بعض الأذى ، وتبقى على الولاء لهم، المؤمن الصادق يوالي المؤمنين ، ولو جاءه منهم متاعب ، ويتبرأ من الكفار والمشركين ، ولو أغدقوا عليه كل المراتب ، البند الثاني هكذا .

((وأن يحب الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّه))

لذلك أقول : تلبية دعوة الأغنياء من الدنيا ، لكن تلبية دعوة الفقراء من أعمال الآخرة .

أحيانا يدعوك إنسان من طرف المدينة ، المواصلات عسيرة ، والطرقات مزدحمة ، والطعام خشن، والضيافة متواضعة ، فأنت تعتذر بأسلوب لطيف ، وقد تأتيك دعوة من إنسان كبير ، أو غني ، بيته بأرقى أحياء دمشق ، طعام فيه تفنن بألوانه ، فتلبي الدعوة من دون تردد ، وغاب عنك أنك تتبع حظ نفسك ، لذلك الولاء والبراء أيضاً ثمن باهظ لحلاوة الإيمان .

البند الثالث :

((وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

من علامات ضعف الإيمان أيها الإخوة أن الإنسان يعبد الله على حرف ، إن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، مادامت الأمور تأتي كما يريد فهو مؤمن ، أما حينما تنشأ متاعب من الإيمان يتبرأ من الإيمان ، ويعود إلى ما كان عليه ، فأنت حينما تحب الله ورسوله ، بمعنى أنك تتبع الحكم الشرعي في القرآن والسنة ، حينما يتعارض مع مصلحتك ، وحينما توالي المؤمنين ، وتتبرأ من الكفار والمشركين ، وحينما تكون في الأعماق ، قال تعالى :

عبادة الله على حرف من علامات ضعف الإيمان

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأنعام الآية : ١٦٢]

حينما لا تتأثر لا بإقبال الدنيا ، ولا بإدبارها ، تعطي كل الذي تعطيه في المنشط وفي المكره ، في الفقر وفي الغنى ، في الصحة وفي المرض ، في الإقامة وفي السفر ، قبل الزواج وبعد الزواج ، قال تعالى :

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ)

[سورة النور الآية : ٣٧]

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب الآية : ٢٣]

هذه أثمان حلاوة الإيمان ، والإنسان إذا ذاق حلاوة الإيمان صدقوا أيها الإخوة ، ولعل المثل يبدو لكم غريباً ، بين حقائق الإيمان وحلاوة الإيمان كما بين أن تنطق بلسانك مليون دولار ، وبين أن تملكها ، والفرق كبير جداً ، وكل إنسان قد يكون أفقر الفقراء قادر على أن يقول : مليار دولار ، لكن بالمقياس المادي لو تملكتها أين تسكن ؟ بأرقى بيت ، وتركب أغلى مركبة ، وقد تقتني طائرة خاصة ، وقد تقتني يختاً في البحر ، مليار دولار ، فبين أن تنطق بها وبين أن تملكها بون شاسع .

العالم الإسلامي الآن ينطق بحقائق الإيمان ، لكن لأنه ما دفع ثمن حلاوة الإيمان ما ذاق حلاوة الإيمان ، يبحث عن فتاوى ضعيفة ، يبحث عن تفلت يبحث .. كل قضية صعبة يقول : هذه من عموم البلوى ، الرشوة أصبحت من عموم البلوى ، الاختلاط عموم بلوى ، كل المعاصي والآثام مغطاة بكلمة عموم بلوى ، فلذلك هناك حجاب عن الله عز وجل هذه الحقيقة المؤلمة .

يقول سيدنا عمر : لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل ، ثم جاءه الموت لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره ، ثم استيقظ ، فإذا ليس في يديه شيء .

قال نعيم : الدنيا بحذافيرها في جنب نعيم الآخرة أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا ، ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر .



أيها الإخوة ؛ أنت حينما تذوق حلاوة الإيمان تغدو إنساناً آخر ، إن لم تنعكس كل المقاييس فلم تذق حلاوة الإيمان ، ما معنى أن تنعكس كل المقاييس ؟ الإنسان يعد نفسه ذكياً إذا ، جمع الأموال ، أما

المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان يعد حاله ذكياً إذا أنفق ما بيده ، بنى حياته على العطاء ، والأول بنى حياته على الأخذ ، إن لم تنعكس المقاييس مئة وثمانين درجة لم تذق حلاوة الإيمان ، يصير همك الأول العطاء ، وليس الأخذ ، تسعد بما تعطي لا بما تأخذ ، انعكاس المقاييس أحد دلائل حلاوة الإيمان ، حلاوة الإيمان ثمنها بين أيديكم جميعاً ، لكن تحتاج إلى إرادة قوية ، وتحتاج إلى إدراك عميق ، وتحتاج إلى متابعة ومثابرة، والله عز وجل يعطي عطاءً مدهشاً حينما تدفع ثمن حلاوة الإيمان .

آخر فكرة ، الذي يشدك إلى الدين ليس لأن الدين قدم لك تفسيراً رائعاً للكون والحياة والإنسان ، والذي يشدك إلى الدين ليس الفكر الديني ، ولكن حلاوة الإيمان ، تعيش حياة ما كنت تحلم بها ، لكن ثمنها باهظ ، ادفع الثمن .

إنسان دخل إلى أضخم محل سجاد ، قال له : أريد سجادة من الدرجة الأولى ، أول واحدة ، أريد أثقل ، أريد أثقل ، بعد أن أشغله عشر ساعات ، أريد أثقل ، فأراه سجادة ثمنها ثمانمئة ألف ، فدفع فيها خمس ليرات سورية ، هل يخرج هذا الشخص من المحل سالمًا ؟

يريد الجنة بركعتين ، بلا وضوء ، وبليرتين لفقير ، هكذا وضع المسلمين ، يريد الجنة بأبخس الأثمان ، وطلب الجنة من دون أن تدفع ثمنها ذنب من الذنوب ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله غالية .

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٣١-٦٤) : الإيمان بالله واليوم الآخر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في سورة المؤمنون آية، هي قوله تعالى:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤))

(سورة المؤمنون)

أي منحرفون، قضية أن يعصي المسلم، متى يعصي ربه ؟

الحقيقة أنك حينما تؤمن بالله واليوم الآخر معاً، من خلال هذه الآية يتضح أن الذي يؤمن بالله، لكن لا يؤمن أن الله سيحاسبه حساباً دقيقاً.

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤))

(سورة الصافات)

لا يؤمن أن أية معصية يرتكبها بالدنيا متعلقة بحقوق العباد سوف يحاسب عنها يوم القيامة، هذا لا يستقيم على أمر الله، البشر تواضعوا على أن الضمير، الضمير المسلكي، التربية البيتية، الإحساس الإنساني، في النهاية الإنسان يقترف كل الموبقات ويأكل أموالاً ليست له، ويعتدي على أعراض لا تحل له، كيف نوفق بين إيمانه وهذه المعاصي ؟

الحقيقة التي لا ريب فيها أنه ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن كركني الإيمان بالله واليوم الآخر، يعني كلمات ثلاث:

أنت حينما تؤمن أن الله يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب لا يمكن أن تعصيه، هذه قاعدة، والذي أراه أن الرادع الوحيد للإنسان من أن يعتدي على حقوق الآخرين هو إيمانه باليوم الآخر.

يروى أن رجلا اضطر إلى ثلاثمئة ألف ليرة كقرض، سأل أناساً كثيرين، إلى أن عرض عليه أحدهم أن يرهن له شيئًا، فهذا عنده مزرعة ثمينة جداً شيئًا رهنها له على هذا المبلغ، بعد سنوات أدَّى هذا الرجل هذا المبلغ وقال له: ردَّ لي المزرعة، قال له: كل واحد حقه معه، المزرعة بالملايين، فصاحب هذه المزرعة من شدة ألمه أصابته أزمة قلبية، وتوفي بها، الذي اغتصب المزرعة له قصة، هذا الذي أصابته أزمة قلبية قبل أن يموت أوصى ابنه أن تسير الجنازة أمام محل هذا المغتصب، وأن تقف الجنازة أمام المحل، وأن يخرج ابنه من بين صفوف المشيعين، ويدخل إلى محل هذا الإنسان المغتصب، ويعطيه رسالة كتبها أبوه قبل أن يموت، ماذا كتب في

الرسالة ؟ أنا ذاهب إلى دار الحق، إن كنت بطلاً فلا تلحق بي، وسأقاضيك هناك، يروى أن هذا الإنسان المغتصب بلغت منه هذه الرسالة مبلغاً أنه أعاد المزرعة إلى الورثة.

إخواننا الكرام، الشيء الواقعي والعملي أنك حينما تخاف من محاسبة الله يوم القيامة تستقيم على أمره، والناس اخترعوا قيما لا تقدم ولا تؤخر، ولا تسمن ولا تغني من جوع، أنت الآن مع بني البشر، مع إنسان قوي، علمه يطولك، وقدرته تطولك، لا يمكن أن تعصيه، إذا ضبطك بمخالفة، وأنزل بك أشد العقاب ترتدع، فكيف مع الواحد الديان ؟

لذلك أن مضطر أن أقول: إن هناك إيماناً باليوم الآخر إن كان صحيحاً لا بد من أن يردعك عن أن تأكل درهماً من حرام.

رأي النبي تمرة على السرير قال:

((يا عائشة لولا أني أخشى أن تكون هذه التمرة من تمر الصدقة لأكلتها))

ترى المسلمين الآن يغتصبون الأراضي، يغتصبون البيوت، يغتصبون الشركات، يقترضون ولا يؤدون، يقول له: هذه المحاكم، والله الذي لا إله إلا هو لو أن هذا المسلم آمن الإيمان الذي أراده الله باليوم الآخر لا يستطيع أن يغتصب قرشاً واحداً، أنا موقن أن هذا الذي يأكل أموال الناس بالباطل، أو يعتدي على أعراضهم، أو هذا الذي يظلم إنساناً ضعيفاً ليس له أحد لو أنه آمن واحدا بالمئة باليوم الآخر لما فعل هذا.

إذاً هناك حالة جديدة اسمها التكذيب العملي باليوم الآخر، التكذيب القولي مستحيل، لا تجد في العالم الإسلامي من يجرؤ على أن يقول: ليس هناك آخرة، التكذيب القولي غير موجود، لكن التكذيب العملي يعني أن سلوك هذا الإنسان لا يتناسب مع ما يدعيه أنه مؤمن باليوم الآخر. : طالب يقول لك: سوف أنال الدرجة الأولى، ولا يدرس إطلاقاً مع رفاقه ومع أحبابه، في نزهات، وسهرات، وطعام وشراب، ونوم حتى الساعة الحادية عشرة، ثم الذهاب إلى نزهة، هذا السلوك لا يتناسب مع ما يدعيه هذا الطالب.

فلذلك إخواننا الكرام، هنا ليس ثمة مجاملة، ما دام اليوم الآخر غير داخل في حساباتك اليومية فلن تستقيم على أمر الله، وهذه الآية:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

إذاً التفسير الأول لمن يعصي الله: إيمانه باليوم الآخر إيمان غير صحيح، والمثل الذي أضربه كثيراً، ذكرته مئات المرات:

أنت مواطن، وراكب مركبة، والإشارة حمراء، ويقف الشرطي، وإلى جانبه شرطي على دراجة نارية، وإلى جانبهما سيارة فيها ضابط شرطة، وأنت مواطن من الدرجة الخامسة، هل يمكن أن تتخطى الإشارة الحمراء ؟ مستحيل، لكن تتخطاها في الساعة الثالثة ليلاً، لأن علم واضع القانون لا يطولك، لأنه ليس هناك شرطي، أو إن كنت أقوى من واضع القانون، لا تعبأ به، أما إذا كنت مواطن عادي، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، مستحيل أن تتخطاها.

هذا التعامل العادي مع إنسان، فكيف مع الواحد الديان ! تؤمن أن الله معك ؟ ويراقب وهو بالمرصاد ؟.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

(سورة النساء)

وأن هذا عبد لله، وأن هناك يوما يحاسب فيه الإنسان على ما قدمت يداه، قال :

((ليأتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في تمرة قط))

[أخرجه أحمد في مسنده عن عائشة]

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

(سورة الحجر)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨))

(سورة الزلزلة)

يجد إنسان أحياناً نملة في المغسلة، يفتح الصنبور فتغرق هذه النملة، هو محاسب عليها، إنه كائن يسبح الله، أحياناً ينتظر إلى أن تبتعد عن مصب الماء، يحاسب على هذه مكافأة، يجب أن تؤمن، هذا كلام خالق الأكوان،

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)

أحياناً في أيام الشتاء تدخل الشمس إلى الغرف، فإذا كنست الغرفة ترى في أشعة الشمس ذرات غبار عالقة في الهواء، هذا أصغر شيء يمكن أن تراه عينك،

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم أن يعظه، وأن يوجز، فتلا عليه هذه الآية قال كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقه الرجل))

أنت حينما تراقب الله عز وجل في كل حركاتك وسكناتك، وحينما تستحي من الله أن تكذب كذبة، أو أن تأكل لقمة من حرام عندئذٍ نقول: إنك مؤمن باليوم الآخر.

إخواننا الكرام، الإيمان باليوم الآخر مهزوز عند الناس، إيمان ضبابي، إيمان غير واضح، أنت ممكن كتاجر ومستورد ألا تكتب بالحسابات، صفقة استوردتها و لها وثائق في المالية لا تستطيع التهرب، لو كشفوا أنك أغفلت صفقة استوردتها أهدرت حساباتك، وكلفت بضريبة عالية جداً، لاحظ نفسك مع البشر، مع من يطولك علمه، ومع من تطولك قدرته فقط، ألا تستحي من الله ؟ أنت مع إنسان منضبط تخاف، كلنا جميعاً، إذا كان الإنسان قوياً، ويطولك علمه، وتطولك قدرته لا يمكن أن تعصيه، ألا ترى أن الله معك دائماً

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد)

ألا ترى أنك في قبضته دائماً.

هذه الآية تكفي أيها الإخوة،

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

فأنت حينما ترى إنسانا يعصي الله، ولا يعبأ اعلم علم اليقين أنه ليس مؤمناً باليوم الآخر، ولو ادعى أنه مؤمن، الذي لا يؤمن يعصي، والذي يعصي ليس مؤمناً، وحينما لا تؤمن بأحد أكبر أركان الإيمان أنت لست مؤمناً، أما الناس جميعاً على وجه الأرض فيؤمنون بالله كخالق، لكن الذي يؤمن باليوم الآخر يستقيم على أمره، فلذلك الله عز وجل قال:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ)

(سورة البقرة الآية: ٦٢)

آمن بالله من هؤلاء الإيمان الذي يحمله على طاعته.

(وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

(سورة البقرة الآية: ٦٢)

الذي يرعه من أن يؤذي مخلوقاً.

(وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢))

(سورة البقرة الآية: ٦٢)

هذا هو الدين، فأنا أتمنى أن أركان الإيمان لا تقبلها بشكل ضبابي، طبعاً الجنة حق، والنار حق، لكن أعمال الإنسان لا تتناسب أبداً مع إيمانه بالجنة والنار.

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥))

(سورة البقرة)

إذاً أيها الإخوة، الإنسان بحاجة إلى مراجعة معتقداته، هذا الذي يأكل المال الحرام قولاً واحداً ليس مؤمناً باليوم الآخر، اذهب إلى بيروت، أضرب هذا المثل:

في الذهاب وجدت على الحدود تفتيشا دقيقا للعائدين إلى بلدهم، على مستوى أن كل حاجة يحاسبون عليها، الآن أنت في بيروت، أعجبتك سلعة، أول خاطر يأتيك هذه لا أستطيع إدخالها، كلما أعجبك شيء تقول: هذا لا أستطيع إدخاله، لما رأيت بعينك كيف يحاسب الإنسان على مقتنياته وبضاعته حاجة حاجة، ويدفع أمثالها ثلاثة أضعاف، لأنه تجاوز القانون، أنت هناك لا تستطيع أن تأخذ شيئاً، لست واثقاً من إدخاله.

إذاً قضية الإيمان بالآخرة تأتي في الدرجة الثانية بعد الإيمان بالله، وما لم يكن إيمانك بالآخرة في مستوى إيمانك بالله لا يمكن أن تستطيع الله، أما ما يقال: فلان ضمير حي على المئة ألف، على المليون لم يعد ضميره حيا، يفكر بها، ويقول لك: يا أخي بلوى عامة: أين بقيت الآخرة ؟ فلذلك إخواننا الكرام، السلف الصالح ورعهم كان شديدا، النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((يا عائشة لولا أني أخشى أن تكون هذه التمرة من تمر الصدقة لأكلتها))

هكذا حاسب نفسه، ولو أنّ كل واحد منا آمن باليوم الآخر الإيمان الحقيقي لردعه الإيمان عن أن يأكل درهماً حراماً.

إذا كان عندك دواء انتهى مفعوله، وجاء طفل طلبه، وثمنه ٨٠٠ ليرة، غيَّرتَ التاريخ وبعته إياه، أنت بهذه الطريقة مؤمن باليوم الآخر ؟ مستحيل، ما مِن حرفة تنجو من الخطأ.

أقسم لي بالله طبيب، أنا أثق بورعه، قال لي: والله أستطيع أن أجعل المريض يبيع بيته، وهو راضٍ عن ذلك، بالإيهام طبعاً، أنت حينما تتقي الله، وتعلم أن الله يعلم ما تفعل، ممكن أن يستقيم الطبيب، وممكن ألا يستقيم، الصيدلي كذلك، والمحامي كذلك، إذا أوهمت الموكل أن الدعوى ناجحة، ومعك ثماني سنوات، ممكن أن تأخذ منه مئات الألوف، بعد هذا تتهم القاضي بالرشوة وترتاح، أنت مؤمن باليوم الآخر ؟ لا والله، والله ما مِن إنسان يغش إلا وهو عملياً ليس مؤمناً باليوم الآخر،

((من غشنا فليس مني))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

حياتنا مفعمة بالكذب والتدليس، والغش واغتصاب الأموال، والعدوان، لذلك الله عز وجل تخلى عنا، هذا شيء واضح جداً.

هذه الآية أيها الإخوة تعني أنه ما لم نؤمن باليوم الآخر إيماناً حقيقياً يقينياً لا نستقيم على أمر الله، وإن لم نستقم على أمر الله فلسنا على شيء، أقل كلمة في اللغة لأقل شيء هي شيء.

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

(سورة المائدة الآية: ٦٨)

ويا أيها المسلمون، لستم على شيء حتى تقيموا القرآن، إن لم تُقِمْ هذا الكتاب لا تعبأ بإيمانك إطلاقاً، هذه الحقيقة المرة، وأنا أرى أنها أفضل مرة من الوهم المريح

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من لوازم الإيمان الفرح، ذاك أن الذي شرد عن الله عز وجل تغلب عليه الكآبة، كآبة البعد عن الله، كآبة الظلمة، ظلمة المعاصي والآثام، كآبة الضياع، كآبة الخروج عن فطرته، لذلك يقابل هذه الحالة الكيبئة أن المؤمن حينما استقام على أمر الله ينسجم مع فطرته يجد نفسه، إذاً هو في طمأنينة، لأن فطرة النفس البشرية على منهج الله، فإذا طبقت منهج الله عز وجل ارتاحت.

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨))

(سورة الرعد)

فأول سبب من أسباب الفرح الطمأنينة الناتجة عن طاعة الله عز وجل.

السبب الآخر: هو أن الإنسان حينما يوحد الله عز وجل تجتمع أموره، اعمل لوجه واحد يكفِك الأمور كلها، من جعل الهموم هما واحداً كفاه الله الهموم كلها، أنا أحلل حالة الفرح التي تنتاب المؤمن، أولاً باستقامته على أمره الله، اصطلح مع فطرته، فأراحته نفسه لأنه أراحها، حينما طبق منهج الله عز وجل ارتاحت نفسه.

كمركبة مشيت بها على طريق معبد هي مصممة لهذا الطريق، فلما مشيت بها على طريق معبد أراحتك، ارتاحت هي فأراحتك، ليس هناك أصوات، سرعة، انسياب، هدوء، راحة، إذاً أنت حينما تطيع الله عز وجل تصطلح مع فطرتك، تريح فطرتك فتريحك فطرتك، هذا السبب الأول للراحة.
السبب الثاني: المؤمن بسبب توحيده لله مجتمع على الله، بينما المشرك مبعثر يرضي زيدًا وعبيدًا، وفلانًا وعلانًا، إن أرضى زيداً غضب عبيد، إن أعطى عبداً آخر غضب الآخر، قضية لا تنتهي، لذلك اعمل لوجه واحد يكفك الهموم كلها.

هذه نقطة في تحليل فرح المؤمن، الإسلام ليس فيه كآبة، ليس فيه سوداوية، ليس فيه تشاؤم، ليس فيه انقباض، ليس فيه حقد، المؤمن موحّد.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣))

(سورة الشعراء)

المشاعر المؤلمة التي تنتاب المشرك أو العاصي، المؤمن معافى منها، عنده راحة نفسية ناتجة من أن فطرته أراحته، لأنه أراحها حينما أطاع الله عز وجل.

الآن يقول الله عز وجل:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨))

(سورة يونس)

(يجمعون) لها دلالة، الإنسان أحياناً يسعى لتحصيل رزقه، لكن حينما يحصل هذا الرزق، وتستقر أموره ينشأ عنده هم آخر، يريد أن يجمع أكبر ثروة ممكنة، يدخل بمنافسة مع الآخرين منافسة هدفها قذر، أن يجمع أكبر ثروة ممكنة، وأي يتنافس مع الآخرين على الدنيا لا على الآخرة، فهذا الميل الشديد إلى الجمع والتنافس والزهو والفخر هو الذي يسبب له شقاءه، لذلك الله عز وجل يوجه عباده المؤمنين:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨))

وأنا أقول: قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت.

أما فضل الله ؛ قال بعض العلماء: هو فضل الإسلام، وأما رحمته فهي القرآن: [قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ]، أنت مسلم، وبرحمته تعلمت القرآن، وتلوته حق تلاوته، وفهمته حق فهمه، ثم عملت به فهذا أكبر إنجاز تحققه في الدنيا.

وبعضهم قال: فضل الله هو القرآن، ورحمته أن جعل الإنسان من أهله، الذي يتلو القرآن، الذي يتلو القرآن، يقرأ القرآن، يفهم القرآن، يفسر القرآن، يعمل بالقرآن، هذا من أهل القرآن،

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ)

بالقرآن،

(وَبِرَحْمَتِهِ)

أن جُعلت من أهله،

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

الدليل على ذلك قوله تعالى:

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)

(سورة القصص الآية: ٨٦)

أيها الإخوة، هناك فرح مطلق، وهناك فرح مقيد، الفرح المطلق أي غير مقيد بشيء، قال تعالى:

(لَا تَفْرَحْ)

(سورة القصص الآية: ٧٦)

بماذا ؟ مطلقة.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦))

(سورة القصص)

لما خرج قارون على قومه بزينته وافتخر بها قيل له:

(لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

الفرح هنا مطلق، لكن سياق الآية يجعله مرتبطاً بالدنيا، إذاً كقاعدة جاءك دخل كبير اختل توازنك من الفرح، هناك مشكلة، تزوجت امرأة تروق لك، اختل توازنك من الفرح، عندما جاءك ضيف قلت لها: تفضلي أم فلان، تريد أن تفتخر بها أمام الآخرين، هذا الفرح الذي ذمه الله عز وجل،

(لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

بل إن هذا الذي شرد عن الله عز وجل من صفاته أنه:

(لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠))

(سورة هود)

المقيد:

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام الآية: ٤٤)

من عقاب الله للشارد عنه أنه لا يسقطه إلا من علٍ، يصعد به إلى أعلى، ثم فجأة يقصمه، هذا سمي السقوط من علٍ، الإنسان تأتيه الدنيا من كل أطرافها، يختل توازنه ، يستعلي، يتكبر، يهمل الفقراء والمساكين، يعلو عليهم، ليس عنده وقت ليلتقي بهم، مشغول، فجأة يقصمه الله عز وجل من علٍ،

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)
(فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤))

(سورة الأنعام)

دائماً الإنسان الشارد عن الله تجد بأعلى درجة من النجاح هنا يؤخذ، هنا يقسم،

(لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

الآن الفرح المقيد نوعان:

نوع مذموم، الفرح المطلق مذموم،

(لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

الفرح المقيد نوع متعلق بالدنيا، وهو المذموم،

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

ونوع مقيد بفضل الله ،

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨))

(سورة يونس الآية: ٥٨)

هناك شيء آخر، في حالة تشابه الفرح هي الاستبشار، قال تعالى:

(فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ)

(سورة آل عمران الآية: ١٧٠)

الاستبشار بما لم يحصل بعد، والفرح بما حصل، الأولى بما حصل، والثانية بما لم يحصل، لكن أحد أسباب فرح المؤمن هو استبشاره أن الله وعده بالجنة، فهذا الوعد بالجنة يمتص كل متاعب الدنيا، والإنسان حينما يتوعده الله بالنار أيّ شيء نقص من لذته في الدنيا يقيم الدنيا ولا يقعدها، لأنه ليس له شيء في الآخرة، ليس له إلا الدنيا، فإن لم تكن كما ينبغي ينتحر فوراً، أما المؤمن فكل متاعب الدنيا تمتص بوعد الله له، والدليل قوله تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١))

(سورة القصص)

فوعد لهذا المؤمن بالجنة، المستقيم الطاهر، الذي يخاف الله عز وجل، الذي يعبده، الذي يكون في خدمة عباده، يشعر بأعماق أعماقه أن له عند الله شيئًا بعد الموت، الموت ليس نهاية كل شيء، بداية كل شيء.

فحينما تثق بوعد الله لك، وأنه في الأعم الأغلب إذا كنت مستقيماً، طاهراً محسناً فلك الجنة، فهذه الجنة تنسي كل شيء، لذلك الحياة الدنيا من دون جنة فيها مليون سؤال.

لو فرضنا أن امرأة لم تكن على جانب من الجمال، ما الذي ينسيها هذا النقص ؟ وعد الله لها بالجنة، تجدها مستقيمة، قد لا تلفت النظر، لكن عند الله لها مكانة علية.

إنسان فقد بصره، ما الذي ينسه هذه المصيبة ؟ أنه إذا رضي بحكم الله عز وجل وعده الله بالجنة.
إنسان ما أنجب أولادًا، عقيم، ما الذي ينسيه هذا العقم ؟ أن الله وعده بالجنة إذا كان صابراً، فتجد أن الإنسان حينما يؤمن بالآخرة، ويؤمن بفضل الله عز وجل هذا الإيمان الذي يلزمه إيمان بوعد الله عز وجل، هذا ينسيه كل متاعب الحياة الدنيا، تجد المؤمن راضيًا، وما عنده شيء، هو راض وهو فقير، راضٍ وهو يسكن بيتًا صغيرًا، راضٍ ودخله محدود، راض وأولاده ليس كما يتمنى، راض وعمله متعب .

الآخر ساخط، وهو في قمة الغنى، ساخط وهو في قمة اللذات، هكذا شاءت حكمة الله، أن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.
ثم إن الله عز وجل يقول:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

يعني افرح بفضل الله، افرح أنك مستقيم، سينا عمر أصابته مصيبة، قال الحمد لله ثلاثاً: الحمد لله إذ لم تكن في ديني، الحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، الحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها.

الآن هناك مفارقة بين حالة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً (١١) وَيَصْلَى سَعِيراً (١٢))

(سورة الانشقاق)

لكن في الدنيا:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (١٣))

(سورة الانشقاق)

يأكل، يتغطرس، يمزح مزحًا فاحشًا، يضحك الناس، إذا مسه أحدٌ بكلمة يسحقه،

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا)

أما المؤمن:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً(٩))

(سورة الانشقاق)

من لوازم الفاسق والفاجر والعاصي أنه كان مسرورا، ومن لوازم المؤمن أنه يكون مسرورا، فلذلك العبرة لمن يضحك آخراً، البطولة لا أن تضحك أولاً، أن تضحك آخراً.

هذا الذي أتمنى أن يكون واضحاً في هذا الشهر الكريم، عليك أن تفرح بفضل الله ، وهؤلاء الأنبياء، وهم قمم البشر.

سيدنا موسى امتحن بمفارقة الوطن والأهل والهجرة ، وسيدنا إبراهيم ألقي في النار، وسيدنا يونس كان في بطن الحوت، وسيدنا أيوب ذاق من آلام المرض ما لا يحتمل، وسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّه وَمَا يُؤْذَى أَحَد))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

فحينما يؤمن الإنسان بفضل الله وبرحمته تهون عليه الدنيا.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٣٣-٦٤) : الإحساس بالغربة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

الإحساس بالغربة :

أيها الإخوة الكرام ، من لوازم المؤمن في آخر الزمان إحساسه بالغربة ، يؤكد هذا المعنى أن الله سبحانه وتعالى يقول :

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)

[سورة هود الآية : ١١٦]

هناك قلة قليلة أنجاهم الله من الفساد العريض الذي عمَّ أهل الأرض ، إذ يقول الله عز وجل :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية : ٤١]

لذلك هناك أحاديث صحيحة عديدة عن الغربة التي تنتاب المؤمن في آخر الزمان .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[صحيح مسلم]

من هم الغرباء ؟

قال : الغرباء هم الذين يصلحون إذا فسد الناس .

الناس يفسدون ، وهم يصلحون ، الناس ينفرون من الله عز وجل ، وهم يدعون إلى الله ، الناس يفسدون العلاقات ، وهم يصلحون ما أمر الله به أن يوصل ، هذه الصفة الأولى ، يصلحون إذا فسد الناس، إن كنت مع التيار العام ، تيار

الغرباء هم القلة المصلحة التي تعاكس الناس إذا فسدوا

التفلت والفساد وحب الدنيا ، تيار إيثار المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، إيثار الحاجات على القيم ، والشهوات على المبادئ فأنت مع المجموع ، أما إذا كنت على خلاف ذلك تؤثر المبدأ على المصلحة ، والقيمة على الحاجة ، وأنت تصلح حيث فسد الناس فأنت من هؤلاء .

صفة أخرى لهؤلاء الغرباء :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ، قَالَ : قِيلَ : وَمَنِ الْغُرَبَاءُ ، قَالَ : النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ))

[سنن ابن ماجة]

كل قبيلة لها عاداتها وتقاليدها ، آحاد من هؤلاء القبائل شعروا بغربتهم عن قبيلتهم ، فانضموا إلى الله ورسوله .

قد تجد إنسانًا من أسرة غنية ، لكنه أنِف من هذه المصلحة الطاغية على القيم ، ومن حب الظهور فانضم إلى المؤمنين .

قد تجد إنسانًا من أسرة قوية كره القوة والجبروت والبطش ، وانضم إلى الله ورسوله .

فمن كل قبيلة تجد أناسًا أنفوا من قيم قبائلهم ، ومن فاسد قبائلهم ، وانضموا لله ورسوله ، وكان الذي جمعهم فيما بينهم أنهم كانوا غرباء في قبائلهم .

أحياناً تجد شابًّا في أسرة غنية جداً يميل إلى طاعة الله ، والدعوة إليه ، وفعل الخيرات ، على خلاف كل أفراد أسرته الغارقين في الفساد .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ، قَالَ : قِيلَ : وَمَنِ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ : النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ))



إنسان في قبيلة نزع نفسه منها ، وانضم إلى الحق .

وفي حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ :
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[صحيح مسلم]

في رواية قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : الذين يحيون سنتي ، ويعلمونها الناس .

((ورد بالأثر))

من علامات آخر الزمان تضييع السنة ، منهج النبي عليه الصلاة والسلام لا يعبأ به ، بل يفترون على الله الكذب ، ويقولون : نحن مع القرآن فقط ، والقرآن يأمرك أن تتبع سنة النبي :

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر الآية : ٧]

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ خَرَجَ يَوْمًا إِلَى مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَاعِدًا عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْكِي ، فَقَالَ : مَا يُبْكِيكَ ، قَالَ : يُبْكِينِي شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ ، وَإِنَّ مَنْ عَادَى لِلَّهِ وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَبْرَارَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ ، الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا ، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا ، وَلَمْ يُعْرَفُوا ، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى ، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ))

[سنن ابن ماجة]

لا يحب الظهور ، ولا أن يشار إليه بالبنان ، ولا يحب أن يجمع الوجوه إليه ، يحب أن يكون مخلصاً و يرضى الله عنه .

((الْأَبْرَارَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ ، الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا ، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا ، وَلَمْ يُعْرَفُوا ، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى ، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةَ))

أيها الإخوة ؛ الآن هناك تسلسل :

أهل الإسلام غرباء بين الناس ، إنسان مسلم يصدق ، لا يكذب ، يغض بصره ، يؤدي زكاة ماله ، لا يدلّس ، ولا يحتال ، ولا يؤذي ، بين مجموع عام ، من الخط العريض ، في المجتمع الفاسد يحس بالغربة ، فالمسلم غريب بين الناس ، المؤمن لم يكتف أنه انصاع لأمر الله ، أحب الله ، وأقبل عليه ، وعقد معه صلة ، فهذا المؤمن أيضاً غريب بين المسلمين .

الآن من طلب العلم ، وتبحر به ، وتعمق فيه ، وتفرغ له فأدرك أشياء ما أدركها الناس ، وأحس بأشياء ما أحس بها الناس ، طالب العلم غريب بين المؤمنين ، لأن المؤمن إذا انصاع لأمر الله كمسلم ، وأتقن عبادته ، لكن يحب المباحات ، طالب العلم يرى الآخرة ، لذلك طالب العلم غريب بين المؤمنين .


طالب العلم غريب بين المؤمنين

الآن أهل السنة الذين تمسكوا بها ، وبتفاصيلها يحسون بغربة بين أهل العلم ، هؤلاء جميعاً هم أهل الله حقاً ، فلا غربة عليهم ، وإن غربتهم بين الأكثرين .

قال تعالى :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة الأنعام الآية : ١١٦]

الخط العريض في المجتمع خط فاسد .

أيها الإخوة ؛ هذا الغريب لا وحشة عليه ، بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس ، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنس الناس .

أحياناً تجد احتفالا وصخبًا وغناء ورقصًا ، والناس منسجمون ، والغريب يستنكر ، هذا يأوي إلى بيت الله وبيته وإخوانه المؤمنين ، أشد حالات وحشته إذا استأنس الناس ، وأشد حالات أنسه إذا استوحش الناس ، يأتي بأناس إلى بيت من بيوت الله ، هم شاردون ، ماذا يفعلون هناك ؟ يقول : لا شيء ، يملّون ، هو يأنس إذا استوحش الناس ، ويستوحش إذا أنس الناس ، لذلك هناك إشارة إلى هذا الغريب ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ ، لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[سنن الترمذي]

الناس اعتمدوا قيمًا معينة ، قيمة الغنى والقوة ، والذكاء والوسامة ، والصحة ، هؤلاء الغرباء اعتمدوا قيمًا أخرى ، قيمة الإيمان والطاعة ، والبذل والتضحية ، والتزكية والعمل الصالح ، فقيم هؤلاء تختلف عن قيم هؤلاء .

فيما ورد في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

((ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : كل ضعيف أغبر ذي طمرين ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره))

[ورد في الأثر]



مقاييس الدنيا غير مقاييس الخالق العظيم ، الله عز وجل يقيس بطاعة .

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية : ١٣]

ولأن هناك آخرة إلى أبد الآبدين ، هذا العامل الفقير المحب لله ، المستقيم ، الورع هو الذكي العاقل ، وهو المكرم عند الله عز وجل .

((ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : كل ضعيف أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره))

[ورد في الأثر]

عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ :

أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ؟

قَالَ : أَيَّةُ آيَةٍ ؟

قُلْتُ :

قَوْلُهُ تَعَالَى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

قَالَ :

أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا ، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

((بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعِ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ ، فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ ،

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ))

[سنن الترمذي]

في بعض الزيادات قال :

((لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

لذلك عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ :

((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ))

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ :

((إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ))

[البخاري]



أيها الإخوة ؛ لا مانع أن تجامل الناس ، وتكون معهم أحياناً ، لكن تكون معهم ، وتنأى بخلقك عن أخلاقهم ، كلنا يعمل ، الإنسان موظف في دائرة ، يلتقي مع الموظفين الشاردين التائهين الذين يحرصون على مصالحهم ، ولا يعبئون بمصلحة الناس عامة ، إنك معهم ، لكنك في برج عاجي أخلاقي ، تنأى عن سقوطهم ، كل إنسان مضطر بحكم عمله أن يعيش مع أناس شاردين ، لكن تشعر لا كبراً ، ولكن تميزاً أن بينك وبينهم بوناً شاسعاً ، بينك وبينهم مسافات شاسعة ، لأن الذي يألفونه لا تألفه أنت ، والذي يفعلونه لا تفعله أنت ، والذي يحرصون عليه لا تحرص عليه أنت ، هم يعبدون المال من دون الله ، وأنت تعبد الله ، ويستوي عندك الذهب والتراب .

أيها الإخوة ؛ مؤشر دقيق للإيمان ، إن شعرت في غربة في هذا العصر ، فاطمئن على إيمانك ، وإن شعرت أنك منسجم مع هذا العصر ، يقول : عصر تقنية عالية ، وحرية ، والمرأة نصف المجتمع ، ومن حقها أن تعرض مفاتنها على الناس ، هذا رأس مالها ، فإذا استمعت إلى هذا الكلام، وأن الدنيا هي كل شيء ، وإلى أن تحقيق الشهوات هو الذي يؤكد حرية الإنسان ، ويؤكد حيويته ، هناك كلام مزخرف يقال كل يوم ، إن رأيت أنك منسجم مع هؤلاء المنحرفين الشاردين المعتدين

المقصرين بواجباتهم فاعلم علم اليقين أن في الإيمان مشكلة كبيرة ، أما إن شعرت بغربتك فهذا مؤشر طيب .

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٣٤-٦٤) : من قصص الأنبياء – سيدنا موسى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة سيدنا موسى :

أيها الإخوة الكرام ؛ لا شك أن اليأس كفر ، وأن القنوط كفر ، وأن أخطر شيء يصيب الأمة أن تهزم من الداخل، أو أن تقع في اليأس ، لذلك ساق الله جل جلاله لنا قصص الأنبياء لتكون دروساً لنا .

الآن أعرض عليكم قصة بمقاييس الأرض ، هل هناك أمل واحد بالمليار أن ينجو واحد من هؤلاء ؟

سيدنا موسى حينما سار بقومه بني إسرائيل ، وهم شرذمة قليلون أتبعهم فرعون بجنوده ، وفرعون بجنوده وطغيانه ، وجبروته وحقده ، وقوته وبطشه ، وصلوا إلى ساحل البحر ، هل هناك من أمل؟ إطلاقاً ، ولا واحدًا بالمليار .

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء الآية : ٦١]

نبي كريم ، معه وحي السماء قال :



(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء الآية : ٦٢]

فإذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك .

هذه القصة تبين لنا أن الذي ييئس ، أو يقنط لا يعرف الله أبداً ، لم يعرف يعرف أن الله بيده كل شيء ، وأمره كن فيكون ، زل فيزول ، العبرة أن نكون مؤهلين كي ينصرنا الله عز وجل :

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

شق الله طريقا في البحر يمر فيه موسى ومن معه

فإذا بالبحر يصبح طريقاً يبساً يمر فيه هذا النبي الكريم مع قومه من بني إسرائيل ، فلما وصلوا إلى الضفة الثانية دخل فرعون في الطريق اليبس ، فلما صار في منتصف البحر الأحمر عاد البحر بحراً !!!

هذه القصة لمن ؟ !!

لسيدنا موسى !!؟

جاء القرآن بعد سيدنا موسى لمن ؟؟؟ ... لنا .



آلاف المسلمين ربما يئسوا من أن يهزم الطغاة

إياكم أن تيئسوا ، البطولة أن تقدم لله سبباً كي يتدخل من أجلك ، إذا تدخل الله عز وجل حسم كل شيء ، وإذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ؟

هذه القصة ليست لأخذ العلم بما حصل لسيدنا موسى ، ومن يظن كذلك فهو لم يقرأ هذه القصة ، أرادها الله لنا درساً عملياً ، وضع لنا حالة الأمل في النجاة صفرًا .

والآن ... آلاف المسلمين يقولون لك : ليس هناك حل أرضي ، لأن هذه القوة الطاغية لا تستطيع قوة في الأرض من بني البشر أن تقف أمامها ، فبدل أن نيئس ونقول انتهينا ، إذا قرأنا القرآن نؤمن أن الأمر بيد الله ، ولا يليق بكمال الله أن يجري في ملكه مالا يريد ، ولا يمكن لجهة أن تتأله ، فالله سبحانه وتعالى يقصم ، هذه قصة !

قصة سيدنا يونس :

قصة ثانية ...

المصائب لا تعد ولا تحصى ...

مصائب متعلقة بالجسم ... أمراض .

مصائب متعلقة بالدخل ... إفلاس ، كوارث اقتصادية ، بطالة ، دخل قليل ، فقر مدقع ، هذه مصائب .

مصائب تنال الإنسان مباشرة ... قد يفقد حريته .



لكن بربكم كل هذه المصائب إذا استعرضناها هل من مصيبة أكبر أن يجد الإنسان نفسه فجأة في بطن حوت؟!!

فم الحوت يتسع لخمسين رجلا واقفًا ؟ فمه فقط ، لا بطنه ! طوله مئة وثمانون مترًا ، ووزنه مئة وخمسون طنًّا ، هذا الحوت الأزرق .

فنبي كريم فجأة يجد نفسه في فم الحوت ، فالتقمه الحوت ، هل يوجد أمل ؟ هو في ظلمات ثلاث ، في ظلمة الليل ، الظلام موحش ، وفي ظلمة البحر ، وظلام البحر أشد وحشة ، وفي ظلمة فم الحوت ، في الليل ، والبحر ، وفم الحوت !

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

[سورة الأنبياء الآية : ٨٧]

أنت أحياناً تكون في أمسّ الحاجة لاستخدام الهاتف المحمول تجده خارج التغطية ، في قاع البحر كان هناك تغطية ، نعمة كبيرة !!

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء الآية : ٨٧ - ٨٨]

لعل أجمل ما في الآية التعقيب الذي قلبها قانوناً في كل عصر .

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

هذه ليست لسيدنا يونس وحده ، هذه القصص لنا ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ليست العبرة أن نأخذ علماً بما وقع لسيدنا يوسف ، أو يونس ، أو نوح ، أو إبراهيم ، هذه مصيبة ، والأمل منعدم، صفر !!

قصة سيدنا إبراهيم :

قصة ثالثة :

نار أضرمت كالجمر ، وجيء بفتى يقال له إبراهيم ، وألقي في النار ، هل يوجد أمل ؟ نار عظيمة أضرمت ! ألقي في وسطها ، والأمل معدوم ، بكلمتين :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

[سورة الأنبياء الآية : ٦٩]

قال علماء التفسير لو أن الله قال : كوني برداً لمات من شدة البرد ، ولو لم يقل : على إبراهيم لألغي فعل النار إلى الأبد ، قال :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

[سورة الأنبياء الآية : ٦٩]

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس الآية : ٨٢]

الغاية من هذه القصص :

إخواننا الكرام ؛ هذه القصص لنا ، وتعلمنا أن أمر الله هو النافذ ، ماذا فعل إخوة يوسف ؟ أرادوا به كيداً ، أرادوا قتله ، كيف ؟ حينما وضعوه في غيابات الجب ، كان وضعه في السجن أفضل ألف مرة من وضعه في غيابات الجب ، السجن حياته مضمونة ، أما هناك فمن ساق هذه السيارة ؟ أرسلت واردها ، فأدلى دلوه ، قال : يا بشرى هذا غلام

الله أرسل السيارة ليجدوا يوسف في الجب

هذا فعل الله ! إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك .

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلهن أمان

***

لذلك المؤمن لا ييئس ، ولا يقنط ، ولا يرى إلا يد الله وحدها تعمل .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح الآية : ١٠]

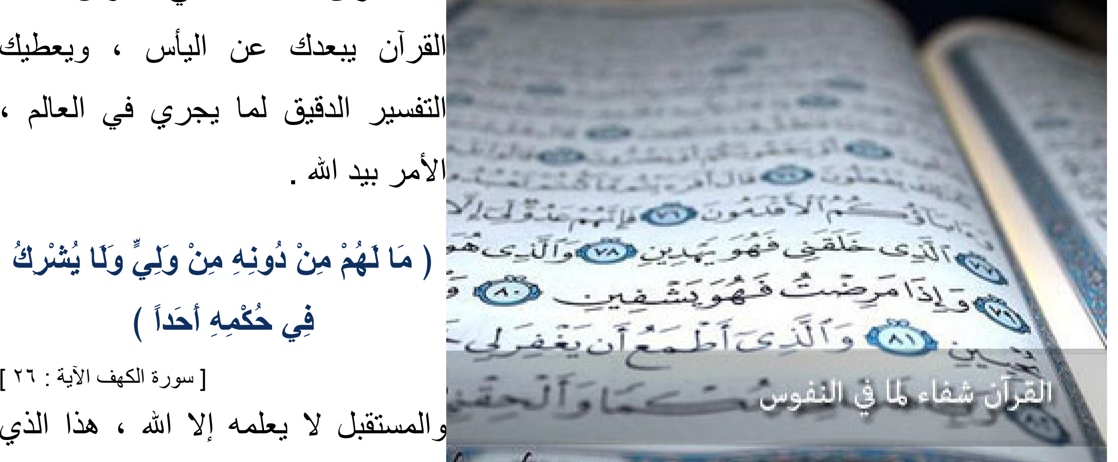
الطغاة العتاة المجرمون هؤلاء ليسوا مطلقين ، ما من آية أدق في هذا المعنى من قوله تعالى :

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود الآية : ٥٥-٥٦]

تخيل وحوشًا كاسرة ، ومفترسة ، ومخيفة ، لكنها مربوطة بأزمَّة بيد قويةٍ رحيمة عادلة ، علاقتك مع الوحوش أم مع هذه اليد ؟ مع اليد ، لأنها إن أرخت الزمام وصلت إليك ، وإن شدته ابتعدت عنك ، علاقتك مع من ؟ ليس مع الوحوش ، ولكن مع من يملكها .

لذلك ورد في بعض الآثار القدسية : أنا ملك الملوك ، ومالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، وادعوا لهم بالصلاح ، فإن صلاحكم بصلاحهم.



هذا القرآن شفاء لما في النفوس ، هذا القرآن يبعدك عن اليأس ، ويعطيك التفسير الدقيق لما يجري في العالم ، الأمر بيد الله .

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف الآية : ٢٦]

والمستقبل لا يعلمه إلا الله ، هذا الذي ينظر إلى مستقبل بعيد ، ويعود يائساً إنسان لا يعرف الله ، هذه الكتلة الشرقية التي تملك من القنابل النووية ما تستطيع تدمير القارات الخمس خمس مرات ، كيف تداعت من الداخل ؟ من كان يصدق قبل أن تنهار في سنتين ؟ الأمر بيد الله عز وجل ، ليس معنى هذا أن نقعد ، وأنها ستدمر وحدها ، هذا موقف غير مقبول أبداً ، لكن أنا أقول هذا الكلام كي لا نيئس ، الأمر بيد الله .

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف الآية : ٢٦]

(إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

[سورة يونس الآية : ٢٤]

هذه القصص ، قصة سيدنا يونس في بطن الحوت ، وقصة سيدنا موسى مع بني إسرائيل حينما أتبعهم فرعون بجنوده ، وقصة سيدنا إبراهيم وهو في النار ، وقصة سيدنا محمد وهو في الغار ، قال أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه :

((كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَارِ ، فَرَأَيْتُ آثَارَ الْمُشْرِكِينَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا ، قَالَ : مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

[صحيح البخاري]

ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف الآية : ١٩٨]

أنت حينما تؤمن أن الله قادر يقيناً أن يغير موازين القوى بلحظة فما عليك إلا أن تقدم في لله سبباً لينصرك ، وهذا الكلام موجه للأفراد والشعوب ، ولآحاد المسلمين ومجموعهم ، وفي أقل شيء ، وأخطر شيء ، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، وهذه القصص هي لنا ، وليست لقوم يونس ، ولا لقوم موسى عليه السلام ، ولا لقوم إبراهيم ، هي لنا ، لأن هذا القرآن نزل بعد كل هذه القصص .

الآن ليست هذه القصص لأخذ العلم ، بل من أجل أن تجعلها قانوناً يحكم تصرفاتك .

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٣٥-٦٤) : التوحيد وقصة سيدنا موسى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، يعتقد الغربيون أن الله خلاق، وليس فعالاً، لكن العقيدة الصحيحة تقتضي أن تعتقد أيها المؤمن أن الله خلاق وفعال، حينما يخلق الله بشراً متفاوتين في القوة، وفي الصحة، وفي المال، وفي البيئات، ليس هناك تكافؤ فرص، هذا الاعتقاد أن الله خلق، وترك العباد قويهم يأكل ضعيفهم، وغنيهم يستغل الفقير، والصحيح يتمتع بصحة، والسقيم يعاني من مرض، الحظوظ أقصد بها حظ المال، وحظ الصحة، وحظ الوسامة، وحظ الذكاء، هذه متفاوتة بين البشر، وليست واحدة، إلا أن العقيدة الصحيحة أن هذه الحظوظ وزعت في الدنيا توزيع ابتلاء، فكل إنسان ممتحن بما آتاه الله، وبما زوى عنه، لكنها سوف توزع في الآخرة توزيع جزاء، قال تعالى:

(كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١))

[سورة الإسراء: ٢١]

أما أن الله فعال، وهو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، أدق دقائق الحياة هي لله عز وجل، ما الذي يؤكد لنا ذلك ؟ قصة سيدنا موسى أولاً:

قال تعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

[سورة القصص: ٧]

أمران، ونهيان، وبشارتان.

شيء عجيب، إذا خفت عليه، إذا قلنا لأمّ: إذا خفت عليه ألقيه في التنور، ما هذا الكلام ؟ لولا أن اليم بيد الله ؛ ولولا أن الصندوق الذي فيه هذا النبي الكريم بيد الله ؛ ولولا أن حركة الماء بيد الله ؛ ولولا أن حركة الرياح بيد الله ؛ ولولا أن حركة الصندوق بيد الله ؛ ولولا أن امرأة فرعون التي ألهمت أن تأتي إلى شاطئ القصر بيد الله ؛ ولولا أن قلب امرأة فرعون امتلأ حباً لهذا الغلام بيد الله، أراد الله بهذه القصة أن يبين أن أدق دقائق الحياة بيد الله، يقاس على ذلك صحتك، قلبك، شرايينك، نمو الخلايا، سيولة الدم، نشاطك، أدق دقائق الجسم بيد الله، زوجتك بيد الله، أولادك بيد الله، من فوقك بيد الله، من دونك بيد الله، الأمراض بيد الله، الفيروسات بيد الله، العدوى بيد الله، هذا التوحيد حينما تؤمن أن كل شيء بيد الله، طالبني بالدليل، قال تعالى:

(تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٥٩))

[سورة الأنعام: ٢٩]

هل هناك من شيء في الأرض أقلّ من أن ورقة سقطت، ما هذا الحدث ؟ ورقة يبست فسقطت.

أيها الإخوة، أراد الله عز وجل من هذه القصة أن يبين أن الأمر كله بيد الله، قال تعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

[سورة القصص: ٧]

لا تخافي من المستقبل، ولا تحزني على الماضي، هذان نهيان، أمران و نهيان، و بشارتان، قال تعالى:

(وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧))

[سورة القصص: ٧]

التقطه آل فرعون، هاتوا المراضع، قال تعالى:

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

[سورة القصص: ١٢]

تحريم منع، وليس تحريم شرع، ولا مرضعة قبل أن يأخذ من ثديها، أمه تغلي، قال تعالى:

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً)

[سورة القصص: ١٠]

(إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١))

[سورة القصص: ١٠-١١]

دقائق القصة بيد الله، أخته تتبعته، حرمنا عليه المراضع، قال تعالى:

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا)

[سورة القصص: ١٢-١٣]

والله أيها الإخوة، ما من شيء في الأرض في كل قارات الأرض، وفي كل البلاد، وفي كل الأماكن، وفي كل الأوقات لك هذه القصة.

ملخص الكلام: ليس في الكون من يدٍ تعمل إلا الله، قال تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً)

[سورة القصص: ٨]

هذه اللام لام المآل، يعني فرعون رأى في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه، القضية سهلة جداً، إذاً نذبح كل أبناء بني إسرائيل، وأية قابلة لا تعلن عن مولود ذكر لبني إسرائيل تقتل مكانه، انتهى الأمر، مادام هناك طفل لبني إسرائيل سوف يقضي على ملك فرعون، إذاً الحل سهل جداً، نقتل كل أبناء بني إسرائيل، أما الطفل الذي سيقضي على ملكه رباه في قصره، قال تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨))

[سورة القصص: ٨]

والله أيها الإخوة، حينما أقرأ هذه الآية يقفز إلى ذهني هؤلاء الطغاة الذين يقتلون الشعوب الإسلامية، ويقتلون أبناءهم، ويهدمون بيوتهم، إنهم خاطئون، سوف يدفعون الثمن باهظاً، عذاب إلى أبد الآبدين هم أغبى أهل الأرض، لأنهم تجاهلوا أن الله موجود، وسيحاسب، وسيعاقب، وأن هذه الدنيا دار ابتلاء.

امرأة فرعون وقع حبه في قلبها، من ألقى محبته في قلب فرعون ؟ إذا دققت تجد أن هذا القلب يحب زيداً، وهذا القلب يبغض عبيداً، حتى قلوب العباد بيد الله.

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))

[الترمذي، ابن ماجه]

قد يلقي محبتك في قلب فلان، وقد يلقي كراهيتك في قلب فلان، ومعنى قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه: ٣٩]

إذا أحبك الناس فهذه محبة الله أودعها في قلوب الخلق.

للتقريب: امرأة تخبز على التنور، كلما وضعت رغيفاً فيه تضمّ ابنها، وتشمه، مرّ نبي كريم، قال: يا رب، ما هذه الرحمة التي أودعتها في قلب الأم ؟ فقال الله عز وجل: هذه رحمتي، وسأنزعها، فلما نزع من قلبها الرحمة بكى، فألقته في التنور، وارتاحت منه.

أنت حينما ترى من يعطف عليك فهذا عطف الله، حينما ترى من يحبك فهذه محبة الله، حينما ترى موظفاً يقسو عليك فهذا نوع من غضب الله.

أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليها بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم.

أحياناً الطبيب يخطئ بتقدير الله، أحياناً يد الطبيب بيد الله، هذا التوحيد، أحياناً يعطي الصيدلي دواءً خطأً، فيكون سبب مرض خبيث أحياناً، وهذا بيد الله، والتوحيد لا يعفي من المسؤولية، هذه قضية خطيرة جداً، المسلمون بسذاجة ما بعدها سذاجة يعزون أخطاءهم إلى الله، وإلى التوحيد، لا، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١))

[سورة النور: ١١]

هذه القصة مفادها أن أدق دقائق الحياة بيد الله الرزق، الانسجام الزوجي بيد الله، الزوج يطلق بصره فيما لا يسمح له به ينشأ نكد في البيت، يلهم الزوجة أن تكون لئيمةً، وقاسيةً، تتصرف بحمق ما بعده حمق، فإذا غض الرجل بصره عن محارم الله ألبسه ثوباً مهيباً في بيته، فانصاعت له زوجته، محبة الزوج بيد الله، ومحبة الزوجة بيد الله، و النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

أن تبيع بحجم كبير بيد الله، وأن ينصرف الناس عنك بيد الله، كل ما يجري بجسمك بيد الله، هناك قوانين، لكن الله عز وجل يعطي بسبب، ويعاقب بسبب، قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً)

[سورة الكهف: ٨٣-٨٥]

فهذا الذي سيقضي على ملك فرعون رباه في قصره.

أيها الإخوة، سيدنا يوسف أراد إخوته أن يقتلوه، وضعوه في غيابات الجب، دخلوا عليه وهو عزيز مصر، قال تعالى:

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة يوسف: ٩٠]

يقول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١))

[سورة يوسف: ٢١]

أيها الإخوة، هذه القصص ليست لأخذ العلم، هذه القصص لاستنباط القوانين، أنت حينما تؤمن صحتك بيد الله، رزقك بيد الله، أعدائك بيد الله، من هم فوقك بيد الله، من هم دونك بيد الله، أولادك بيد الله، زوجتك بيد الله، قطر الشريان التاجي بيد الله، نمو الخلايا بيد الله، سيولة الدم بيد الله، هذه القصة مفادها الله عز وجل فعال لما يريد، وهو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، فإذا قلت: ليس في الكون إلا الله، فهذه كلمة حق، على الشبكية هناك طغاة، وأسلحة ذرية، وأسلحة نووية، وأسلحة جرثومية، وأسلحة كيماوية، وطائرات تقصف أهدافًا، وتدمر عن بعد آلاف الأميال، بعض المواقع في العراق قصفت من البحر المتوسط، وجاء الهدف مئة بالمئة، كله بيد، الله ليس إلا الله، فكن معه.

كن مع الله ترى الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعــه ثم من يعطي إذا ما منعك

هذه ملة طه خذ بها.

أيها الإخوة، اقرؤوا هذه القصص من أجل أن تعلموا أنّ كل ما يجري في حياتكم بيد الله، الله عدل، أحياناً يعطي فيدهش، أحياناً يمنع أحياناً، يعز، أحياناً يذل، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

[سورة آل عمران: ٢٦]

أيها الإخوة، هذه عقيدة المسلمين، هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

أنصح إخوتي الكرام، وأنصح نفسي أن كل شيء ألمّ بك ارجع إلى نفسك، وحاسبها.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((.... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم، الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي]

قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

[سورة محمد: ١٩]

فإن جاءك شيء تكرهه فاعلم أن الله غني عن تعذيبك، ولكنه يؤدبك، قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

[سورة محمد: ١٩]

النقطة الدقيقة: من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر، هذه القصة تبين أن أدق دقائق الأمور بيد الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك، وعبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، وكن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، من وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من لوازم الإيمان أن تعرف الواحد الديان معرفة الله شيء، ومعرفة العلوم الإسلامية شيء آخر، قد تستطيع أن تتكلم ساعات طويلة ارتجالاً، ومن دون تحضير بأفصح لغة، وبأصح دليل، وبأعمق تحليل، وأنت لا تعرف الله، تعرفه إذا خفت منه، وتعرفه إذا رجوت جنته، وتعرفه إذا شعرت أنه معك دائماً، وتعرفه حينما توقن أنه يعلم وسيحاسب، وسيعاقب، تعرفه إذا توكلت عليه، تعرفه إذا ذكرته، تعرفه إذا اشتقت إليه.

أيها الإخوة، معرفة الله شيء، وأن تكون متبحراً في العلوم الإسلامية شيء آخر، هذه الخصيصة للمؤمن مستنبطة من قوله تعالى:

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ)

[سورة المائدة: ٨٣]

إن لم تشعر بالقرب، إن لم تشعر بالحب، إن لم تشعر بأن الله سبحانه وتعالى متفضل عليك فأنت لا تعرفه.

الآن سأورد أقوالا كثيرة حول علامات المعرفة، وهذه مفيدة جداً، من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة منه، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته، الذي يعرف الله يعظم شعائر الله، وحينما أقول هان أمر الله علينا فهنّا على الله، معنى ذلك نحن لا نعرفه، المعرفة توجب السكون، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته، الهياج والعنف والصياح والضجيج والسخط، والموقف القاسي، والكلام البذيء هذا لا يعبر عن أنك تعرف الله عز وجل، من علامات المعرفة أنس القلب بالله، فهو يحس أنه قريب منك، ومن كان لله أعرف كان له أخوف، قال تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: ٢٨]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ))

[مسلم عن عمر بن سلمة]

من علامات معرفة الله أن الدنيا تضيق عليه بسعتها، ومن علامات معرفة الله أن الدنيا تتسع عليه بضيقها كيف ؟ لو عاش في أجمل مكان، وتناول أطيب طعام، وتمتع بأجمل المناظر، وهذا المكان بعيد عن ذكر الله يضيق به، ولو عاش في غرفة قميئة، وهو ذاكر لله تتسع به، أينما حل إذا كان في هذا المكان ما يقرب إلى الله يأنس به، ولو كان ضيقاً، وإذا كان يبعد عن الله يستوحش منه، ولو

كان واسعاً، من عرف الله عز وجل صفا له العيش، فطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله عز وجل، والمخلوق ينتهي عنده، لا يعبأ لا بتهديده، ولا بوعيده، ولا بإغرائه، لا يتأثر لا بسياط الجلادين، ولا بسبائك الذهب اللامعة، من عرف الله عز وجل قرت عينه بالله، وقرت عينه بالموت، وقرت به كل عين، ومن لم يعرف الله تقطع قلبه عن الدنيا حسرات، من عرف الله زهد فيما سواه، ومن ادعى معرفة الله عز وجل وهو راغب في غير الله كذبت رغبته معرفته، ومن عرف الله أحبه على قدر معرفته به، وخافه، ورجاه، وتوكل عليه، وأناب إليه، ونهج بذكره، واشتاق إلى لقائه، واستحيا منه، وأجلّه، وعظمه على قدر معرفته به.
أيها الإخوة، أي إنسان آتاه الله فكراً وقاداً بإمكانه أن يقرأ، وأن يحفظ، وأن ينطق بالحق، وأن يجلب عقول الآخرين، هذا شيء، وأن تعرف الله، وأن تتخلق بالكمال البشري، وأن تكون متواضعاً، على الله متوكلاً، إلى ما عنده راجياً، من عقابه خائفاً، راضياً بقضائه وقدره، هذا من علامات المعرفة.

من علامات معرفة الله أن الذي يعرف الله عز وجل لا يطالب، ولا يخاصم، يؤدي الذي عليه، والذي له الخصومة الشديدة إذا خاصم فجر، ليس هذا من أخلاق العارفين بالله، لا يطالب، ولا يخاصم، ولا يعاتب، ولا يرى على أحد له فضلاً، لأن الذي خلقه منحه نعمة الوجود، أعطاه ما أعطاه، مكنه مما مكنه، هو لا يرى أن له على أحد فضلاً، بل يرى أن كل ما هو فيه من فضل الله عز وجل، ليس هذا أدباً، بل هو حقيقة.

من علامات معرفة الله ألا يأسف على فائت، وألا يفرح بآت، لأنه ينظر إلى الأشياء بعين الفناء والزوال، لأنها في الحقيقة كالظلال والخيال، العارف بالله يخرج من الدنيا، ولم يقض وطره من شيئين، بكاء على نفسه، و ثناء على ربه، وهذا من أحسن الكلام، ولا يكون العارف بالله عارفاً ـ حتى لو أعطي ملك سليمان ـ لم يشغله عن الله طرفة عين، قال تعالى:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾

[سورة النور: ٣٧]

من علامات معرفة الله أن العارف بالله مستأنس بربه، مستوحش ممن يقطعه عنه، العارف بالله أنس بالله فاستوحش من الخلق، وافتقر إلى الله فأغناه الله عنهم، وذل لله فأعزه الله، وتواضع لله فرفعه الله، واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

سئل الإمام الحسن البصري بما نلت هذا المقام ؟ فقال: باستغنائي عن دنيا الناس بما نلت هذا المقام؟ وحاجتهم إلى علمي.

العارف بالله يتلون بتلون العبودية، بينما تراه مصلياً، إذا هو ذاكراً، أو قارئاً، أو معلماً، أو مجاهداً، أو حاجاً، أو مساعداً للضعيف، أو مغيثاً للملهوف، فيضرب في كل غنيمة من الغنائم بسهم، فهو مع المتعلمين متعلم، ومع الغزاة غازٍ، ومع المصلين مصل، ومع المتصدقين متصدق، فهو ينتقل في منازل العبودية من عبودية إلى عبودية، وهو مقيم على معبود واحد لا ينتقل في منازل العبودية إلى غيره.

من علامات معرفة الله ألاّ يعتقد باطناً من العلم ما ينقضه في ظاهر الحكم، ولا تحمله كثرة النعم على هتك أسرار محارم الله عز وجل.

أيها الإخوة، كثرة النعم تطغي العبد، وتحمله على أن يصرفها في وجوهها، وغير وجوهها، قال تعالى:

(أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق: ٧]

حينما تقوى مالاً أو مكانة، أو منصباً أو علماً، الإنسان تغريه نفسه إذا استغنى أن يتفلت من منهج الله، علامة معرفة الله عز وجل أنه مهما بلغت بك المراتب، ومهما أقبلت عليك الدنيا ورعك ورعك، وتواضعك تواضعك، وذلك لله، وخدمة المساكين هي خدمة المساكين، صار سيدنا الصديق خليفة المسلمين، وكان قبل أن يكون خليفة المسلمين يحلب شياه جارته العجوز، فلما تسلم منصب الخلافة استقر في ذهن هذه العجوز أن هذه الخدمة انتهت، في اليوم الأول من تسلم منصب الخلافة طرق باب العجوز، قالت: يا بنيتي، افتحي الباب، من جاء ؟ قالت: جاء جالب الشاة يا أماه، المنصب لا يغيره، والمال لا يغيره، هو هُو، الإنسان حينما يقوى، أو حينما يغتني، أو حينما يتسلم منصباً رفيعاً قد يتناول ما يحل له، وما لا يحل، لكن العارف بالله، قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣))

[سورة الأحزاب: ٢٣]

مجالسة العارف بالله تدعوك من ست إلى ست، من الشك إلى اليقين، من الرياء إلى الإخلاص، من الغفلة إلى الذكر، من الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، من الكبر إلى التواضع، من سوء الطوية إلى النصيحة.

أيها الإخوة، مقام المعرفة شيء، قد تجد إنساناً يعيد ما بدأت به هذا الدرس، قد تجد إنساناً فصيح اللسان، ناصع البيان، قوي الحجة، له تحليل دقيق لقضايا الدين، إذا تكلم ملك القلوب، أما حينما يعصي الله في خلوته فهو لا يعرفه أبداً، أما حينما يتكبر على خلقه فهو لا يعرفه أبداً، حينما يأخذ ما لا يحل له لا يعرفه أبداً، لذلك قال تعالى:

(بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

[سورة الفتح: ٦]

هذا أيها الإخوة، حينما يخيب ظن الإنسان بإنسان يتوهمه مؤمناً، كيف يقول هذا الكلام، ويفعل هذه الأفعال ؟ القضية سهلة جداً، الملخص أن العلم علمان، علم بأمر الله، وعلم بالله، العلم بأمر الله يقتضي المدارسة، يحتاج إلى كتاب، وإلى قراءة، وإلى مذاكرة، وإلى طلاقة لسان، وإلى حفظ، لكن العلم بالله يقتضي المجاهدة، حينما يجاهد نفسه وهواه يكشف الله عز وجل لهذا الإنسان طرفاً من كماله فيحبه، ومن أعجب العجب أن تعرفه، ثم لا تحبه، ومن أعجب العجب أن تحبه، ثم لا تطيعه، مستحيل أن تعرفه، ثم لا تحبه، وأن تحبه، ثم لا تطيعه، العلم بالله يقتضي المجاهدة.

الآن ثمار العلم بأمر الله، معلومات دقيقة محشوة في الدماغ، أما النفس فليست صافية، علامة معرفة الله أن هذه المجاهدة مجاهدة النفس والهوى ولدت ثقة في النفس، وإقبالاً على الله، فسرى الكمال الإلهي في كل كيان الإنسان، صار متواضعاً صار، مؤدباً صار رحيماً صار منصفاً، صار يحب الخير، صار همه الأول أن يكون الناس بخير، لا أن يعلو عليهم، لذلك حينما قيل: يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان، يا من ذكيت سيادة العقل، ونهنهت غريزة القطيع، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً بين الجميع فعشت واحداً بين الجميع، يا من كانت الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك، والحب فطرتك، والسمو حرفتك، ومشكلات الناس عبادتك.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٣٧-٦٤) : الأخذ بالأسباب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، شاءت حكمة الله أن يجعل الله في كونه سبباً لكل شيء، فالله عز وجل ذات كاملة، وهو واجب الوجود، وما سواه ممكن الوجود، ومعنى ممكن الوجود أي يمكن الوجود على ما هو عليه، أو على غير ما هو عليه، كان من الممكن أن نرى كل شيء بلا سبب، أن نرى الطعام من دون أن تزرع القمح، كان من الممكن أن تكون كل حاجاتنا من دون أسباب، ولكن شاءت حكمة الله أن يجعل لكل شيء سبباً، لماذا ؟ لأن الله عز وجل لو خلق الأشياء بلا أسباب لما وصلنا إلى الله، كما أن هذه الأشياء بلا أسباب، وهذا الكون بلا سبب، أما حينما خلق الله لكل شيء سبباً نصل إلى مسبب الأسباب، فكأن الله سبحانه وتعالى بلطف وبرفقٍ أوصلنا إليه، خلق لكل شيء سبباً، وركب عقلنا على مبدأ السببية، فعقلنا لا يفهم الأشياء إلا بأسبابها، ونظام الكون نظام السببية.

هذه مقدمة.

إلا أن هذه الأسباب من خصائصها أنها تطمئن الإنسان، هذا السبب له هذه النتيجة، لكل سبب نتيجة، فتلازم السبب مع النتيجة يعطي للكون استقراراً، ولكن هناك محذور أن الإنسان يرى الأسباب تخلق النتائج، فيستغني بها عن الله عز وجل، ذلك إنقاذاً للتوحيد، في أحيان كثيرة الله عز وجل يعطل السبب، السبب موجود، شاب وشابة، ولا ينجبان، وأحياناً يلغي السبب، السيدة مريم ولدت سيدنا عيسى بلا أب، يلغى السبب، أو يعطل، لئلا يتوهم الإنسان أن السبب خالق النتيجة، السبب يرافق النتيجة، وترتيبه قبل النتيجة، لكن خالق الأشياء هو الله عز وجل، هذا المعنى الدقيق لو لم يكن واضحاً في الأذهان لوقع الإنسان في الشرك.

من لوازم المؤمن رعاية الأسباب، المؤمن الصادق يأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم يتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، القضية ليست سهلة، أنت حينما تأخذ بالأسباب تطمئن، وتشعر أنك ملكت النتائج، وهذا هو الشرك أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد عليها، وأن تركن إليها.

راجعت مركبتك قبل السفر، وكل شيء جيد، مراجعة كاملة، إذاً سوف تصل إلى قصدك حتماً، المؤمن يأخذ بالأسباب، ويقول: يا رب، يسر لنا هذا السفر، يا رب احفظنا في الطريق، الذي يتوكل على الله من دون أن يأخذ بالأسباب فقد عصى، سماه العلماء تواكلاً، والذي لا يأخذ بالأسباب فقد عصى، والذي يأخذ بها، ويعتمد عليها فقد أشرك، قضية دقيقة جداً، من السهل أن تأخذ بالأسباب كالغربيين، وأن تعتمد عليها، وتستغني عن الله عز وجل، يقع هؤلاء في الشرك، ومن السهل أن ترتاح ألا تأخذ بالأسباب، وتنتظر من مسبب الأسباب أن يحدث معجزة تحل بها مشكلاتك، وهذه

معصية، الغرب أخذ بالأسباب، واعتمد عليها، والشرق لم يأخذ بها، كلاهما على خطأ، وكأن المنهج الكامل طريق عن يمينه وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق، فإن أخذت بالأسباب، واعتمدت عليها، واطمأننت إليها وقعت في وادي الشرك، وإن لم تأخذ بها وقعت في وادي المعصية. هذا الموضوع أيها الإخوة أخطر موضوع يحتاجه المسلمون اليوم، هم يتواكلون على الله، ولا يفعلون شيئاً، لكن ينتظرون أن تأتي معجزة تدمر أعداءهم، هم مرتاحون، وهذا لن يكون.
أيها الإخوة، بعض الأحاديث المتعلقة بهذا المعنى:
عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة]

أن تستسلم، أن تقول: ليس بيدي شيء، ألا تفعل شيئاً، أن تخاف من كل شيء ، أن تخضع لكل شيء، أن تخنع لكل شيء، ليس هذا من صفات المؤمن، ولو كان العدو بحجم أكبر بكثير من حجمنا.
النقطة الأولى:

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ))

" دبر، خذ بالأسباب، اكتب، اسأل، تقصى، تحرك، حاول، جرب.

أحد شيوخ الأزهر في بداية دراسته رسب، فقرر ترك الدراسة، جلس مرة في البيت، رأى نملة تصعد على الحائط، المحاولة فشلت، أعادت المحاولة ٤٣ مرة، فاستحيا من الله، وتابع الدراسة، وكان شيخ الأزهر.

ألا تأخذ بالأسباب معصية، كحالة الشرقيين، ننتظر المعجزات، نحن مسلمون ، والطرف الآخر كفار، ونحن موعودون بالنصر، من دون أن نتحرك ؟ وهذا لا يكون، العدو يأخذ بالأسباب ويؤلّهها، ويعتمد عليها، وينسى الله، فيقع في أحيان كثيرة في شر عمله، إذاً لئلا تتوهم أن السبب يخلق النتيجة، أحياناً الله عز وجل يعطل الأسباب، وأحياناً يلغي الأسباب، السبب موجود يعطل مفعوله.
الآن نتيجة بلا سبب، من أجل ألا تتوهم أن السبب يخلق النتيجة، السبب يرافق النتيجة، ويأتي في الترتيب الزمني قبل النتيجة، لكن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء،

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

طالب ما درس، ولم يأخذ بالأسباب فرسب، قال: هذه مشيئة الله، هذا هو الكذب، وهذا هو الدجل، طبيب أهمل المريض فمات المريض، يقول لك: سبحان الله ! مات بأجله، أنت قاتل، لا يمكن أن يحتج بالتوحيد، الدليل:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

الآية التالية:

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١))

(سورة النور)

لا يمكن أن يحتج في التنصل من المسؤولية بالتوحيد، لكن التوحيد يقول: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

إذاً أيها الإخوة، رعاية الأسباب تعني أن تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، فالطالب الذي لا يدرس، ويقول: هذه مشيئة الله هو يكذب، لكن حينما يدرس بأعلى درجة، ويأتيه مرض خطير يحول بينه وبين أداء الامتحان ساعتئذٍ يقول:

((حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

لا تقال:

((حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

إلا حينما يحال بينك بقوة قاهرة وبين الأهداف التي تسير نحوها

إذا مرض الإنسان يريد أن يعالج نفسه، يطلب من الله الصحة، والصحة لها أسباب، يطلب من الله الرزق، والرزق له أسباب، وفي الحديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا))

[أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذي: حسن صحيح]

تغدو ؛ تتحرك، أي إنسان ينتظر أن تأتيه الدنيا وهو مرتاح، وهو كسول، وهو قاعد هذا وهم في وهم، في منطق الدنيا الذين يبذلون جهدًا كبيرًا يحققون النتائج، كأن الله سبحانه وتعالى ربط النجاح بالأخذ بالأسباب.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً)

(سورة الكهف)

إنسان مرض ابنه، يأخذه إلى أفضل طبيب، ويشتري أفضل الدواء، ويبالغ في تنفيذ تعليمات الطبيب، وبعدئذٍ يتصدق، ويقول: يا رب، اشفِ لي ابني، لذلك العلماء قالوا: دعاء من لم يأخذ بالأسباب لا يقبل، بل هو استهزاء بالدعاء.

لما سيدنا عمر رأى جملا أجرب، سأل صاحبه: يا أخا العرب، ما تفعل بهذا الجمل ؟ قال: أدعو الله أن يشفيه، قال له: هلا جعلت مع الدعاء قطراناً.

أوضح مثل من السيرة، النبي عليه الصلاة والسلام لما هاجر، أولاً الاتجاه نحو المدينة، سار بعكس الاتجاه نحو الساحل، ودخل إلى غار ثور ثلاثة أيام، وهيأ من يمحو الآثار، آثار الأقدام، وهيأ من يأتيه بالأخبار، وهيأ من يأتيه بالطعام والشراب، واختار دليلاً غلّب فيه الخبرة على الولاء، دليل مشرك، ثم سار، وصلوا إلى الغار، لماذا وصلوا ؟ مع أنه أخذ بالأسباب، لأنه لو كان أخذ بها، واعتمد عليها لانهار، هو أخذ بها تعبداً، واعتماده على الله، وصلوا إلى غار ثور، ويقول سيدنا الصديق: لو نظر أحدهم إلى موطأ قدمه لرآنا، وفي رواية يا رسول الله لقد رأونا، قال له:

((ما ظنك يا أبا بكر باثنين اللّه ثالثهما))

[مُتَفَقٌ عَلَيْهِ]

النبي عليه الصلاة والسلام إذاً أخذ بكل الأسباب، لم يدع نقطة مفتوحة، غطى كل شيء، ثم توكل على الله، قد يقول قائل: لِمَ لمْ يهاجر كما هاجر عمر ؟ أتراه أشجع منه ؟ مستحيل، عمل عمر يمثّل نفسه فيه، أما النبي فمشرّع، لو هاجر كما هاجر عمر لعد اقتحام الأخطار واجباً، ولعد أخذ الحيطة حراماً، ولهلكت أمه من بعده، أنا لا أجل إنسانًا مؤمنًا إلا إذا أخذ بالأسباب، يشتري صفقة، يقول: يا جبار، لكن ما درسها، لا من حيث نوع البضاعة، ولا من أسعارها في السوق، ولا لهامش الربح، يفلس، يقول: ترتيب الله، يرتكب أخطاء لا تحتمل، ثم يعزو النتائج السلبية للقضاء والقدر.
الآن نحن بحاجة إلى أن نأخذ بالأسباب، طبعاً الغربيون متفوقون أشد التفوق في الأخذ بالأسباب، لكنهم مشركون، نحن بطولتنا أن نأخذ بالأسباب كما يأخذون، ولكننا نعتمد على الله لا على هذه الأسباب، هذا هو الموقف السلبي، هذا الكلام لمستوى أمة، على مستوى أفراد، على مستوى مؤسسات، على مستوى دوائر، على مستوى معامل، على مستوى مزارع، يعني هذا المحصول معرض للإصابة بهذا المرض، يجب أن تسأل الخبير، أن تأتي بالدواء، أما أن تفاجئ أن المحصول كله أصابته آفة أبطلت قيمته، وهذا ترتيب الله، فلا، أكثر المسلمين مع الكسل والخطأ، وترك الأسباب، ثم يعزو النتائج السلبية إلى القضاء والقدر، وهذا مرفوض.

أنا عندي رغبة أن أسمي النتائج السلبية حينما لا نأخذ بالأسباب أن أسميها جزاء التقصير، وليست قضاءً وقدراً، جزاء التقصير، لذلك على مستوى الفقر والغنى هناك فقير أنا أسميه فقير كسل، هناك فقير فقير قدر، إنسان معه عاهة، هذا فقير، ليس في الإمكان أن يكسب مالاً، هذا فقر قدر، هذا محترم، هذا معذور، أما إنسان لأنه كسول صار فقيرًا دائماً، لا يخطط، لا يبرمج حياته، لا يسعى، يميل للراحة، يميل للكسل، يميل للتأجيل يميل لعدم الإتقان، طبعاً الناس ينصرفون عنه، الآن كل أنواع الحرف المتقن يعمل طوال العام، مهما تكن السوق كاسدة فعمله مغطى طوال العام، أما حينما تروج بعض السلع المقصر والمهمل يبيع، يبيع في أثناء الرواج فقط، أما حينما تعود الأسواق إلى وضعها الطبيعي الذي لا يتقن عمله ليس له مكان في المجتمع.

فيا أيها الإخوة، أنا لا أرَى في موضوعات العقيدة، وموضوعات السلوك موضوعاً أخطر من هذا الموضوع لهذه المرحلة التي نمر بها، دائماً الدول المتقدمة تخطط لعشرين سنة قادمة.

مرة التقيت بمهندس سيارات في أمريكا، سألته عن عمله، فقال لي: أنا مهمتي أن أصمم مركبة لسنة ٢٠١٥.

هناك متغيرات، هناك طاقة، أسعار الطاقة، بنية الأسرة، كل الدول القوية تخطط لخمس وعشرين سنة قادمة، والدول غير متقدمة كل حركتها ردود أفعال، يتفجر أمام حدث، يفكر في موقف من هذا الحدث، دائماً تفاجأ، دائماً تحاصر، دائماً ينتزع منها المبادرة، فالأخذ بالأسباب جزء من الدين. يقول لي طالب: أنا مؤمن، أنا أصلي، أنا من أهل المسجد، الله ينجحني، بأعلى علامات، لو ما درست، هذا كلام فارغ، يجب أن تدرس، لكن أحياناً إذا كان هناك سبب قاهر حال بينك وبين الدراسة الله عز وجل يوفقك، الله يرمم التقصير أحياناً، إذا كنت معذورًا عند الله.

الآن أمامنا سوق مشتركة، فالدول القوية عندها بضاعة متقنة إلى درجة متناهية، ولأن المصاريف مضغوطة هناك إلى درجة متناهية، أسعارها متناهية في الرخص.

فأنت ترتاح، عندك معمل، عندك مؤسسة، مصاريفك عالية جداً، موادك الأولية اشتريتها محلياً، ما بحثت عن أصول المواد، تفاجأ أنك لا تبيع إطلاقاً، أعدانا ألداء، هذه منافسة، طبعاً تقتضي المصلحة أن تكون ثمة سوق مشتركة، كل شيء الآن مسموح استيراده، فكل صناعة محلية لا تنتبه إلى الأخذ بالأسباب والإتقان، وضغط المصاريف، وتوسيع الصناعة حتى تقلّ الكلفة لا تنجح. أنا مضطر أن أروي هذه الطرفة:

ذهب أحدهم إلى بلد بعيد، وجد أدمغة تباع على الطريق، استغرب، هذا الدماغ لأمة معينة ثمنه دولار، هذا الدماغ دولاران، هذا ثلاثة، حتى وجد دماغًا تابعًا لقوميته بألف دولار، شعر بنشوة، وباعتزاز لا حدود له، سأل، قال: هذا لماذا هو غالٍ، قيل له: لم يعمل بعدُ.

فيجب أن نفكر، يجب أن نأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم نتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، تدرس أعلى درجة، تقول له: يا رب، توكلت عليك، أنت الموفق ، تجري مراجعة للسيارة لأعلى درجة، يا رب، أنت الحافظ، تدرس السوق إلى أعلى درجة، تقول: يا رب، أنت الجبار، تسمد الأرض، وتعشبها، وتحرثها، تقول: يا رب، أنت الرزاق، تقول: رزاق بعد بذل جهد، هذا الذي يمكن أن يحل مشكلات المسلمين.

الآن هناك تقصير، وتسيب، وإرجاء، وإهمال، وعدم إتقان، وتواكل، هذه أمراضنا، والعلاج هذا الموضوع، رعاية الأسباب، والمؤمن يأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم يتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في سورة الأحزاب قوله تعالى:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (٣٠))

(سورة الأحزاب)

إطلاقاً من هذه الآية أن في كل مجتمع أناسًا ممكنين في الأرض، قال تعالى:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

(سورة فاطر)

إنسان قوي، إنسان غني، إنسان عالم، إنسان حاكم، هؤلاء المتميزون الممكّنون في الأرض لهم حساب خاص، إن أحسنوا فلهم أجر مضاعف، وإن أساؤوا فعليهم عقاب مضاعف، إن أحسنوا لهم أجر مضاعف، أجرهم وأجر من قلدهم، لأن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا)

(سورة الإسراء الآية: ١٦)

المترفون متبعون، المترفون في نظر الناس وفي سمعهم، المترفون معظمون لذلك

(أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

(فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦))

(سورة الإسراء)

النتيجة أن أي إنسان إذا مكنه الله في الأرض، والآية واسعة جداً، معلّم الصف إذا دخن فعليه وزر مضاعف، وزر أنه عصى الله، والطلاب الصغار يرون معلمهم، وهو قدوة لهم يدخن، فيرون التدخين من لوازم القادة، مثلاً.

سيدنا عمر كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته، وقال: " إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني "، فصارت القرابة من عمر مصيبة.

الممكّن في الأرض، أولاً: أيها الإخوة:

نحن في الحياة المادية كلما ارتفع الإنسان عن سطح الأرض اتسعت دائرة رؤيته، أنت في بيت في أحياء ضيقة من أحياء دمشق، ولا ترى شيئاً، لكن هناك بيت في رأس جبل قاسيون، ترى الشام كلها، لو ركبت طائرة ترى تقريباً مئة كيلو متر.

مرة ركبت طائرة فرأيت بيروت وطرابلس معاً، ارتفاع أربعين ألف قدم يتيح لك أن ترى مئة كيلو متر، والذي وصل إلى القمر رأى الأرض كلها، فهذه قاعدة، كلما ارتفعت اتسعت دائرة رؤيتك، أما في المسؤولية فكلما ارتفعت اتسعت دائرة مسؤوليتك، معلّم الصف له حساب، عنده ثلاثون طالبًا، أما المدير فعنده سبعمئة طالب، مدير التربية عنده محافظة بأكملها، الوزير عنده القطر بأكمله، فكلما ارتفع مقامك في العلم أو في المال أو في القوة ارتفعت مسؤوليتك، ثلاث مراكز قوى، في العلم أو في المال أو في القوة، الآن وأنت في هذا المكان العلي إن أحسنت فلك الأجر، وأجر من قلدك، لأنك كبير في نظر الناس، وإن أساءت فعليك الوزر مضاعف، وزر معصيتك، ووزر الجاهل الذي قلدك.

إذاً القادة أعلام الأمة الممكّنون في الأرض، الأغنياء، الأقوياء، العلماء، لهم حساب خاص، ثوابهم مضاعف، وعقابهم مضاعف، ثوابهم مضاعف، لأنهم قدوة، ومتبعون، وعقابهم مضاعف، ولأنهم قدوة سيئة كانوا متبعون.

أيها الإخوة، الذي يتصل بهذا الدرس أن الله يقول:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس)

(سورة آل عمران الآية: ١٤٠)

شاءت حكمة الله أن تداول الأيام بين الناس، يأتي وقت الرومان أقوياء جداً، يأتي وقت المسلمون دانت لهم الأرض، وكان سفير بعض البلاد الإسلامية في أوربة تقبل يده من قبل السفراء هناك، الإسلام وصل إلى قمة مجده حينما وصل إلى شمال إفريقيا، وفتح أسبانيا، ووصل إلى أطراف الصين، ودانت له معظم الأرض.

الآن الدور لطرف آخر: أقويا، أغنياء، يتبجحون، يتغطرسون، مستكبرون قال تعالى:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس)

يعني علاقتك بالله عز وجل لا تتأثر لا بقوة المسلمين، ولا بضعفهم، نحن ولدنا في زمن ضعف المسلمين، وهذا قدرنا، وقد يأتي جيل إن شاء الله يرون قوة المسلمين، لأن الله عز وجل يقول:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣))

(سورة التوبة)

هناك بشارة إن شاء الله، على كلٍّ دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان.

لتوضيح ذلك، يأتي رمضان في أيام الصيف الحارة كل ٣٦ سنة مرة، لو أن إنسانًا كتب له من العمر عشرة سنوات، هل يدرك رمضان في الصيف، ثم رمضان في الشتاء، دورة الصيف والشتاء أطول من عمر هذا الإنسان، لذلك قال تعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

(سورة يونس الآية: ٤٦)

يعني قد يتاح لك أن ترى مصير الظلمة، وقد لا يتاح لك، لذلك هذه الدنيا دار ابتلاء، بينما الآخرة دار جزاء، فإذا رأيت الله عز وجل يعاقب المسيئين إنه في الحقيقة يعاقب بعضهم ردعاً للباقين، وإن رأيت أنه يكافئ المحسنين هو في الحقيقة يكافئ بعضهم تشجيعاً للباقين، إنما رصيد الحساب يوم القيامة،] وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ [، يقول الله عز وجل:

(مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١))

(سورة الأحزاب)

والحقيقة أنّ هذا التداول في الأيام بين أهل الكفر وأهل الإيمان منه حكمة بالغة.

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (١٢))

(سورة الأحزاب)

امتحنوا فلم ينجحوا.

(وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً (١٤))

ثم يقول الله عز وجل:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣))

(سورة الأحزاب)

فهذه المحنة الشديدة جداً التي ألمت بالمسلمين من حين لآخر يعاني منها المسلمون، ونحن الآن نعاني منها، فهي امتحان للمسلمين، فإما أن يصمد، ويصبر، ويتوكل على الله، ويؤدي ما عليه من واجبات، ويسهم في تقوية الأمة، ويسهم في حمل همومها، وإما أن يسقط باليأس أو القنوط. أيها الإخوة الكرام، هؤلاء الذين عارضوا النبي صلى الله عليه وسلم أين هم الآن ؟ أنت حينما

تذهب إلى العمرة، أو على الحج تقف أمام الصديق، وتسلم عليه، وتقف أمام عمر، وهؤلاء كانوا من أتباع النبي ، أما الذين حاربوه، وقاوموه كأبي جهل وأبي لهب أين هم الآن ؟

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

إخواننا الكرام، عظمة هذا الدين أنه قابل للتصديق، والمسلمون أقوياء، والمسلمون ضعفاء، سيان، دخلت إلى بيتك، بإمكانك أن تصلي، وأن تقرأ القرآن، وأن تذكر الله، وأن تربي أولادك، ودخلت إلى عملك بإمكانك أن تكون صادقاً، وأميناً، وعفيفاً، ومحسناً، ورحيماً مشيت في الطريق بإمكانك أن تغض بصرك، شاعت عقائد الكفر، بإمكانك أن تعتقد العقيدة السليمة، ولا يستطيع كائن من كان على وجه الأرض أن يكشف ماذا تعتقد، فوسائل التدين موفورة في قوة المسلمين وفي ضعفهم، والإسلام هو دين دولة، ودين أفراد، لو أن القوة ليست بيد المسلمين إطلاقاً، هو دين لكل إنسان، فلذلك هذا الدين لا تقلق عليه أبداً، إنه دين الله، اقلق ما إذا سمح الله لك، أو لم يسمح أن تكون أحد جنوده.

أيها الإخوة الكرام، فحينما نري الله عز وجل من أنفسنا خيرا لعل الله سبحانه وتعالى يرحمنا، ويعتقنا من النار، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن هذه الصفات التي جهدنا بها في رمضان، ومكننا الله منها في رمضان، وأعاننا عليها في رمضان أن نتابعها بعد رمضان.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٣٩-٦٤) : الآية (٤١) من سورة فاطر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرامإذا كان أحدكم في طابق مرتفع، ورأى مركبة من أعلى، رآها تقف عند الإشارة الحمراء، فلما أصبحت خضراء انطلقت، فلما اقترب منها طفل أطلقت بوقها، فلما رأت اتجاهاً إجبارياً نحو اليمين انعطفت، هذا الذي يرى المركبة من علٍ، ولا يرى من فوق سائقها بماذا يحكم ؟ فيها سائق بالمئة مئة، لأن المادة لا تعقل، حديد، وبترول، ومواد من أصل كيميائي، هذه لا يمكن أن تعقل، الآن نحن أمام آية من آيات الله الدالة على عظمته، يقول الله عز وجل في سورة فاطر:

(إِلَّا غُرُوراً (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١))

(سورة فاطر)

أيها الإخوة، هذا الذي سأتلوه عليكم من الحقائق من المسلّمات والبديهيات مما يقرأه الطلاب في المرحلة الثانوية، الأرض تدور حول الشمس بسرعة ثلاثية كيلو مترًا في الثانية، نحن في هذه الصلاة استمرت ستين دقيقة، بستين ثانية، ثلاثة آلاف وستمئة، في كل ثانية ثلاثون كيلو مترًا ضرب ثلاثين ثلاثة آلاف وستمئة، ضرب ثلاثين، حتى الآن قطعنا في رحلتنا حول الشمس مئة وثمانية آلاف كيلو متر من دمشق إلى اللاذقية ثلاثمئة وستون حول الأرض، أربعون ألفًا ! مئة وثمانية آلاف من بدء صلاة التراويح حتى الآن.

فالأرض تدور حول الشمس، ولكن المسار ليس دائرياً، بل هو بيضوي، ومعنى هذا أن له قطرين، قطرًا أكبر وقطرًا أصغر، الآن الأرض في مسيرتها حول الشمس حينما تصل إلى القطر الأصغر هناك احتمال أن قوى التجاذب بين الكواكب يحكمها الكتلة والمسافة، فإذا قلّت المسافة ازدادت قوة الجذب، فحينما تقترب الأرض من القطر الأصغر هناك احتمال أن تنجذب إلى الشمس، وإذا انجذبت قال بعض العلماء: تتبخّر الأرض في ثانية واحدة، لأن الحرارة في جوف الشمس في مركزها عشرون مليون درجة !

إلهنا وربنا يزيد من سرعتها، إذا اقتربت من القطر الأصغر من أجل أن ينشأ من هذه الزيادة قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة، يد من ؟ الصخور بإمكانها أن تظهر هذه الحقائق، الآن تابعت سيرها، فوصلت إلى القطر الأكبر، هناك احتمال، لأن المسافة بينها وبين الشمس زادت، فتضعف قوى الجذب، يوجد احتمال أن تتفلت الأرض من مسارها حول الشمس، فتمشي بفضائها الخارجي،

وتنعدم الشمس وحرارتها وضيائها، فتكون الأرض مقبرة جليدية للبشر، وتنتهي الحياة، لذلك في هذه المنطقة الحرجة تتباطأ سرعتها لينشأ من تباطئها قوة نابذة أقلّ تكافئ القوة الجاذبة الأقلّ، ترتفع سرعتها، وتقلّ، لكن الشيء المحير اللطيف أن هذه الزيادة هي تسارع بطيء، والتباطؤ بطيء، لو كان التسارع سريعاً والتباطؤ سريعاً لانهدم كل ما على الأرض، وهذا من لطف الله عز وجل:

(إِلَّا غُرُوراً (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١))

والزوال هنا الانحراف، فإذا زالتا بالمعنى الأول، زالتا بالمعنى الثاني: تلاشتا، إما أن تتبخر في ثانية واحدة، أو تكون قبراً جليدياً لجميع الكائنات الحية، يد من ؟

أنت في أعلى طابق ترى مركبة تتحرك، عند الإشارة الحمراء توقفت، فلما تألقت الإشارة الخضراء انطلقت، فلما اقترب منها طفل أطلقت بوقها، فلما كان الاتجاه نحو اليمين إجبارياً انعطفت نحو اليمين، فيها سائق بالمئة مليون، وهذه الأرض التي تدور حول الشمس، تسرع تارة بتسارع بطيء، وتبطئ تارة بتباطؤ بطيء.

ولو أن هذه الأرض تفلتت من جاذبية الشمس، وسارت في الفضاء الخارجي، وأردنا جدلاً أن نعيدها نحتاج إلى مليون مَليون حبل فولاذي، قطر الحبل خمسة أمتار، وهذا الحبل الفولاذي الذي قطره خمسة أمتار يقاوم من قوى الشد ما يساوي مليوني طن.

الأرض منجذبة نحو الشمس بقوة تساوي مليونين ضرب مليون مليون، المليون مليون اثنا عشر صفرًا، ضرب مليونين أربعة وعشرون، أمامها ثمانية عشرة صفرًا، هذه قوة جذب الشمس للأرض، من أجل أن تحرفها عن خط مستقيم ثلاثة ميليمترات كل ثانية، هذه حقائق بديهية.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ)

(سورة فاطر)

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

لو زرعنا هذه الحبال على الوجه المقابل للشمس لما كان بين الحبلين إلا خمسة أمتار، ومعنى هذا أنه لا طيران، ولا مواصلات، ولا سفن تعبر المحيطات، ولا زراعة، ولا شمس، نحن في غابة، فتأتي الآية الثانية:

((١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد)

أي بعمد لا ترونها، لذلك:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

إخواننا الكرام، هذه الآيات الكونية في القرآن الكريم أتمنى على كل واحد منا أن يتابعها، ويدقق فيها، لأنها طريق معرفة الله.

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦))

(سورة الجاثية)

ما من طريق إلى تعظيم الله إلا عن طريق التفكر في آياته، وتفكر ساعة خير من قيام سنة !! لأننا على مشارف ليلة القدر، والآية الكريمة:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر)

طريق تقدير الله التفكر في خلقه، فإذا عرفنا الله، ثم عرفنا أمره تفانينا في طاعة الآمر، أما حينما نعرف الأمر، ولا نعرف الآمر نتفنن في التفلت من الأمر، فهذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١))

من هي القدرة التي يمكن أن تضبط حركة الكواكب ؟ لولا أن الكواكب تدور حول كواكب أخرى لأصبح الكون كتلة واحدة حسب قانون الجاذبية، الكون كله يصبح كتلة واحدة ! لكن الشيء العجيب أن كل كوكب في حركته الدائرية ينشأ عنها قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة.

مثل للتقريب: لو جئنا بسطح طاولة، وأتينا بكتلتين مغناطيسيتين متساويتين تساوياً تاماً، وكلفنا أحد الإخوة الكرام أن يضع بينهما كرة حديدية حيث لا تنجذب لا إلى اليمنى ولا إلى اليسرى، يبذل جهدًا يفوق حد الخيال، لو انزاحت واحدًا بالألف من الميل تنجذب، لو كان الكتلتين ليستا متساويتين فالأمرُ أصعب بكثير، يلزمها حسابات، أنا أفترض كتلتين متساويتين تماماً، لو أن الكتلتين مختلفتان في الحجم يلزمها رياضيات، لو كانت ثلاث كتل أصعب، أربعة أصعب، حسابات دقيقة جداً، لو كانت هذه الكتل في الفراغ كتلة عليا، وكتلة سفلى، وكتلة نحو اليمين، وكلفنا أحداً أن يضع كرة في الفضاء حيث تكون محصلة قوى التجاذب سكون هذه الكرة، هذا فوق طاقة البشر جميعاً. الآن لو تحركت هذه الكرات، هي متحركة، ومتفاوتة في أحجامها، وأبعادها، وحركتها، والمحصلة كن مستقر.

أيها الإخوة، شيء لا يصدق، هذه قوى التجاذب، ومن لطف الله عز وجل أن قوى التجاذب لا ترى بالعين، يمكن أن تمشي فيها، لا تراها بالعين، وهذا من لطف الله عز وجل، يمكن أن ننشئ بناء مئة طابق، أعلى من الأرض خمسين مترًا، وليس له علاقة بالأرض أبداً ! هل يوجد في الأرض كلها

من يفعل هذا ؟ مئة طابق من إسمنت مسلح لا علاقة له بالأرض أبداً، منتصب، هناك قوى، لكنها غير مرئية، يمكن أن تمشي فيها، هذا من لطف الله عز وجل، فكلما تفكرنا في خلق السماوات والأرض كلما ازددنا خشية له وأطعناه.

لذلك:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١))

(سورة آل عمران)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٤٠-٦٤) : من لوازم الإيمان حياة القلب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

من لوازم الإيمان :

أيها الإخوة الكرام ؛ من لوازم الإيمان حياة القلب ، هناك قلب ميت وقلب حي ، الدليل من كتاب الله، أن الله سبحانه وتعالى يقول :

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ)

[سورة الأنعام الآية : ١٢٢]

مات قلبه بالمعصية والبعد والقطيعة عن الله عز وجل ، فلما تاب إلى الله ، واصطلح معه ، صار قلبه حياً ، لذلك هذه الآية أصل في هذا الباب :

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ)

[سورة الأنعام الآية : ١٢٢]

آية أخرى تؤكد هذا المعنى :

(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ)

[سورة النمل الآية : ٨٠]

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[سورة فاطر الآية : ٢٢]



الإنسان أحياناً يكون مقبوراً بشهوته ، شهوته حجاب له عن كل شيء ، حبك الشيء يعمي ويوصل .

آية ثالثة :

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى الآية : ٥٢]

هذا القرآن نور ، وهو روح يحيا به القلب ، كيف أن الجسم يحيا بالطعام والشراب ، فالقلب يحيا بالقرآن ، هو شفاء لما في الصدور ، فهو نور ، وفي الآية الثانية هو نور ، فهو نور وروح ، قال تعالى :

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

[سورة النحل الآية : ٢]

حياة القلب :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية : ٩٧]

الحياة الطيبة هي حياة القلب ، نعيم القلب بذكر الله ، وبهجة القلب بالاتصال بالله ، معرفة الله ، محبته ، الإنابة إليه ، التوكل عليه ، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها ، ولا نعيم فوق نعيم إلا نعيم الجنة .

أيها الإخوة ، الشيء الواضح أن المؤمن قلبه حي ، وحينما قال الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال الآية : ٢٤]

وحينما قال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

قد تجد إنسانًا في أعلى درجات الحياة المادية ، تعمل أجهزته بانتظام نشيط ، حواسه سليمة ، وأعضاؤه سليمة ، وأجهزته سليمة ، بأعلى درجة من الحيوية ، وهو عند الله ميت ، وقد تجد إنسانًا فيه كل العلل ، وهو عند الله حي ، فالعبرة بحياة القلب لا بحياة الجسد .

ما الفرق بين إنسان صحته طيبة جداً وبين نبي ؟ القلب ينبض ، والرئتان تتحركان ، الأجهزة كلها تعمل بانتظام عند هذا وعند ذاك ، لكن بين الاثنين كما بين الأرض والسماء من حيث حياة القلب .
أيها الإخوة ؛ أول شيء الحياة لها أبواب ثلاثة :

أول حياةٍ حياةُ العلم :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء الآية ١١٣]

يبدو أن أعظم عطاء على الإطلاق أن تتعرف إلى الله .



(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء الآية ١١٣]

وكنت أشرح هذه الآية بمثل :

لو أن طفلاً قال لك : أنا معي مبلغ عظيم ، كم تقدر هذا المبلغ ؟ مئة ليرة ، ولو قال مسؤول في دولة طاغية : أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً لقدرته مئة مليار دولار ، فإذا قال مالك الملوك رب الوجود :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء الآية ١١٣]

يجب أن تعلم ما فضل الله عليك إذا تعرفت إلى الله ، وإذا فهمت هذا القرآن ، وعملت به .

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء الآية ١١٣]

أيها الإخوة ؛ يقول أحد الصحابة الكرام ، وهو معاذ بن جبل : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربى ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة ، هو الأنيس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة ، وأئمة تقتص آثارهم ، و يقتدى بأفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة بخلتهم ، بأجنحتها تمسحهم ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البحر وأنعامه ، لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلا في الدنيا والآخرة ، التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وهو إمام العمل ، والعمل تابع له ،

يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء ، العلم حاجة عليا في الإنسان ، وما لم يطلب الإنسان العلم فليس من بني البشر ، بل ينتمي إلى صنف آخر ، بطلب العلم يؤكد الإنسان إنسانيته ، هو الحاجة العليا في الإنسان .

يروى عن سيدنا لقمان : يا بني جالس العلماء ، وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة ، كما يحيي الأرض بوابل القطر .

أريد أن أبين لكم الفرق بين إنسان يعرف الله وإنسان لا يعرفه ، مع أنهما من بني البشر، تصور قطعة لحم متفسخة ، قد تفوح رائحتها من مئة متر ، ولا تستطيع أن تواجه هذه الرائحة ، بل تغلق أنفك حينما تمر بهذه الجيفة ، وهي قطعة لحم ، وقد تمر بقطعة لحم مشوية طازجة ، وأنت جائع ، وهذه قطعة لحم ، الفرق بين القطعتين كما بين السماء والأرض ! الإنسان الجاهل كتلة غباء وحمق ، وقسوة وبذاءة ودناءة ..... هذا الجاهل هو دابة ، بينما الذي تعرف إلى الله كله لطف ورحمة ، وتواضع ومحبة ، وأنس وإنصاف ، وعدل وعطاء ، وبذل وتضحية ، ومؤاثرة ، الفرق بين الذي عرف الله فانضبط بمنهجه ، وأحسن إلى خلقه ، وبين الذي غفل عن الله فتفلت من منهجه ، وأساء إلى خلقه كما بين الحي والميت .



الآن هناك حياة الإرادة ، تجد إنسانًا إذا قلبه ميت ، إرادته ضعيفة ، لا يقوى على فعل شيء ، ولا يحب أن يقدم شيئاً ، يستقبل ولا يعطي ، يتلقى ولا يلقي يستغل ، ولا يضحي ، فالذي ضعف قلبه ضعفت إرادته مع قلبه ، لا يوجد عنده رغبة ليفعل شيئًا ، أو يتحرك ، أو يتكلم ، أو يعود مريضًا ، أو ينصح إنسانًا ، أو يأمر بالمعروف ، أو ينهى عن المنكر ، كسل ، وقعود ، وتقويم للناس .

لذلك أقول هذه الكلمة : أنا أحب إنسانًا حبًّا لا حدود له ، لأنه لا يخطئ ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق ، عصمه الله من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره ، وأحتقر إنسانًا أشد الاحتقار ، وهو لا يخطئ ، لأنه لا يعمل ، لم يفعل شيئًا ، بل يقيّم الناس ، ويوزع التهم الباطلة ، يأخذ ولا يعطي ،

يستغل ولا يضحي ، هذا الإنسان ضعيف الإرادة ، هو إنسان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، قال بعض الشعراء :

نهارك يا مغرور سهم و غفلة و نومك ليل وردّ لـك لازم

تسر بما يفنى و تفرح بالمنى كما غرّ باللذات في النوم حالم

***

أيها الإخوة الكرام ؛ كما أن الله سبحانه وتعالى جعل حياة البدن بالطعام والشراب جعل حياة القلب بدوام الذكر .

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد الآية : ٢٨]

الصلاة ذكر ، والتلاوة ذكر ، والاستغفار ذكر ، والتسبيح ذكر ، والحمد ذكر ، والتوحيد ذكر ، والتكبير ذكر ، والدعاء ذكر ، وطلب العلم ذكر ، فالذكر يدور معك في كل أحوالك .

سؤال :

من هو الميت ؟ ...

قال : الذي لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، كله مقبول عنده ، يوجد كلمة شائعة بين الناس يقول : (عادي) ، فعلت كذا ، العادة كلمة مستحدثة ! ارتكبت الفاحشة ، عادة ، فهذا الذي مات قلبه لا يتأثر بشيء ، ولا ينضبط بشيء ، ولا يوجد قيمة تردعه ، ولا هدف يسعى إليه ، ولا حواجز تحد حركته .



أيها الإخوة ؛ بقي في حياة القلب حياة البشر ، تجد المؤمن بشره في وجهه ، متفائل ، يتلقى المصائب بصدر رحب ، هو أميَلُ إلى العطاء منه إلى الأخذ ، مثلاً قال تعالى :

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ)

[سورة القلم الآيات : ١٠-١٣]

هذا موت القلب ، لاحظ موت جواد شجاع ، بر عادل ، عفيف محسن ، تجد الأول ميتاً والثاني حياً. تجد المؤمن بشره في وجهه ، يرحب ، يستقبل ، يصبر ، يتفاءل ، قريب من النفس ، تأنس بذكره ، أولياء أمتي إذا رأوا ذكر الله بهم ، حياة القلب كما كان صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، وأهله ، ومع الغريب والقريب ، سعة الصدر ، ودوام البشر ، وحسن الخلق ، والسلام على من لقيه ، والوقوف مع من استوقفه ، والمزاح بالحق مع الصغير والكبير أحياناً المؤمن مرح يضفي على الجو أنسًا ، مرحه شرعي ، والمرح من صفات العظماء ، والنبي كان مرحاً ، كان يداعب أصحابه ، ويمزح معهم ، فالضحك المعتدل والمزاح الحق ، والبشر والتفاؤل والترحيب ، والمؤانسة هذه من صفات القلب الحي ، يجيب الدعوة ، لين الجانب ، حتى يظن كل واحد من أصحابه أنه أحبهم إليه ، هذا عمل يفوق حد الطاقة البشرية .


المؤمن مرح يضفي أنسا على الجو

أي إنسان صاحبك يظن أنه أقرب الناس إليك ، فقلب الأنبياء والعارفين بالله كبير ، وقلب المؤمنين الصادقين كبير ، يتسع لكل إنسان ، ولكل هفوة وخطأ ، يوجد إنسان إذا خاصم انفجر ، إذا أخطأت معه بكلمة يقيم الدنيا ولا يقعدها ، بينما اقرؤوا قصص الأنبياء :

(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ)

[سورة يوسف الآية : ٩٢]

اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون – اذهبوا فأنتم الطلقاء – من علامات حياة القلب قوله تعالى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران الآية : ١٥٩]

بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد كنت ليناً لهم ، فلما كنت ليناً لهم التفوا حولك ، وأحبوك ، ولو كنت منقطعاً عنا لاستقر في قلبك القسوة ، ولانعكست القسوة غلظة وفظاظة ، فينفض الناس من حولك ، معادلة رياضية ! تتصل بالله ، تشتق من الرحمة ، تنعكس ليناً ، يلتف الناس حولك ، تنقطع عن الله ، يستقر في القلب القسوة ، تنعكس غلظة ، فينفض الناس من حولك .

فلذلك حينما يكون الإنسان مؤمناً ، وقلبه حي يلتف الناس حوله ، ومعنى التفاف الناس حوله أنهم أحبوه ، لماذا أحبوه ؟ أحبوا ما عنده من كمال ناتج عن اتصاله بالله عز وجل ، لذلك بشكل دقيق

يمكن أن نصنف الناس إلى صنفين ، أصحاب الأقوياء ، أو أصحاب الأنبياء ، الأقوياء ملكوا الرقاب بقوتهم ، أخذوا كل شيء ، ولم يعطوا شيئاً ، والأنبياء ملكوا القلوب بكمالهم ، أعطوا كل شيء ، ولم يأخذوا شيئاً ، والناس جميعاً أتباع نبي أو قوي .

الشرطي نفسه معه دفتر تابع لقوي ، لأنه ضبط ، مؤمن تابع للنبي ، لأنه لطيف كريم متسامح ، فالناس أتباع لأقوياء أو لأنبياء ، أتباع الأقوياء قوتهم فيما عندهم من سلطة ، وأتباع الأنبياء قوتهم في كمالهم ، الأنبياء ملكوا القلوب ، والأقوياء ملكوا الرقاب ، وشتان بين من يملك القلوب وبين من يملك الرقاب ، والفرق بين النبي والقوي أن القوي يمدح في حضرته ، بينما النبي يمدح في غيبته ، والبطولة أن تمدح في غيبتك لا في حضرتك ، قد تكون قوياً فيخاف الناس منك ، يمدحونك ، وينافقون لك ، البطولة أن تمدح في غيبتك لا في حضرتك .

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

[سورة السجدة الآية : ٢٤]

قالوا العلماء ثلاثة :

عالم استنار بنوره ، واستنار الناس به ، فهذا من خلفاء الرسل .

وعالم استنار هو بنور الله عز وجل ، ولم يستنر به غيره ، انعزالي ، أقرب إليه أنه عابد منه إلى عالم .

يوجد إنسان وصل إلى الله ، لكن لا يحب أن يوصل هذا النور إلى أحد ، اكتفى وصل ، واكتفى ، وارتاح ، والناس كلهم هلكى !! يقول : هلك الناس ، يوجد إنسان وصل ، وأراد أن يوصل هذا الخير إلى كل الناس ، فرق كبير بينهما ، إنسان وصل ، وأوصل ، وإنسان وصل ، ولم يوصل أحداً .

وعالم متحذلق ، لم يستنر بنور الله ، ولا استنار به غيره ، فهذا علمه وبال عليه ، وبسطته للناس فتنة لهم ووزر عليه !

إنسان سعد وأسعد ، وإنسان سعد ولم يسعد أحداً ، إنسان لم يكن سعيداً ، ولم يسعد أحداً .

أيها الإخوة الكرام ؛ حياة القلب سببها الاستقامة على أمر الله ، وسببها دوام الذكر ، والأعمال الصالحة .

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف الآية : ١١٠]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٤١-٦٤) : الأسباب الجالبة لمحبة الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من لوازم الإيمان المحبة، هذه المنزلة، منزلة المحبة تنافس فيها المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو في جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.

أيها الإخوة، هناك علاقة واحدة بينك وبين الله، هي علاقة العبودية، فالرب رب، والعبد عبد، وليس في مقام العبودية شيء من الربوبية، أنت عبد، وهو رب، ولا ترقى إلى أعلى مستويات البشر إلا إذا كنت عبداً لله، فلما بلغ النبي عليه الصلاة والسلام سدرة المنتهى أوحى إلى عبده ما أوحى، والعبودية تعني بشكل واضح المحبة، لو أن الله أرادنا أن نطيعه لأجبرنا على طاعته، ولكنه أرادنا أن نحبه، أن نأتيه محبين، أن نأتيه طائعين، أن نأتيه مشتاقين، أن نأتيه بمبادرة منا، فلذلك علاقة العبد بالرب علاقة العبودية، وعلاقة الرب بالعبد علاقة ربوبية، وهذه العلاقة أساسها المحبة، فالمحبوبية هي سر وجود الإنسان على سطح الأرض.

أيها الإخوة، العبودية روح الإيمان، روح الأعمال، روح المقامات، روح الأحوال، من خلا من المحبة فهو كجسد بلا روح، لو ألغيت المحبة من الدين لصار الدين جسداً بلا روح، جثة هامدة، ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، لأن المرء مع من أحب، فإذا كنت مع الله كان الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

أيها الإخوة الكرام، من أقوال بعض العارفين أن هذه المحبة أقيمت في سوق للعرض، فمن زاد في دفع الثمن نالها، فلم يرضَ الله لها ثمناً دون بذل النفوس، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة: ١١١]

هذا أقدس بيع في الكون، أن تبيع نفسك لله، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢))

[سورة الأنعام: ١٦٢]

لكن لأن المحبة تدَّعى، فلما ادعاها الكثيرون طولبوا بالدليل، والدليل قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: ٣١]

فدليل المحبة اتباع النبي عليه الصلاة والسلام.

أيها الإخوة الكرام، أدق شيء في موضوع العلاقة مع الله عز وجل أن العلاقة مع الله لها قواعد، وليست علاقة مزاجية، وليست علاقة لا تنضبط بضوابط، فبعض العلماء عدد أسباب المحبة، كيف تحب الله ؟ وكيف يحبك الله ؟ فقال:

الأسباب الجالبة للمحبة كثيرة، منها قراءة القرآن بالتدبر، والفهم، والعلم بما في القرآن الكريم، القراءة الصحيحة المجودة إن أمكن مع الفهم، والتدبر، والعمل، هذا معنى قوله تعالى:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

[سورة البقرة: ١٢١]

يتلونه وفق قواعد اللغة إن أمكنهم، يتلونه وفق قواعد التجويد، يفهمونه، يتدبرونه، بمعنى أنهم يفحصون أنفسهم في مستوى الآيات، ثم يعملون به، فهذه توجب المحبة.

الشيء الثاني: هو التقرب إلى الله بالنوافل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ))

[البخاري]

فالزكاة فرض، لكن الصدقة نافلة، فربما ارتقيت بالصدقة أكثر مما ترتقي بالزكاة، ذلك لأن الله عز وجل يقول:

(وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

[سورة البقرة: ١٧٧]

على أنه يحب المال أنفقه في سبيل الله، فالنوافل بعد الفرائض.

من الأسباب التي تجلب المحبة دوام ذكر الله عز وجل، إن أردتم محبة الله عز وجل فأكثروا من ذكر الله، قال تعالى:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥))

[سورة الإنسان: ٢٥]

لكن ذكر الله يدوم مع الإنسان كيفما تحرك، بدءاً من الدعاء، الاستغفار، التسبيح، التوحيد، التهليل، التكبير، المناجاة، التذلل، قراءة القرآن، الصلاة، دراسة العلم، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، هذا كله ذكر.

من الأسباب الجالبة للمحبة أن تؤثر محابه على محابك عند غلابات الهوى، الله يحب منك شيئاً، وأنت تحب شيئاً، فإذا آثرت ما يحب على ما تحب دفعت ثمن المحبة، والقرب من الله عز وجل، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١))

[سورة النازعات: ٤٠-٤١]

من الأسباب الجالبة للمحبة أن تعرف أسماءه الحسنى، أنت تقول: الله خالق السماوات والأرض، أما حينما تعرف طرفاً من رحمته، طرفاً من قدرته، طرفاً من حلمه، طرفاً من عدله، حينما تطالع أسماءه الحسنى، وصفاته الفضلى تكون قد سرت في طريق المحبة، ثم إن المحبة تقتضي أن تشاهد آلاءه وإحسانه، أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه، يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب، إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي وبلائي، ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني.

من الأسباب الجالبة للمحبة أن تكون فيما بينك وبينه منكسر القلب، وأن تكون قوياً على الناس الذين لا يعرفونه، قال تعالى:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة: ٥٤]

فكلما مرغت جبهتك في أعتابه ازددت قرباً منه، وكلما تذللت له أعزك بين الناس، وكلما خضعت له رفع ذكرك بين الناس.

من الأسباب الجالبة للمحبة أن تخلو به، يا موسى أتحب أن أكون جليسك ؟ قال: كيف ذلك يا رب ؟ قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني، فإذا خلوت معه في صلاة، في ذكر، في قيام ليل، في مناجاة، فهذا دليل محبته، ودليل أن هذا العمل يجلب محبة الله عز وجل.
من الأسباب الجالبة للمحبة أن تجالس المحبين الصادقين، وأن تلتقط من أطايب ثمراتهم، لا أن تجالس أهل الدنيا المعرضين الغارقين في شهواتهم، فقل لي من تصاحب أقل لك من أنت، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨))

[سورة الكهف: ٢٨]

أيها الإخوة الكرام، من الأسباب الجالبة للمحبة أن تبتعد عن كل شيء يحجبك عنه، إذا كنت سعيداً بهذه الصلة مع الله فأي سبب يقطعك عن الله يجب أن تبتعد عنه، وهذا يعرفه أي إنسان بالفطرة، المشكلة وأنت مسلم، وأنت محسوب على المسلمين، ومحسوب على الموحدين قد يتخذ الإنسان من دون الله أنداداً، قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)

[سورة البقرة: ١٦٥]

قد يقول قائل: أيعقل أن يدعي إنسان أن هذا الإنسان إله ؟ لا، لا يدعي أنه إله أبداً، هو يقول: إنه بشر، ولكن إن أطعت مخلوقاً، وعصيت خالقاً فقد جعلته نداً لله عز وجل، إذا أطعت مخلوقاً، وعصيت خالقاً هذا الذي أطعته جعلته نداً لله، وكأنك عبدته من دون الله، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً)

[سورة البقرة: ١٦٥]

أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة: ٥٤]

فكل من يحب الله عز وجل أساسه متين، ومركزه عند الله قوي، هذا الذي لا يمكن أن ينقلب عن دينه، والإنسان أحياناً دون أن يشعر يحب بعض البشر كما يحب الله، كما قال الله عز وجل:

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)

[سورة التوبة: ٣١]

أي خضعوا لهم، و نسوا ربهم، لذلك دخل بعض الأئمة الكبار على إخوانه فقال: يا رب، لا تحجبني عنك بهم، ولا تحجبهم عنك بي.

هناك منزلقات في طريق الإيمان، أنت حينما تعظم إنساناً، وتبتغي مرضاته، وقد لا تطيع الله كما ينبغي فهذا نوع من الشرك، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

[سورة المائدة: ٣٥]

ابتغوا على محبته الوسيلة، الوسيلة صحبة الصالحين، الوسيلة الأعمال الصالحة، الوسيلة إتقان العبادات، الوسيلة كثرة الذكر، ابحث عن وسيلة تقربك إلى الله عز وجل، لكن بقي أنك إذا قرأت القرآن وقرأت قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

[سورة البقرة: ٢٢٢]

فإذا كنت تائباً فهذا سبب لمحبة الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤))

[سورة التوبة: ٤]

إذا كنت صادقاً فهذا سبب لمحبة الله لك، قال تعالى:

(وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢))

[سورة البقرة: ٢٢٢]

إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه، لو قرأت ما في القرآن، وما في السنة لوجدت في كتاب الله، وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم أسباباً كثيرة لمحبة الله لك، ينبغي أن تحب الله، وينبغي أن تحرص على محبة الله لك، ولا تعدم في القرآن والسنة أن تجد أسباباً كثيرة لمحبة الله لك، ولمحبتك لله.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٤٢-٦٤) : الأنبياء قدوة لنا في الدعوة إلى الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، في سورة الصافات تتالت قصص الأنبياء، والأنبياء أيها الإخوة قمم البشر، وهذا الوحي الذي جاء من الله عز وجل، والمنهج القويم لا يحتاج إلى إيضاح نظري بقدر ما يحتاج إلى تطبيق عملي، لذلك مهمة الأنبياء الأولى أنهم كانوا قدوة لمن جاؤوا لهدايتهم، ذلك أن المثالية لا تعيش إلا بالمثل الحي، الآن المثل والأخلاق والقيم في بطون الكتب، لو أن هناك مليون كتاب يتحدث عن الفضائل يغني عن كل هذه الكتب إنسان أمامك يتحرك بصدق، وأمانة، وعفة، فلذلك تكاد تكون مهمة الأنبياء الأولى أن يكونوا قدوة للناس.

الآن إذا أردت أن تحتقر اتجاهاً فقل: مثالي، وإن أردت أن تزهو بمبدأ فقل: واقعي، ماذا فعل الأنبياء ؟ جعلوا المثالية واقعاً، فلذلك ما لم تتقلب المبادئ والمثل والأخلاق إلى واقع نعيشه فإنا لن نفلح في حياتنا أبداً، بطون الكتب ممتلئة بالمبادئ الرائعة، القيم السامية، والقصص المجسدة لهذه المبادئ، ولكن المشكلة اليوم أن الإسلام كقيم ومثل في واد، وأن التعامل اليومي في واد آخر، لذلك كيف يقنع الإنسان أن هذا المنهج حق ؟ حينما يرى أمامه إنساناً صادقاً، إنساناً أميناً، إنساناً عفيفاً، إنساناً موضوعياً، إنساناً منصفاً، لذلك ما فعله الأنبياء وهم قلة في تاريخ الشعوب والأمم لا يستطيع أن يفعله مئات ألوف الدعاة، الفرق هو أنهم كانوا قدوة، وأنهم فعلوا في سلوكهم ما عبروا عنه بألسنتهم.

من هذه الأمثلة، قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥))

[سورة الصافات: ٧٥]

هذا النبي الكريم الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ما هذا النفَس الطويل في الدعوة ؟ قال تعالى:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (٦))

[سورة نوح: ٥-٦]

النفَس الطويل في الدعوة، أنت أحياناً تجلس مع إنسان تراه معرضاً تنصرف عنه كلياً في جلسة واحدة، أما حينما يكون هذا النبي الكريم الذي بقي في أمته ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو إلى الله فهذا قدوة لنا.

الشيء الذي أنا أعجب منه أنه لا يخطر في بال واحد من الناس أن يكون الأنبياء قدوة له، هم قدوة لنا، قصصهم منهج، أمثلتهم طريق، الحقائق الذي جاؤوا بها هي مبادئ، فأي نبي جاءت قصته في القرآن الكريم ينبغي أن يكون قدوة لنا.

سيدنا إبراهيم فتى، رأى عبادة الأصنام، وكان أبوه عابد صنم، ونصحه بكل أدب، قال تعالى:

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً (٤٣))

[سورة مريم: ٤٣]

وماذا فعل ؟ ضحى بحياته حينما أقدم على تكسير الأصنام، وأراد أن يلفتهم إلى الواحد الديان، قال تعالى:

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣)

[سورة الأنبياء: ٦٣]

الإنسان أحياناً يسكت عن الحق سلامة، ومداراة، وخوفاً، ورغبة في أن يكون في مأمن من أي مساءلة، أما سيدنا إبراهيم فضحى في حياته من أجل أن ينكر المنكر، يقابل هذا المنهج النفاق نفاق لا يتصور، عليك أن تكون سليماً معافى، لك دخل كبير، وتعيش حياة فارهة، وليكن الطوفان، لذلك أهجى بيت قالته العرب، والذي دخل من أجله هذا الشاعر السجن:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

هذا البيت الذي يعد أهجى بيت قالته العرب هو مثل أعلى لكل إنسان، يقول لك: فخار يكسر بعضه، علي أن أنجو، أن أكون مرتاحاً، انسحاب من هموم الأمة، انسلاخ من حمل الرسالة، كل واحد انتماؤه شخصي، أما هذا النبي الكريم فضحى بحياته من أجل إحقاق الحق، ما هذا الفهم عن الله عز وجل ؟ أب يقول لابنه: إني أرى في المنام أني أذبحك، فيقول الابن: يا أبت افعل ما تؤمر، بلاء مبين.

هؤلاء الأنبياء أيها الإخوة الكرام ينبغي أن نقرأ قصصهم، وأن نجعل من مواقفهم قدوة لنا. سيدنا موسى الذي ابتلي بترك بلده، ومشى من مصر إلى مدين، مشى على ساحل العقبة والسويس مئات الكيلو مترات في البراري والصحارى مع الخوف، خرج منها خائفاً، الآن إذا دعا الإنسان إلى الله الكل يحترمه، والكل يبجله، والكل يرفعه، وما قدم شيئاً، هؤلاء الأنبياء الذين ضحوا بحياتهم، وراحتهم، واستقرارهم، وطمأنينتهم من أجل الدعوة إلى الله، الإنسان كلما قرأ عن هؤلاء الأنبياء يشعر أنه لا شيء، هم قدوة لنا، ثم إن هذا النبي الكريم يواجه طاغية من طغاة العصر، قتلُ الإنسان أهون عنده من قتل ذبابة، ويقول له موسى بكل جرأة: إنك لست إلهاً، إنك عبد من عباد الله.

سيدنا يونس دعا قومه إلى أن شعر أنه لا خير فيهم، فلما تركهم عاتبه الله عز وجل وجعله في بطن حوت.

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه حينما بلغه أن مسطحاً هو الذي روج حديث الإفك، واتهم ابنته الطاهرة بالزنا، فقرر ألاّ يتابع مساعدته له، عاتبه الله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام، نحن حينما نقرأ هذه القصص، وننتفع بها هؤلاء الأنبياء قمم الكمال، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحاً وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣))

[سورة آل عمران: ٣٣]

سيدنا داود ماذا فعل ؟ جاءه خصمان، وكان في خلوة مع الله، وكان في قمة السعادة، أراد أن يتابع هذه الوجهة إلى الله فحكم بينهما سريعاً، ولم يدقق، قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ)

[سورة ص: ٢٣-٢٤]

الأخ الأول يرعى تسعًا وتسعين نعجة، والثاني عنده نعجة واحدة، وهو متفرغ لرعايتها، فقال له: أعطني إياها أضمها إلى نعاجي، وعمل شيئاً آخر، أنا أرعاها عنك، لكن قال سيدنا داود:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ)

[سورة ص:٢٤]

لذلك الله عز وجل عاتبه، وقال تعالى:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة ص: ٢٦]

أيّ هوى هذا، أرقى هوى أن تحب الله، وأن تكون معه، لكنك خليفة الله في الأرض ينبغي أن تحكم بين الناس بالعدل.

سيدنا سليمان، قال تعالى:

(إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي)

[سورة ص: ٣٢]

فعاتبه الله عز وجل، هذه القصص أيها الإخوة الكرام نحتاجها كل يوم، نحتاجها في علاقاتنا، نحتاجها في معاملاتنا، نحتاجها في مبادئنا.

سيدنا يوسف حينما قال تعالى:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

[سورة يوسف: ١٠٠]

إخوته أمامه، وضعوه في غيابات الجب، أرادوا أن يموت، أرادوا أن ينتهي، ما ذكرهم بخطيئتهم، قال تعالى:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي)

[سورة يوسف: ١٠٠]

وما قال: من بعد أن تلبسهم الشيطان.

أيها الإخوة الكرام، لو تأملنا قصص الأنبياء لرأينا العجب العجاب من كمالهم، من صبرهم في الدعوة إلى الله عز وجل، من تحملهم المشاق، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[الترمذي، وأحمد]

أيها الإخوة الكرام، نحن في أمسّ الحاجة إلى أن يكون هؤلاء الأنبياء قدوة، لابد من التنويه لذلك. آية دقيقة جداً، قال تعالى:

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥))

[سورة الصافات: ٣٥]

الآن أي تفسير لما يجري إذا جعلته توحيدياً يرفضه الناس، يريدون تفسيراً أرضياً فقط، لا يقبلون أن يكون الزلزال إهلاكاً من الله لقوم طغوا، وبغوا، يريدون اضطراباً في القشرة الأرضية فقط، لا يريدون تفسيراً دينياً إلهياً توحيدياً لما يجري، لا يريدون أن يكون الاجتياح أو الغزو تأديباً من الله عز وجل، وليس معنى هذا أن تقعد عن مقاومة المحتل، ينبغي أن تضاعف المقاومة للمحتل، ولكن لا ينبغي أن ترى الله أطلق الأقوياء، وتركهم يفعلون ما يشاؤون بالضعفاء، لا قال تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢))

[سورة الزمر: ٦٢]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف: ٥٤]

نحن حينما نفهم الأمور بفهم توحيدي ترتاح نفوسنا، قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢))

[سورة النحل: ١١٢]

إذاً مواقفهم الكاملة هي منهج لنا في التعامل

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٤٣-٦٤) : الصدق من لوازم الإيمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

من ألزم لوازم الإيمان :

أيها الأخوة الكرام، من ألزم لوازم الإيمان الصدق، هو المنزل الأقوم والأعظم، الذي منه تنشأ جميع المنازل، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النار، هو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صان به لم ترد صونته، ومن نطق به على الخصوم كلمته، هو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة، التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات، تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصدقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين.

هذه كلمات بليغات قيلت في الصدق.

ما الشيء الذي يريد ربنا أن يعلمنا إياه من خلال هذه الآية؟ :

أيها الأخوة، آيات الصدق كثيرة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

كأن الله عز وجل يريد أن يعلمنا أنك لن تستطيع أن تتقي الله إلا إذا كنت في بيئة صادقة، لذلك لا بد من حمية، هذا الذي يعيش مع كل إنسان، ويلتقي مع كل إنسان، ويقيم علاقة حميمة مع كل إنسان، هذا لن يستطيع أن يتقي الله عز وجل إلا إذا عاش مع المؤمنين الصادقين، المؤمن الصادق يعطيك دفقة روحية عالية، المؤمن الصادق يحيطك بأجواء الآخرة ، يحيطك بحسنات الطاعات، بينما أهل الدنيا يحيطونك بالمعاصي والآثام، يحببون الدنيا إليك ، يبغضون الآخرة إليك، يزهدونك في طاعة الله، يحببونك في المعصية وفي طريق النار، لذلك: آية في أصل هذا الباب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

فإن لم تكن معهم لا تستطيع أن تتقي الله عز وجل، وهذه مشكلة المشاكل.

الإنسان قد يأتي إلى المسجد فيصفو، يعاشر زيداً أو عبيداً يتعكر، لأنه عاشر من لا يليق أن يعاشر، فهذه الآية أصل في قضية الصدق.

قف هنا :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً)

[سورة النساء الآية: ٦٩]

قضية المعية قضية أساسية في حياة المؤمن، قل لي من تصاحب أقل لك من أنت؟ قل لي مع من تقيم علاقة حميمة أقل من أنت؟:

(فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ)

[سورة محمد الآية: ٢١]

قضية الصدق: أن تنعدم المسافة بين الأقوال والأعمال، أن يستوي الظاهر مع الباطن :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

-شكليات العبادات ليست هي الهدف، ولكن البر-:

مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١٧٧]

(لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)

[سورة الأحزاب الآية: ٢٤]

أيها الأخوة، لعل من ألزم لوازم الإيمان: أن تكون صادقاً مع الله، وصادقاً مع نفسك، وصادقاً مع الخلق.

في أي الدارين ينفع الصدق وفي أيهما لا ينفع؟ :

أيها الأخوة، الله عز وجل حينما سأل السيد المسيح -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-:

(أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

[سورة المائدة الآية: ١١٦]

يقول الله بعدها:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة المائدة الآية: ١١٩]

لكن بعض العلماء قال: الصدق في الدنيا ينفع، أما في الآخرة فلا ينفع.

الشيطان ماذا قال في الآخرة؟:

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

[سورة إبراهيم الآية: ٢٢]

هذا كلام صدق، لكن هذا الكلام قيل في دار ليست دار تكليف، دار جزاء فقط، فلذلك: لا ينفعك إلا أن تكون صادقاً في الدنيا.

أنواع الصدق :

١- صدق الأقوال :

عندنا صدق الأقوال: أن تأتي أقوالك مطابقة للواقع، لذلك: الصادق لا يكذب، لا يدلس، لا يوهم، أنت تأتي أقوالك مطابقة للواقع، هذا صدق الأقوال، فإذا حدثت الناس ينبغي أن تكون صادقاً معهم، لكن في عصور التخلف الديني يكون الكذب هو الأصل، لا أحد يصدق ، الناس منافقون، يتكلمون بما ليس هم مقتنعون به، يتكلون كلاماً كذباً إرضاءً لقوي، أو خوفاً منه، ويصبح الكذب ديدن الناس، لذلك الناس يضيعون، شخصيات مهمة تكذب، فإذا كذبت، اضطرب الناس فيما يصدقون ولا يصدقون.

والحقيقة: أن ثمة ظاهرة خطيرة جداً، بينما تعتقد أن هذا الإنسان قمة في البطولة، هو في روايات أخرى في حضيض الخيانة، شيء يدع الحليم حيران، كيفما فسرت الأمور تأتي على خلاف الحقيقة، من كثرة الكذب والتمثيل والنفاق، أي وصف، وأي تقييم ترى أن الرأي الآخر المعاكس قد يكون صحيحاً، لذلك: يفقد الإنسان مصداقيته فيما يقول، وفيما يسمع.

٢-صدق الأعمال :

أما صدق الأعمال: فأن تأتي أعمالك مطابقة للوحيين؛ الكتاب والسنة، قد تنطق بالحق من كتاب الله، أو من سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكنك إذا خلوت في نفسك، فعلت ما لا يرضي الله، فأعمالك ليست مطابقة لأقوالك، وأعمالك ليست مطابقة لما ينبغي أن تكون عليه، فكما أن هناك صدق الأقوال، هناك صدق الأعمال.

ما أعلى مرتبة يصلها الإنسان دون النبوة؟ :

بالمناسبة: أعلى مرتبة يصلها إنسان دون النبوة: الصديقية، وهذه المرتبة محجوزة لسيدنا الصديق.

((ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر))

مرتبة الصديقية، قال بعضهم في تفسيرها: كمال الانقياد للرسول -صلى الله عليه وسلم-، مع كمال الإخلاص لله.

نقطة دقيقة :

لكن أريد -أيها الأخوة- أن أنوه إلى قضية دقيقة وهي: أنه قد تدخل في مجال صادقاً، ولا تخرج منه صادقاً، الآية الكريمة:

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

[سورة الإسراء الآية: ٨٠]

أحياناً تؤسس مستشفى بقصد الخدمات الإنسانية، فإذا هي تذبح المرضى من الوريد إلى الوريد بمبالغ فوق طاقتهم، بدأت عملاً خيرياً، ثم انقلبت إلى عمل ابتزازي، دخلوا صادقين، وخرجوا كاذبين، قد تبدأ الدعوة إلى الله صادقة، فإذا تمكن الداعية قد يخرج منها كاذباً، البطولة لا بالدخول، بل بالخروج، سهل جداً أن تصل إلى القمة، ولكن البطولة أن تبقى فيها، لأنه قد يصاب الإنسان وهو في قمة المجتمع بالغرور، فيهوي إلى أسفل السافلين.

الآية دقيقة جداً، كان من الممكن أن تكون الآية: رب اجعلني صادقاً، لا:

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

[سورة الإسراء الآية: ٨٠]

أعمال كثيرة جداً، في الدخول: كان أربابها صادقين، لكن في الخروج: لم يكونوا صادقين.

أيها الأخوة، إضافة إلى مَدخل الصدق ومَخرج الصدق، أو مُدخل ومُخرج، كيف؟ أي دخل مدخل، اسم مكان من دخل، مَدخل، اُدخل مدخلاً، الرباعي بضم الميم، والثلاثي بفتح الميم:

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ

-ما دام أدخلني الفعل رباعي مُدخل صدق، قال تعالى:-

وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

[سورة الإسراء الآية: ٨٠]

دخل مدَخل صدق، وخَرج مَخرج صدق.

ما معنى قدم صدق؟ :

الآن هناك لسان صدق لا يتلكم إلا بالصدق، هناك قدم صدق، فسر بالجنة، وفسر بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، وفسر بالأعمال الصالحة، ماذا قدم لله عز وجل؟ قدم لله محبة سيد البشر، أو قدم لله الأعمال الصالحة، فله عند الله قدم صدق، والذي لا ينطق إلا بالحق، له عند الله لسان صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، وهناك مقعد صدق:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر الآية: ٥٤-٥٥]

هذا الصادق قريب من الله عز وجل، له عند الله مقعد صدق.

من علامات الصدق والكذب :

أيها الأخوة، من علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه، ومن علامات الكذب: حصول الريب، الكاذب مرتاب، الكاذب قلق، أما الصادق فتحسه ملكاً مطمئناً، حتى في الحِرف: الطبيب الصادق الذي ما ابتز مرضاه أبداً، ولا غشهم، ولا أوهمهم، ولا وجههم إلا لصالحهم، لا لصالحه، هذا الطبيب يحس وكأنه ملك، مكانة الصادق مكانة علية، أما إذا أوهمهم، أو بالغ في تخويفهم، أو ابتز أموالهم، يشعر بانهدام داخلي، هذه فطرة، الصدق طمأنينة، والكذب ريبة .

قصة :

حدثني أخ كريم ممن يعملون على الحدود لتفتيش الركاب والقادمين والمغادرين: الذي يتاجر بالمخدرات عنده قلق، فمن خبراتهم المتراكمة: أن المسافر البريء يبدو على وجهه علامات الطمأنينة، وأن المسافر الذي يحمل مواد ممنوعة يبدو مضطرباً، من كثرة الممارسة عندهم فراسة صادقة، فالذي يحمل مخدرات قلق، والإنسان حينما يكون مستقيماً عنده طمأنينة وتوازن.

فالإنسان لمجرد أن يستقيم على أمر الله، تراه مطمئناً.

قف عند هذه الكلمة :

كلمة نقولها كثيراً، ولا نعرف أبعادها.

لما جاء النبي -عليه الصلاة والسلام- الوحي، وعاد إلى السيدة خديجة، وذكر لها ما الذي لقي في غار حراء، وكان قلقاً، هذه السيدة التي لم تستمع إلى كلمة واحدة من الوحي، قالت:

((فَوَ اللّهِ لاَ يُخْزِيكَ الله أَبَدا، وَاللّهِ إِنّكَ لَتَصِلُ الرّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقّ))

صاحب هذه الأعمال الطيبة مطمئن، لن يُراعى.

ما معنى الحديث؟ :

لذلك: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))

الحديث دقيق جداً، لمجرد أن تكون صادقاً في نشر الحق، يلهمك الله الأساليب الفعالة والمؤثرة، والأفكار النيرة، والتصرفات الحكيمة، هذا من عند الله، ماذا تملك أنت؟ نيتك الصادقة في نشر الحق، القضية لا تحتاج إلى مهارات عالية جداً، هذا الذي تنجزه وهو شيء عظيم لا يتناسب مع قدراتك، إنما يتناسب مع نواياك، إذاً: لا تملك أنت إلا أن تكون صادقاً في فعل شيء، صادقاً في نشر الحق، صادقاً في تخفيف متاعب المسلمين، صادقاً في مدِّ يدِ العون إليهم، عندئذٍ يحبك الله عز وجل، و:

إذا أحب الله عبداً، خلق الفضل ونسبه إليه.

من الممكن لأي واحد منكم أن يحقق إنجازًا يفوق حد الخيال، لا لأنه متفوق، ولا لأنه يملك قدرات عالية جداً، قد يكون أقل من العادي، ولكن نياته الطيبة، وصدقه في هداية الخلق، وصدقه في نشر الخير، هو الذي جعل الله عز وجل يخلق هذا الخير وينسبه إليه:

إذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضل ونسبه إليك.

((عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))

مما قيل في الصدق :

أيها الأخوة الكرام، مما قيل في الصدق: الوفاء لله بالعمل، موافقة السر النطق، استواء السر والعلانية، الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة.

ما تقول يا أحنف؟ أحرج، والجلسة جلسة مديح ليزيد، قال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت.

فكان تلميحاً أبلغ من تصريح، كلمة الحق عند من تخافه وترجوه، الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة، من شدة صدق الصادق، هو قلق، يتقلب في اليوم الواحد في أربعين حالة.

خاتمة القول :

أيها الأخوة الكرام، الصدق من ألزم لوازم الإيمان، وما لم تكن صادقاً فلست على شيء، لأن الكلام سهل، ونحن في عصر النفاق، وعصر الكذب، فبينما تسمع من إنسان أحلى الكلام، لكن لو عاملته لكان في أسوأ حال، لذلك نحتاج إلى صدق، نحتاج إلى علم قليل مع صدق وفير، نحتاج إلى كلام قليل مع عمل كثير، أما الآن فالكلام يطغى على العمل، وعندئذٍ يصاب الناس بخيبة الأمل.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٤٤-٦٤) : الآية رقم (٢١) من سورة الجاثية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في سورة الجاثية آية:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤))

(سورة الجاثية)

أيها الإخوة، صدقوا أنه لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت ! لأنها تملأ القلب طمأنينة، وتفاؤلاً، وإكباراً لعدل الله عز وجل،

إنسان مستقيم على أمره، آمن بالله حق الإيمان، وعمل الصالحات، لا يمكن، ولا يعقل، ولا يقبل أن يعامل كإنسان اجترح السيئات، ولم يعبأ بالعقوبات.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤))

مستحيل وألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، وتعصيه وتربح !

أيها الإخوة الكرام، إذا قرأتم القرآن كان شفاء لما في الصدور، طبيعة الحياة فيها مفارقات، وغنى مطغٍ، وفقر منسٍ، فيها إنسان قوي يبطش كما يريد، وإنسان ضعيف يخشى من ظله، بهذه الآية يتبدل الأمر:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤))

شاب نشأ في طاعة الله، وطلب العفاف، وزوجه الله بامرأة، هذه المرأة تسره إن نظر إليها، وتحفظه إن غاب عنها، وتطيعه إن أمرها، لو أنه يعمل عملاً مشروعاً نظيفاً فله معاملة خاصة في بيته، وعمله، وصحته، وسمعته، ومكانته، وأهله، وأولاده.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤))

هذا يتناقض مع عدل الله، أن يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالذين اجترحوا السيئات، أو الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعلموا الصالحات !

قد يذهب أحدكم إلى أنه في الآخرة مستحيل أن يكون هؤلاء كهؤلاء، نقول لك: لا، هذا في الدنيا، الآية تقول:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

فأنت حينما تستقيم على أمر الله يملأ الله قلبك غنى وطمأنينة واستقرارًا وسعادة.

عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ:

((يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا))

(صحيح البخاري)

أنت في الدنيا من أجل أن تعبد الله، علة وجودك أن تعبد الله، والعبادة طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية.

السلوك هو الأصل، والعلم هو السبب، والسعادة هي الثمرة، في العبادة جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي، حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، بعد حين سأله مرة ثانية:

((ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ ابْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

(صحيح البخاري)

ما قولك أيها الأخ الكريم ؟ أنشأ الله لك حقاً عليه !!! ولا يخلف الله الميعاد، وزوال الكون أهون على الله من ألاّ يحقق وعوده للمؤمنين، اطمأن أيها الأخ الكريم، واستقم على أمر الله، ولا تعبأ بالموازين المضطربة، ولا تعبأ برضا زيد أو عبيد، لا تقلق، إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣))

(سورة الأعراف)

سيدنا يوسف حينما دعته امرأة ذات منصب وجمال هو أعزب، وغريب، ووسيم، والتي دعته ليس من صالحها أن تخبر أحداً بذلك، وهي سيدته وآمرته، أسباب كثيرة تدعوه إلى المعصية، فقال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف)

ما الذي انتهى به الأمر ؟ أن هذا النبي الكريم صار عزيز مصر، فقالت جارية في القصر: سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعته !

أيها الأخ الكريم، اعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا يذل من واليت يا رب، ولا يعز من عاديت.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً)

(سورة فاطر)

فحينما تؤثر رضاء الله على الدنيا تأتيك الدنيا وهي راغمة، ومعها رضاء الله، حينما تؤثر الدنيا على الآخرة تخسرهما معاً.

أيها الإخوة الكرام، ضربت قبل يومين مثلاً، كنت مع إخوة كرام، لو أنك رأيت ما يشبه القنبلة في الأرض احترت، هي قنبلة أم ليست قنبلة ؟ تعال نجرب، لو أنك جربت بنفسك، وكانت قنبلة، وانفجرت لم يبق في حياة الإنسان ثانية، ينتفع بهذا الدرس، ما مهمة الوحي ؟ أن يعطيك تقييم الأشياء قبل أن تدفع ثمن معرفتها، لذلك المؤمن نهي عن الزنى والخمر، والسرقة والغيبة، والنميمة سعادته وسلامته بطاعة الله عز وجل، يأتي إنسان يغامر، ويرتكب المحرمات، ويكتشف الحقيقة بعد فوات الأوان.

إخوتنا الكرام،

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

مستحيل وألف مستحيل أن يكون المسيء عند الله كالمحسن، أو المحسن كالمسيء، كل له معاملة خاصة، ولو تتبعت قصص آلاف الأشخاص، انظر الذي ماله حلال له معاملة خاصة.

والله زرت في أحد الأعياد والد صديقي، وكان عمره ستًا وتسعين سنة، يتمتع بذاكرة قوية جداً، قال لي: قبل أيام أجريت فحصاً عاماً فكانت كل التحاليل جيدة، ونظامية، والحمد لله، قال: ولكنني لم آكل قرشًا واحدًا حرامًا في حياتي، ولا يعرف الحرام، هذه لها ثمن، يا رب لو نعلم تلك القوانين التي تحكم العباد.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١))

والحياة قبل الموت، أنت في الدنيا علاقتك بزوجتك، وبأولادك، وبمن حولك، ومن فوقك وتحتك، وبصحتك كله يأتي على شكل تكون راضياً عنه، لكن الإنسان في الحقيقة والواقع يمر بثلاث مراحل، مرحلة التأديب إذا أخطأ، ثم مرحلة الامتحان والابتلاء إذا استقر، فإذا كانت استقامته أصيلة ثبت ! فإذا نجح في امتحان التأديب والابتلاء دخل في مرحلة الإكرام، واستقرت حياته على الإكرام، لذلك هذه الآية:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١))

الناس يعتقدون أن القضية بالمال، والدراهم مراهم، ومن ملك المال ملك كل شيء، أو يعتقدون بالمنصب الرفيع، من ملكه ملك السعادة، أو يعتقدون بالوسامة، والاستمتاع بالملذات، لكن الذي يعلم علم اليقين يرى أن السعادة في طاعة الله عز وجل.

شيء آخر، الله عز وجل أنشأ لك حقًّا عليه، إله الكون قال لك: حق علي يا عبدي إذا عبدتني ألاّ أعذبك، لذلك الإمام الشافعي له استنباط رائع، قال:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة)

أي إن الله سبحانه وتعالى لو قبل منهم أنهم أحبابه لما عذبهم، فاستنبط الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أن الله لا يعذب أحبابه، هذا الشعور بالأمن هو أثمن شعور تملكه، الشعور أن الله معك، ولا يتخلى عنك، وأنه يحبك، وأنت في عين الله، ورعايته وحفظه، وتأييده وتوفيقه، هذا معنى المعية الخاصة، إن الله مع المؤمنين والصادقين والتوابين، هذه معية خاصة، أي معهم بالتوفيق، وبالحفظ وبالتأييد وبالنصر، هذه الآية ينبغي أن تكون شعاراً لنا

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

يمكن أن تغش المسلمين وتحيا حياة طيبة، والذي ما غشهم يحيا حياة تعيسة ؟ مستحيل، يمكن أن تكون كاذبًا، وأنت الأول، والصادق متخلف ؟ شيء مستحيل أن يقبله العقل.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

شاب بار بوالدته، يعامل كما يعامل شاب عاق لوالدته، مستحيل **!!** شاب متقن لعمله، لا يكذب، لا يخون، لا يأكل مالاً حراماً، هذا له معاملة خاصة، له حفظ وتأييد، وتوفيق ودعم.

والله أيها الإخوة، حينما تعتمد على الله، وترجو رحمته، وتخشى عذابه، ولا تعبأ بغيره إطلاقاً، تأتيك الدنيا وهي راغمة.

أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، الدنيا تضر، وتغر، وتمر، وأنه من خدمني فاخدميه، الدنيا تأتي، وهي راغمة.

ابن آدم كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، إذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

أنا لا أقول لكم: جربوا، لأن الله لا يجرب، ولا يمتحن، لكن أقول لكم: مستحيل وألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، وتعصيه وتربح، وتخافه وتدمر، ولا تخاف منه، وأن تعز، مستحيل، والحياة بين

أيديكم.

إخواننا الكرام، لا شك أن لكل واحد منكم بضع قصص يعرف تفاصيلها من البداية إلى النهاية، يرى عهد الله المطلق، وحكمته المطلقة، ولكن حينما تستمع إلى آلاف القصص من آخر فصل أنصحك ألاّ تحكم عليها أبداً، لا تحكم على قصة إلا إذا عرفت كل فصولها، لأنك إذا عرفت كل فصولها رأيت عدل الله عز وجل، عدله المطلق ورحمته، تعامل مع الله مباشرة، وبروح الدين، اسأل الله السلامة، وناجه في الليل، واطلب منه المغفرة والتوفيق، والتأييد والنصر، يجب أن تنعقد هذه الصلة مع الله عز وجل، هذه الآية والله تكفي.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١))

ويدعمها الحديث الشريف:

((حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...وحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

(البخاري عن معاذ)

تدعمها الآية الثانية:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من ألزم لوازم المؤمن التوكل على الله، ولكن هذا التوكل على الله فيه منزلقات كثيرة.

أولاً: من الآيات الكريمة وما أكثرها التي تحض على التوكل، يقول الله عز وجل:

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣))

(سورة المائدة)

علامة الإيمان التوكل على الله.

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

يكفيه مهما كان عدوه جباراً.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١))

(سورة الأحزاب)

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

(سورة آل عمران)

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣))

(سورة آل عمران)

(إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢))

(سورة الأنفال)

أيها الإخوة، والسنة أيضاً طافحة بالحض على التوكل:

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ:

((اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ))

(صحيح مسلم)

وفي حديث آخر عَن ابْنِ عَبَّاسٍ:

(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا:

(إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(صحيح البخاري)

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا))

(سنن الترمذي)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ، وَكُفِيَ، وَوُقِيَ ؟))

(سنن أبي داود)

هذه النصوص من الكتاب والسنة التي تحض على التوكل، فأنت مأمور بالتوكل، وتوكلك مرتبط بإيمانك، وبالأخذ بالأسباب.

ولكن أدق شيء في هذا الموضوع أن التوكل من عمل القلب، وليس من عمل الجوارح، ولكن الذي لا يعمل، ولا يأخذ بالأسباب، ولا يتقي الأخطار بدعوة أنه متوكل، فهذا ما فهم التوكل إطلاقاً، هذا سماه المعاصرون التواكل، وهو يشلّ حركة الإنسان، لا يعمل، ولا يتحرك، ولا يأخذ بالأسباب، ويقول: أنا متوكل على الله، وحينما رأى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أناسًا فقراء في أيام الحج سألهم: " من أنتم ؟ قالوا: نحن المتوكلون ! فقال: كذبتم، المتوكل من ألقى حبة في الأرض، ثم توكل على الله ".

ولما رأى عمر أعرابياً أيضاً معه جمل أجرب قال: يا أخا العرب، ما تفعل بهذا الجمل ؟ قال: أدعو الله أن يشفيه، فقال له: هلا جعلت مع الدعاء قطراناً ؟ فالدعاء مرفوض من دون عمل، والتوكل مرفوض من دون عمل، والمشكلة الآن ولا أبالغ أن العالم الإسلامي لا يعمل، ولا يأخذ بالأسباب، لكنه يتوهم أنه متوكل على الله، وينتظر تحقيق معجزة، وهذا لن يكون أبداً.

لذلك أول فكرة في هذا الموضوع: أن التوكل عمل القلب، عمل قلبي محض، ليس قولا باللسان، ولا كسل في عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات، إنه عمل القلب، كيف أن الإخلاص هو عمل القلب، كذلك التوكل من أعمال القلوب.

بعضهم قال: التوكل هو الاسترسال مع الله مع ما يريد، أو الرضا بالمقدور، أو هجر العلائق، ومواصلة الحقائق.

أيها الإخوة، أول شيء في الموضوع أنه يجب أن تأخذ بالأسباب، وهذا لا يتناقض مع التوكل أبداً، تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شي، ثم تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، ولا أوضح من أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بكل الأسباب في الهجرة، لكن أراد الله أن يبين لنا حقيقة توكله صلى الله عليه وسلم، وصلوا إلى الغار، لو أنه أخذ بها، واعتمد عليها لانهارت قواه، لكنه أخذ بها، واعتمد على الله، لذلك لم يتأثر، أخذ بها تعبداً، واعتمد على الله توحيداً.

فأعيد هذه العبارة: أن تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، والقضية ليست سهلة، ليس من السهل أن تجري فحصاً دقيقاً لمركبتك، إن أردت أن تسافر، وبعدها تشعر بافتقارك إلى الله، إلى حفظه وتوفيقه، فأن تجمع بين أن تقول: يا رب أنا محتاج إلى رحمتك، وحفظك، وتوفيقك، وأنت بالمقابل أخذت بكل الأسباب، هذا في السفر، والسعي، وتأمين الرزق.
يشتري تاجر صفقة بتسرع دون دراسة، ويقول: توكلت على الله، يا جبار، الصفقة غير مدروسة، ليس هذا من صفات المؤمن، المؤمن يدرس السوق، والأسعار، والمنافسين، والتكلفة، والنوع المطلوب، يجري دراسة دقيقة جداً، ثم في ضوء هذه الدراسة يتخذ قرارًا بالشراء، وبعدها يقول: يا جبار، أنت الجبار، في الطب تأخذ بكل الأسباب، تتبع تعليمات الطبيب الدقيقة، وبعدها تقول: يا رب، اشفني، هذا النموذج الذي يأخذ بالأسباب، ويتوكل على الله يكاد يكون مفقوداً في هذه الأيام، إما أن تأخذ بالأسباب، وأن تنسى الله عز وجل، وتعتمد عليها، وإما ألاّ تأخذ بها فقد عصيت ! وكان الإيمان الكامل أن تكون في طريق، وعلى يمينك واد سحيق، وعلى يسارك واد سحيق، أن تأخذ بالأسباب، وتعتمد عليها تقع في وادي الشرك، وألاّ تأخذ بها تقع في وادي المعصية، ويمكن أن أقول باختصار: إن الغرب أخذ بالأسباب، وألّهها، واستغنى عن الله، وأن الشرق لم يأخذ بها، هذه واحدة.
إخواننا الكرام، أنا لا أصدق أن تستطيع التوكل على الله قبل أن توحده، إن كان التوحيد ضعيفاً، إن رأيت أن الأقوياء يفعلون ما يريدون، إن رأيت أن الله أطلق لكل إنسان يده في أن يفعل ما يريد، وأن الله خلاق، وليس فعالاً، لا يمكن أن تتوكل على الله.

من لوازم التوكل أن توحد الله، حينما تشعر أن الأمر بيده، صغيره وكبيره، جليله وحقيره، وأن كل شيء بيد الله، عندئذ تتجه إلى الله عز وجل.

إذا دخلت إلى دائرة لتأخذ تأشيرة خروج، والدائرة أربعة طوابق، وفي كل طابق خمسون موظفًا، لكن هذا البلد تحديدًا لا يمكن أن تعطى تأشيرته إلا من قِبَل المدير العام، فكل هؤلاء الموظفين لا يستطيعون أن يمنحوك الموافقة، إلا المدير العام، أنت إذا اعتقدت ذلك فلا يمكن أن تتجه إلا إلى هذا المدير العام، لأن الاتجاه إلى غيره مضيعة وقت، وبذل ماء الوجه، وأنت حينما تعلم أن طموحك في الحياة، وأن طلباتك لا يمكن أن تحقق إلا بتوفيق الله فهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود)

عندئذ تتوجه إلى الله وحده، ولا يتناقض هذا إن علمت أن زيداً أو عبيداً يمكن أن يساعدك في ذلك، أنت تتجه إليه، وتعتقد أن الأمر بيد الله.

ومرة ثانية أقول لكم: التطرف سهل جداً، وسهل جداً أن تعتمد على الأسباب، وسهل جداً ألاّ تأخذ بها، الحالتان المتطرفتان من السهل أن تتلبس بهما، لكن أن تجمع بينهما فهذا يحتاج إلى مهارة كبيرة.

ولو أخذنا مثلا آخر: الأب من السهل جداً أن يكون بطّاشًا بأولاده، القضية سهلة، يضربهم ضرباً مبرحاً كلما انزعج منهم، وسهل جداً أن يسيبهم، أمّا أن يحاسبهم، ويرحمهم في وقت واحد، يعالجهم ويشعرهم أنه يحبهم، وحريص على مستقبلهم، الحالات الدقيقة تحتاج إلى جهد كبير جداً، سهل جداً أن تأخذ بالأسباب، وأن تنسى الله عز وجل، وهذا حال كل من يأخذ بالأسباب، وسهل جداً ألاّ تأخذ بها، لكن أن تأخذ بها بدقة بالغة، وتشعر أنك مفتقر إلى الله شعور حقيقي يدعوك إلى التوكل، هذا شيء يحتاج إلى جهد.

التوحيد أساس التوكل، ما لم تكن موحداً فلن تكون متوكلاً ، الآن يرافق التوكل اللجوء إلى الله، أنت حينما تلجأ إليه حقيقة يلقي الله في قلبك السكينة، فتجد المتوكل متوازنًا وساكنًا وهادئًا، المتوكل ليس مضطرباً.

الآن من علامات التوكل السكينة، أما الغليان والقلق والاضطراب وتوقع الشر والخوف منه، والتذلل للناس، والخنوع لهم، والتضعضع أمامهم فهذا ينفي التوكل، إن كنت موحداً فتوكّل، وإن كنت مقبلاً على الله فلا تضطرب، من لوازم التوكل أن تقبل على الله.

شيء آخر، أنت بحاجة إليه في التوكل، أن تحسن الظن بالله، وحسن الظن بالله ثمن الجنة. ينبغي أن تؤمن أن الله يحبك، وخلقك ليسعدك، وقادر على أن ينجيك مما أنت فيه، ويحب لك الخير، فحسن الظن بالله ثمن الجنة، وسبب التوكل أيضاً، وهو استسلام لله، يا رب، أنا عبد بين يديك، ماض فيّ حكمك، نافذ فيَ قضائك، لكن أعلى درجة في التوكل أن تفوض الله في كل أموره، يا رب، افعل بي ما تريد، أنا راض عنك في السراء والضراء، هذه السفرة إن أتيحت لي فأنا راض عنك يا رب، وإن لم تتح لي فأنا راض لي، وهذه الفتاة إن وافق أهلها على الزواج منها أنا راض، وإن لم يوافقوا أنا راض يا رب.

أشخاص كثيرون حينما لا تحقق أهدافهم يسخطون، التفويض أن يستوي عندك تحقيق الهدف وعدم تحقيقه، وهذه أشياء دقيقة جداً.

أيها الإخوة، الله عز وجل أغلى عليك من كل شيء، إذا كان عنك راضياً فقد تحقق الهدف. أوضح شيء ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى))

(السيرة النبوية لابن هشام، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: أخرجه الطبراني عن عبد الله بن جعفر)

يا رب، إن كانت هذه الشدة تعبر عن غضبك فأنا متألم أشد الألم، ولك العتبى حتى ترضى، وإن لم يكن لها علاقة بغضبك فلا أبالي، هذه حالة التفويض، لا يبالي مهما كانت النتائج، يكفي أنه في طاعة الله، والبطولة أن تكون حركتك في الحياة في رضوان الله، فعلت الذي عليك، وعلى الله الباقي، أدي الذي عليك، واطلب من الله الذي لك.

الآن إحدى أطيب ثمرات التوكل الرضا، أنت راض عن الله في كل الأحوال.

والله وإن فتتوا في حبهم كبدي   راض على فعلهم وراض بما فعلوا

***

ومن أوهام التوكل ألاّ تأخذ بالأسباب، وأن تعتقد أن الأمر بيد زيد أو عبيد، من أوهام التوكل أن تدعي أنك متوكل، وأنت متمارض، أنت لا تستطيع أن تفعل شيئاً، لك أن تستسلم لله عز وجل، والشيء الذي ينبغي أن نؤمن به أنه لا إيمان لمن لا توكل له ، والذي يعين على التوكل أن تقف على حقائق أسماء الله الحسنى، أن تصل إلى طرف من أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، إنك إن علمت أن الله قدير على كل شيء، ورحيم، وعدل، لن يحابيك، كلما تعمقت في فهم أسماء الله الحسنى صح توكلك.

(فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣))

وكلمة (مؤمنين) لا تعني أنك آمنت أن الله خلق الكون فقط، تعلم علم اليقين أن الله قدير، وسميع، وبصير، وغني، وعليم، وحكيم، فكلما تحققت من أسماء الله الحسنى جاء التوكل مجدياً ومثمراً، لكن بالنهاية أنت راض عن الله، أية نتيجة كانت أنت راض عن الله.

أيها الإخوة، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ

((أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

(أبو داود وأحمد)

والعجز هو عدم الأخذ بالأسباب.

لي قريب لم ينجح في الشهادة الثانوية، أمه أصرت أن يكون طبيباً، أعادها فلم ينجح، فرفض أن يتابع الدراسة، أصرت عليه فأعادها فلم ينجح، في العام الرابع نجح، وهو الآن طبيب، الإصرار لا يتناقض مع التوكل، فحينما تؤمن أن الله قدير، وسميع، وبصير تتوكل، ويرافق هذا التوكل أعلى درجات السعي،

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

لا تقلها إلا عندما يغلبك الأمر، ما دام في الأمر فسحة، وسعي، وحركة، وأخذ بالأسباب فلا ينبغي أن تقول: حسبي الله ونعم الوكيل .

أوضح مثل: طالب ما درس فرسب، فلما رسب قال: حسبي الله ونعم الوكيل، هذا كلام فيه دجل ! لكنّ طالبًا درس أعلى دراسة، وجاءه مرض، وحال بينه وبين أداء الامتحان، يقول عندئذ: حسبي الله ونعم الوكيل، درست القضية دراسة وافية، فلم تنجح في هذه الصفقة، تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، حينما تغلب تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، والمشكلة أن المؤمن في هذا الزمان كلما ألمّ به شيء من فعله، من تقصيره، وإهماله وكسله يقول: حسبي الله ونعم الوكيل، هذا كلام فيه دجل، وفيه جهل كبير، لا تقل: حسبي الله ونعم الوكيل إلا إذا غلبت، وبذلت كل ما بوسعك، ولم تستطع أن تصل إلى مبتغاك.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من لوازم الإيمان الأدب، أدب مع الله، وأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم، وأدب مع خلقه، والإسلام عقائد وعبادات ومعاملات وآداب، الآداب ربع الإسلام، وحينما عجبتْ السيدة عائشة من هذا الأدب الرفيع الذي يتحلى به النبي عليه الصلاة والسلام فقالت: ما هذا الأدب يا رسول الله ؟ قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[السيوطي في الجامع الصغير عن ابن مسعود، والحديث فيه ضعف]

ولا تجد مؤمناً وقحاً ثقيلاً جريئاً في الباطل، لاذعاً في تعليقاته، قاسياً في أحكامه، لا يعرف قدر الكبير، ولا يرحم الصغير، هذا لن يكون من مؤمن، لذلك يكاد الأدب يكون من أبرز صفات المؤمن، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

[سورة التحريم: الآية ٦]

يقول ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية:

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

أي: أدِّبوهم و علِّموهم ".

[تفسير الطبري، وابن كثير]

الأدب اجتماع خصال الخير في العبد، و منه المأدبة طعام نفيس يجتمع عليها المدعوون، أما علم الأدب إصلاح اللسان والخطاب، إصابة مواقعه، تحسين ألفاظه، صيانته عن الخطإ والخلل، والأدب في القول فرع من الأدب العام.

يجب أن تدهش بأدب المؤمن، تصاحبه ثلاثين عاماً لا تستمع منه إلى كلمة نابية قط، ولا ترى منه موقفًا وقحًا، ولا إلى تعليقًا بذيئًا، ولا فحشًا في القول، أدّبه الإسلام، زينه القرآن، حسنته سنة النبي العدنان .

الحقيقة أن هناك أدبًا مع الله، وهو صيانة التعامل مع الله من أن تشاب بنقص، صيانة القلب من أن يلتفت إلى غير الله، صيانة الإرادة من أن تتجه لغير الله، في التعامل يوجد أدب، القلب لا يتجه إلى

غير الله، القلب يشعر أن الله ناظر إليه، وقد ورد في بعض الأحاديث القدسية: عبدي، طهرت منظر الخلق سنين ألا طهرت منظري ساعة.

الإنسان يحسّن بيته، ومدخل بيته، وغرفة الضيوف، ويطلي جدرانه، ويجدّد أثاثه، وينظف مركبته، لأنها منظر الخلق، وقلبك منظر الرب، هنيئاً لمن اطلع الله على قلبه فلم يجد فيه إلا طهراً وعفافاً وبراءة، وتواضعاً وحلماً.

لو تأدب المؤمنُ بأدب الله لصار من أهل محبته، وأحد كبار العلماء جاءه طالب قليل الأدب، فقال: يا بني، نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم، أي قليل من الأدب أفضل من كثير من العلم.

سئل الحسن البصري رحمه الله تعالى عن أنفع الأدب فقال: " التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة لما لله عليك ".

وقال بعض العلماء: الأدب هو أن تستعين بالله على مراد الله.

وقال ابن المبارك: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون، والأدب للعارف كالتوبة للمستأنس، ومن قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بإخلاص ".

ومن الأدب أن تعرف رعونات النفس، وأن تجتنب تلك الرعونات.

بعض الأمثلة:

سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كيف ناجى ربه، لما سأله الله تعالى: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ

أرأيت الفرق بين العبارتين، واللهِ ما قلت هذا يا رب،

(إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦))

[سورة المائدة]

فأثنى على الله عز وجل:

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧))

[سورة المائدة: الآية ١١٧]

ويا رب، ما دخلي أنا ؟ أنت أرحم الراحمين، أنت رب العالمين:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨))

[سورة المائدة: الآية ١١٨]

كلام يقطر أدباً.

صدقوا أيها الإخوة أنك ترقى عند الله بالأدب .

سيدنا يوسف التقى بإخوته الذين أرادوا قتله، وضعوه في غيابات الجب، وضعوه في بئر عميقة في أعماق الصحراء، الأمل بنجاته صفر، فلما التقى بإخوته، وهو عزيز مصر قال لهم:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

[سورة يوسف: الآية ١٠٠]

بربكم أيهما أشد خطراً، أن يكون في البئر أم في السجن ؟ في البئر، لكن لو قال: وقد أحسن بي إذ أخرجني من البئر، ومن الجب لذكرهم بأعمالهم السيئة، فتلافى أن يحرجهم، قال:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

[سورة يوسف: الآية ١٠٠]

ولم يقل: من بعد أن تلبسّكم الشيطان، قال:

(مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي)

[سورة يوسف: الآية ١٠٠]

جعلهم طرفاً بريئاً، إلا أن هذا من فعل الشيطان، فلا بد أن نتعلّم من كلام الأنبياء الأدب، أنا لا أوافق على من يقول: لا حياء في الدين، أنا أقول: الدين كله حياء، دقق في قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

[سورة المؤمنون]

تحت هذه الكلمة يدخل كل أنواع الانحراف الجنسي، أحياناً بعض الفقهاء ـ سامحهم الله ـ يصفون الأشياء بأسمائها، والعورات بألفاظها، يفصلون في دقائق العمل الجنسي، وإذا أرادوا أن يعبروا عن فساد المجتمع ذكروا أعضاء المرأة عضواً عضواً، وكيف أنه ينكشف، ليس هذا من الأدب.

في القرآن الكريم آيات كثيرة تعبر عن اللقاء الزوجي، لكن بطريقة لا تخدش الحياء:

فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً

[سورة الأعراف: الآية ١٨٩]

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

[سورة النساء: الآية ٤٣]

وما لم نتأدب بالآداب التي وردت في القرآن، وما لم نتأدب بأدب النبي العدنان فلن ننجح، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((سَأَلَتْ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ تَغْتَسِلُ مِنْ حَيْضَتِهَا، قَالَ: فَذَكَرَتْ أَنَّهُ عَلَّمَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ فَتَطَهَّرُ بِهَا، قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا ؟ قَالَ تَطَهَّرِي بِهَا، سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَاسْتَتَرَ ـ وَأَشَارَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ بِيَدِهِ عَلَى وَجْهِهِ ـ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاجْتَذَبْتُهَا إِلَيَّ، وَعَرَفْتُ مَا أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ))

[مسلم]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا))

[متفق عليه]

إن أراد أن يعظ الناس كان يقول:

((ما بال أقوام يفعلون كذا و كذا))

فلا يسمِّي، لا يواجه أحداً بما يكره.

سيدنا أيوب يقول:

(أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣))

[سورة الأنبياء: الآية ٨٣]

لم يقل: فاشفني، قال:

(الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣))

أنا مستسلم لك، لكنك رحيم، أيضاً هذا الكلام في منتهى الأدب.

سيدنا موسى:

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤))

[سورة القصص: الآية ٢٤]

يا رب، أنا مفتقر لهذا العمل الصالح، طبعاً بعض العلماء يرون أن هذا من الأدب:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(٨٠))

[سورة الشعراء]

رأيهم أنه من الأدب ألاّ تنسب المرض إلى الله عز وجل، لكنني أرى أن هذه الآية فيها ملمح دقيق، وهو أن أصل المرض من فساد في البيئة، أو في التعامل مع الطعام والشراب، لأن خلق الله كامل كمالاً مطلقاً، حينما تقتني مركبة هذه المركبة لابد من تبديل أجزاء منها من حين لآخر، لكن لا تجد

مركبة يمكن أن تقتنيها، وأن تبقى عندك عشرين عاماً دون أن تبدل فيها بعض القطع، هذا خلق لإنسان، لكن الإنسان مصمم أنه لو اتبع السنة في طعامه وشرابه، وفي مسكنه، وفي نقاء الهواء، وفي نقاء المال، وفي راحة النفس، يعيش حياة مديدة من دون مرض.

أصل المرض خلل في حياتنا، إما ضغوط نفسية شديدة، أو إفراط في الطعام والشراب، أو تلوث في البيئة وفي الماء، الأمراض لها سبب من صنعنا، وقد يكون من طبيعة العصر، حيث غيَّروا خلق الله عز وجل، أحياناً تتفاقم الأورام الخبيثة عشرة أضعاف من استخدام المواد التي ينبغي ألا نستخدمها.

يوجد مواد مشعة، يوجد مواد بلاستيكية، يوجد شدة نفسية، هذه كلها هجينة عن طبيعة الإنسان:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠))

[سورة الشعراء: الآية ٨٠]

أصل المرض خلل في الحياة، إما في التعامل مع الطعام والشراب، أو التعامل مع الأحداث. قال السيد المسيح:

(وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨))

[سورة المائدة: الآية ١١٨]

يا رب، أنت لا أحد يستطيع أن يراجعك لو غفرت لهم، أنت المطلق في أحكامك، أي رجل اغتسل عرياناً أمام النبي فقال له: خذ أجرك لا حاجة لنا بك، أني أراك لا تستحي من الله، إنسان ما رئي ماداً رجليه بين أصحابه قط، و هو سيد الخلق.

امرأة كانت تستوقفه في الطريق فيقف، ويصغي لها، تكلمه في حاجاتها عندما جاء عدي ابن حاتم، وهو ملك، استقبله النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من إكرام النبي صلى الله عليه وسلم أنه استقبله في بيته، وهذا إكرام كبير، قال: دفع إلي وسادة من أدم محشوة ليفاً، قال لي: اجلس عليها، قلت: بل أنت، قال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس هو على الأرض، قال: فعلمت أنه نبي مرسل، وليس بملك.

مرة دخل عمر بن الخطاب على النبي عليه الصلاة والسلام، و قد أثر الحصير في خده الشريف ـ له علامات على خده ـ فبكى عمر، قال: يا عمر ما يبكيك ؟ قال: رسول الله ينام على الحصير، و كسرى ملك الفرس ينام على الحرير !؟ قال: يا عمر، إنما هي نبوة، وليست ملكاً.

في رواية: يا عمر أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا ؟ قال: يا عمر، أنت في شك، إنما هي نبوة، وليست ملكاً.

معقول سيد الخلق، وحبيب الحق، وزعيم أمة يدخل أعرابي عليه فيقول: أيكم محمد ؟ لا يوجد شيء متميز له إطلاقاً ؟ لا يوجد ثياب خاصة ؟ لا يوجد شيء على كتفه ؟ لا يوجد كرسي خاص ؟ أيكم محمد ؟ فقال عليه الصلاة و السلام أنا، و في رواية قال له أحد الصحابة: ذاك الوضيء محمد. تواضعه لا يصدق، يأكل مع العبد، يجلس جلسة العبد

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ:

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه]

صدقوا أيها الإخوة، إن لم تدهش بأخلاق المؤمن فليس مؤمناً، يجب أن تدهش من التواضع، من الإنصاف، من العدل، من الحلم، من الصبر، هذه كلها صفات المؤمنين، أما الوقاحة والجرأة بالباطل، والتعليق اللاذع، والموقف القاسي، وأن تفضح الناس، وأن تشهر بهم فهذا من أخلاق المنافقين.

لا يتم إيمانك إلا إذا كنت مؤدباً مع الله، ومؤدباً مع رسول الله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة الحجرات: الآية ١]

لا تقدم الاقتراحات.

أيها الإخوة الكرام، كما قال أحد العلماء الكبار لأحد تلاميذه: يا بني، نحن إلى أدبك أحوج منا إلى علمك، وتراه يصغي للحديث بسمعه وبقلبه، ولعله أدرى منهم.

معظم الناس سمعتها، نحن نعرف هذه القصة، قمعه، صغره، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((لا تحمروا الوجوه))

[ورد في الأثر]

أعطى رقماً خطأ، أنت خاطئ، إذا كانت القضية لا علاقة لها بالعقيدة ولا بالدين، وأعطى رقماً أو سعرًا معيّنًا، أو درجة حرارة معينة فلا ضير، يوجد شخص قناص، إذا غلطت يتشفى منك، ليس من أخلاق المؤمن القنص، أما إذا كانت أخطاء في العقيدة فينبغي ألا تسكت، أما قضية معلقة بالأسعار، بدرجات الحرارة مثلاً، و بكمية الأمطار، يكون الشخص متحمسًا دون أن يشعر الرقم زاد قليلاً، يوجد شخص مهمته الأولى إحراج الناس، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا تحمروا الوجوه))

أي: لا تحرجوا الناس.

لذلك كان عليه الصلاة والسلام أديباً، وحينما تعجب أصحابه من أدبه قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[السيوطي في الجامع الصغير عن ابن مسعود، والحديث فيه ضعف]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٤٧-٦٤) : أدب الأنبياء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من المسلم به أن في الإسلام عقائد وعبادات ومعاملات وآداب.
لو تتبعنا في كتاب الله الأدب الذي أدب الله به أنبياءه الكرام لوجدنا شيئاً دقيقاً، ونحن في أمسّ الحاجة إليه.
سيدنا إبراهيم حينما جاءه الضيوف راغ إلى أهله، قالوا: راغ إلى أهله أي انسلّ خفية دون أن يقول: لهم أتحبون أن تأكلوا، الجواب القطعي: لا، الضيف يستحي أن يطلب الطعام، فإذا سألته أحرجته، وقد تحمله على أن يكذب، وقد يكون جائعاً، فالضيف لا يستأذن في تقديم الطعام له.
راغ: أي انسلّ خفية، بآيات أخرى:

(فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩))

[سورة هود: الآية ٦٩]

ما لبث أي: لم يطل تقديم الطعام طويلاً، قد يكون الضيف جائعاً، قد تطعمه الساعة السادسة مساء، ومن عادته أن يأكل الساعة الثانية ظهراً، أنت مرتاح:

(فَمَا لَبِثَ)

[سورة هود: الآية ٦٩]

من آداب الطعام أن تقدم له الطعام سريعاً:

(أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩))

[سورة هود: الآية ٦٩]

أي: لحم طيب، فالمؤمن كالنحلة لا يأكل إلا طيباً، ولا يطعم إلا طيباً.

أول شيء انسل خفية، ولم يستأذن الضيف في تقديم الطعام، لأن الضيف يستحي، ثم إنه لم يغب طويلاً حتى جاءه الطعام هذا الأدب الثاني، وجاء بطعام طيب، الشيء الرابع فقربه إليهم، أحياناً بالموائد يوجد طعام طيب بعيد جداً الضيف يستحي أن يقوم، ويذهب إلى آخر المائدة ليأخذ منه قسماً، إذاً تقريب الطعام للضيف أيضاً من آداب الضيافة.

الأدب الرابع قال:

(أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١))

أحياناً يأتيك، والأهل يقدمون لك طبق الفواكه، تضعه أمامه، وتجري معه حديثاً طويلاً ساعة أو ساعتين، الضيف يشتهي أن يأكل، لكن يستحيل أن يبادر فيأكل دون أن تقول له: تفضل، إذاً قال:

(أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١)

انسل خفية، ولم يستأذن الضيف، وما غاب كثيراً، جاء بالطعام سريعاً، أي: كان مستعداً، وجاء بعجل حنيذ، أي: طعام نفيس، فقربه إليهم قال:

(أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١))

سيدنا يوسف حينما قال:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

[سورة يوسف: الآية ٣٣]

مرة إنسان أظنه صالحاً، ولا أزكي على الله أحداً، وهو طبيب، قال لي: أنا لا أتأثر بالنساء إطلاقاً، عندي إرادة قوية، قلت: ما هذا هو الأدب الذي أدب الله به أنبياءه، سيدنا يوسف قال:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣))

[سورة يوسف: الآية ٣٣]

فأنت حينما تعتمد على حفظ الله لك تكون أكثر أدباً مما لو تعتمد على إرادتك القوية، وقد تنهار الإرادة، وهناك حالات كثيرة جداً إنسان يملك إرادة حقيقية، إرادة حديدية، ينهار أحياناً، ويرتكب حماقة ما بعدها حماقة:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ)

[سورة يوسف: الآية ٣٣]

سيدنا يونس في بطن الحوت:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

[سورة الأنبياء: الآية ٨٧]

يا رب، أنقذنا، لا، قال له:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧))

[سورة الأنبياء: الآية ٨٧]

سبحه، ومجده، واعترف بذنبه، هذا هو الأدب.

سيدنا أيوب:

(أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ)

[سورة الأنبياء: الآية ٨٣]

يا رب، اشفني، قال:

(وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣))

[سورة الأنبياء: الآية ٨٣]

أرأيتم إلى هذا الأدب ؟

سيدنا عيسى:

(أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

[سورة المائدة: الآية ١١٦]

أي: الجواب الطبيعي، لم أقل ذلك يا رب، قال:

(إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً)

[سورة المائدة]

التقى بإخوته فأثنى على الله عز وجل:

(رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ)

[سورة يوسف: الآية ١٠١]

والحقيقة يوجد في هذه الآية ملمح لطيف، قد يفهمها معظم الناس، قد جعله ملكاً، أو وزير اقتصاد، أو رئيس وزارة، وهذه مناصب تعطى لمن يحب، ولمن لا يحب، أعطى الله الملك لفرعون، وهو لا يحبه، لكن من أوجه ما قرأت في التفاسير عن هذه الكلمة أي: أعانه الله على أن مَلَك نفسه عند الشهوة، عندما دعته امرأة ذات منصب و جمال قال: إني أخاف الله رب العالمين، هذا هو الملك الحقيقي، أن تكون مسيطراً، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام لو ذهبنا نعدد فضائله وخصائصه ومزاياه لا ننتهي، لكن الله أغفلها جميعاً، فلما أثنى عليه أثنى على خلقه العظيم، لأن خلقه العظيم من كسبه، كان ضبطه لنفسه عالي المستوى، أما نحن فقد يستفزنا أحد فندخل في صراع مع أنفسنا، أبطش به ؟ أحطمه أم أدعه ؟ تدخل في صراع مرير، وقد تنتصر على نفسك، تقول: سأسامحه، هذا الإنسان ذو خلق عظيم، ولكن ليس على خلق عظيم، معنى على خلق عظيم أي: متمكن في الأعماق، يستحيل أن يخرق مبادئه وقيمه:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤))

[سورة القلم: الآية ٤]

الأنبياء جميعاً كانوا في منتهى الأدب، كانوا في منتهى الخشوع لله عز وجل، و قد تجد إنساناً لا يملك شيئاً، ومع ذلك فهو فظ غليظ، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

أي: يا محمد، على أنك رسول، وعلى أنك نبي، وعلى أنه يوحى إليك، وعلى أنك جاءك القرآن، وأيدتك بالمعجزات، وكنت كالبدر في جمالك، وكنت أفصح العرب، والميزات التي كانت عند النبي لا تصدق، ومع كل ذلك لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك.

كيف بإنسان لا وحي معه، ولا قرآن، ولا معجزات، ولا تأييد، ولا عصمة، ولا فصاحة، ولا جمال، ولا حكمة، ولا رحمة، وهو فظ غليظ القلب ؟ مستحيل.

أيها الإخوة، الحقيقة أجمل شيء في الإنسان الأدب، بلغه أن الأنصار وجدوا عليه في أنفسهم فسأل زعيمهم سعد بن عبادة قال: ما القضية ؟ قال: إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم، متألمين لهذا الفيء الذي أعطيته للعرب، ولم تعطهم منه شيئًا، النبي بحكمته البالغة أراد أن يعرف هذا موقف سعد، أم هو ناقل أمين ؟ قال له: يا سعد أين أنت منهم ؟ قال: ما أنا إلا من قومي، أيضاً أنا حزين، فقال: اجمع لي قومك، جمع له الأنصار، الآن تصوروا أن النبي عليه الصلاة والسلام في أقوى مركز بعد أن انتهى من حنين، هذه آخر معركة، ودانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وما اجتمعت الجزيرة في يوم سابق على إنسان واحد كما اجتمعت على رسول الله.

كلمته نافذة في أي مكان، و بإمكانه أن ينهي وجودَ هؤلاء الذين انتقدوه، يفعل الطغاة، إلغاء وجود كامل، جمعهم بإمكانه أن يهملهم، بإمكانه أن يهدر كرامتهم، بإمكانه أن يعاتبهم لصالحه، بإمكانه أن ينساهم، أن يهملهم، ما الذي فعله ؟

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:

((لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أَنَا، قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، فَقَالَ e: يَا مَعْشَرَ

الْأَنْصَارِ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ؟ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ ؟ ـ أرأيت إلى هذا الأدب الرفيع، لم يقل: فهديتكم هداكم الله هو الأصل، بي، أنا أداة ـ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ، وَالْفَضْلُ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُاللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرَّقْنَا))

[أحمد، الدارمي]

بماذا ذكرهم ؟ بفضلهم عليه.

يا ترى هذه القصة أين مكانها في السيرة ؟ مع وفائه أم مع حكمته ؟ أم مع محبته أم مع رحمته ؟ أم مع أي قضية تصنف هذه القصة ؟

الحقيقة أن الشيء المتميز في الأنبياء هو الأدب، الأدب الرفيع.

لما التقى بإخوته سيدنا يوسف قال:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

[سورة يوسف: الآية ١٠٠]

ولكن الجب أخطر ؟ إن ذكر الجب ذكرهم بجريمتهم لئلا يحرجهم:

(مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي)

[سورة يوسف: الآية ١٠٠]

الآن الله عز وجل أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون أديباً مع الطرف الآخر، مع الخصم، قال:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤))

[سورة سبأ: الآية ٢٤]

أنا وأنتم طرفان، والهدى إما معكم أو معنا، ما هذه الفرضية ؟ ليس القصد أن تجرحهم، ولا أن تستعلي عليهم، ولا أن تصغرهم، القصد أن تأخذ بيدهم إلى الله عز وجل.

إخوانا الكرام، كلما نما إيمانك نما أدبك، كلما قوي إيمانك اشتد أدبك مع الله أولاً، و مع العباد ثانياً، ومع الأنبياء ثالثاً.

هذا الذي يقول: يقول لك محمد، هكذا بالضبط، من محمد ؟ قصده النبي عليه الصلاة والسلام، المؤمن يقول: سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، يتكلم عن الأنبياء، وكأنهم أشخاص عاديون.

فيا أيها الإخوة الكرام، لو تتبعتم أقوال الأنبياء لوجدتم في أقوالهم أدبا رفيعا.

الذي أتمناه عليكم حق التمني ألا تتوهموا أن هؤلاء الأنبياء لهم قصص درسناها، وأخذنا العلم بها، لا، هي لنا، إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، يوجد وهم معشعش في أذهان الناس، يا أخي، هذا نبي، من قال لك: إنك إن قلدته أصبحت نبياً ؟ أنت أقل من النبي بمليار مرة، لكنك مكلف أن تقلد النبي e، أعلى طبيب في المستشفى جراح قلب، وأقل ممرض إن أرادا أن يعطيا حقنة لمريض فلابد من التعقيم، لابد من تعقيم الإبرة، لابد من مسح مكان الإبرة بالكحول، لابد، لابد، يوجد إجراءات لابد من أن يطبقها كل من أعطى مريضاً حقنة، فإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فأنت حينما تقرأ القرآن الكريم قلد هؤلاء الأنبياء، قلد صبرهم، قلد أدبهم، سيدنا يعقوب فصبر جميل، تجد إنساناً الآن بأتفه الأسباب صرخ صراخاً في البيت، كسر أبواباً، لسبب تافه جداً، فقد ابنه، ولا يعلم أحد منا ما الألم الذي ينتاب قلب الأب حينما يفقد ابنه، قال:

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)

[يوسف: ٨٣]

(إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)

[يوسف: ٨٦]

لذلك قال بعض العارفين:

و يعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

لكن يوجد استدراك، لو شكوت إلى مؤمن فكأنما شكوت إلى الله، لكنك إذا شكوت إلى كافر فكأنما اشتكيت على الله.

لا تُرِ الكافر ضعضعة ولا ضعفاً ولا تطامناً ولا خضوعاً، أره قوة:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى]

أيها الإخوة الكرام، ملخص هذا الدرس:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[السيوطي في الجامع الصغير عن ابن مسعود، والحديث فيه ضعف]

ومن لم يؤدبه الإسلام لم ينتم إلى الإسلام، المزاح الفاحش، والكلام البذيء، والغمز واللمز، والكلام المغشوش، أي كلمة فيها ضمير غائب يبتسم الحاضرون، كأن موضوع عورات لا شيء فيه.

الجو الآن جو موبوء، المزاح أكثره جنسياً، وأي كلمة تشير إلى شيء بعيد جداً عن قصد المتكلم يفهم فهماً آخر، والمؤمن بريء، ولسانه نظيف، وأخلاقه عالية، غاض لبصره، ضابط للسانه، محسن لخلقه، هذا المؤمن.

المؤمن إذا لم يلفت نظرك بأخلاقه فليس بمؤمن، لابد من التمايز، لابد من كلام لطيف، قال تعالى:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

[سورة البقرة: الآية ٨٣]

أيها الإخوة الكرام، ما أحوجنا إلى أن نتأدب بأدب الأنبياء، و كلما قرأتم في القرآن الكريم ، ومررتم على قصة لنبي كريم فدققوا في دعاء الأنبياء، وفي حوارهم مع الله عز وجل، وفي حوارهم مع إخوانهم.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٤٨-٦٤) : تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، آخر آية في سورة الرحمن:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

ماذا تعني:

(ذِي الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ)

الجلال العظمة، فلعظمته تهابه، فالإكرام مطلق العطاء، فلعطائه تحبه، فالذات الكاملة جل جلاله تعظمها بقدر ما تحبها، وتحبها بقدر ما تعظمها.

أقول لكم هذه الكلمة:

الأنبياء والمرسلون تعظمهم بقدر ما تحبهم، من رآه بديهة هابه، ومن عاملهم أحبهم، فيهم كمال، وجلال، وعطاء، وهيبة، السؤال المزعج: من قال إن الشارد عن الله نظيف جداً، وأنيق جداً، ومنضبط بقواعد الحياة العامة ؟ ومن قال: إن الشارد عن الله عنده إحساس جمالي ؟ تأتي إلى إنسان يدعي أنه مؤمن فيه إهمال، قد تدخل إلى صيدليتين، تجد الأولى في منتهى النظافة والترتيب والأناقة، وقد تدخل إلى صيدلية ثانية، وقد يكون صاحبها محسوباً علينا، وهي في منتهى الفوضوية، وعدم النظافة، هناك إنسان في البداية يؤخذ بالمظاهر، الذي يحصل أن الذي يذهب إلى بلاد الغرب يرى الشوارع والحدائق والنظام والأناقة والجمال، ثم يأتي إلى بلاد الشرق فيرى الفوضى أحياناً، وعدم النظافة، وعدم الإتقان، من هذا الذي من هذا الذي ربط الأناقة والنظام والنظافة بالكفر ؟ ومن هذا الذي ربط عدم الأناقة، والفوضى وعدم النظافة بأهل الإيمان ؟ شيء واقع.

أحياناً أيها الإخوة تذهب إلى بلد شارد عن الله، فترى مظاهر الحضارة في أعلى درجة، تذهب إلى بلد مسلم فترى التخلف والإهمال وعدم النظام.

مرة ذهبت إلى بلد مسلم، لكن لا يختلف عن أرقى بلد في العالم، هذا البلد في آسية، فأحدث لي صدمة، كأنك في أرقى بلد في أوربة أو في أمريكة، وهو بلد مسلم ملتزم، فائضه النقدي ٦٠ مليارًا، يصدّر إلى بلاد العالم كله، مجموع صارداته تزيد على صادرات العالم العربي بأكمله بما فيه النفط، والنظام في أعلى درجة، والأناقة في أعلى درجة، والنظافة في أعلى درجة، والنساء محجبات،

والصحون ممنوعة، وغرامتها مبلغ فلكي، والبطاقات ليست فيها فوائد، والبنوك إسلامية، شيء لا يصدق، هذا هو الإسلام، تفوق في الدين، وتتفوق في الدنيا، فإن أردت أن تكون داعية فلا يمكن أن يحترم دينك إذا كنت متخلفاً عملك مهمل، صناعتك غير متقنة، مواعيدك غير منضبطة، حساباتك غير منضبطة، دوامك غير منضبط، فيك اتكالية، وتسويف، وتأجيل.

فلذلك أيها الإخوة، نحن حينما نرى النظافة، والنظام، والأناقة، هذا من لوازم المؤمن، وأن هذا يجلب الناس، أؤكد لكم أن العالم الغربي لا يمكن أن يقنع بإسلامنا، إلا إذا رآه مطبقاً في بلد ما، أما الإسلام بالكتب فلا قيمة له عنده إطلاقاً، إسلام بالمساجد لا قيمة له إطلاقاً، الإسلام في الحياة، في الطريق، في الانضباط، في تلك البلاد لو معك غلاف قطعة حلوى شفافة لا تستطيع أن تلقيها في الطريق، نظافة ما بعدها نظافة، أناقة ما بعدها أناقة، نظام ما بعده نظام، تجد في مصايفنا، وهذا شيء مؤلم جداً، وفي الأماكن الجميلة بقايا الطعام، والعبوات الفارغة، شيء لا يحتمل، إلى درجة أنك تتقزز أن تأتي هذه الأماكن ، الذي يؤلمني أشد الألم من ربط النظافة بالكفر، وعدم النظافة بالإسلام، اذهب إلى قرية مسلمة لا يعجبك لا منظرها، ولا طرقاتها، ولا بناؤها، اذهب إلى بلدة أخرى ترى الورود والنظافة والأناقة.

أنا انطلقت من هذه الآية لأنه بقدر ما تعظم الله عز وجل بقدر ما تحبه، وبقدر ما تحبه تعظمه، وبقدر ما تعظم النبي تحبه من رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه، قال:

((حسنوا لباسكم، وأصلحوا رحالكم حتى تكونوا شامة بين الناس))

لو أن كل واحد اعتنى ببيته، اعتنى بمحله التجاري، تجد لوحة محل تجاري من ثلاثين سنة ما نظفت، أصبحت سوداء، تجد شركة أجنبية كل شهرين اللوحة تغسل، وتلمع، ما الذي يمنع أن يكون عندنا أناقة ونظافة وانضباط ومواعيد صحيحة ؟

فيجب على الطرف الآخر أن يكبر أناقتك ونظافتك، ومواعيدك وحساباتك حتى يعجب بدينك.

وصدقوا أيها الإخوة أن طالبين مسلمين يقيمان في لندن، ولهم صديق بريطاني يتكلمان العربية، فإذا جاء، وانضم إليهما يتكلمان الإنكليزية، انتبه هو، أنه كلما دخل يغيرون اللغة، فسأل لماذا، فقالوا له: لأن نبينا عليه الصلاة والسلام نهانا أن نتناجى في حضرت رجل ثالث، فإن هذا يحزنه، والتناجي في اللغة العربية، وأنت لا تفهم يحزنك، فإذا دخل إليهم تكلموا الإنكليزية، كان هذا التصرف الطيف سبب إسلامه، قال: نبيكم حضاري.

والله أيها الإخوة، لو ترجعون إلى دقائق هذا الدين لوجدت المسلم بأعلى درجة من الأناقة، والفهم والنظام، ودقة المواعيد، ودقة الحسابات، أكثر من يحاسبه يقول لك: تحاسبنا، أين الحساب ؟ لا

ترتاح، أعطه الحساب، تجد الطبيب يبين لك المرض لا يكبره عليك ولا يصغره، وأسبابه وعلاجه والأدوية، طبيب آخر هذا الدواء فقط خذه، ما ارتاح المريض، لماذا لا نكون حضاريين حتى يحترم الناس إسلامنا ؟ لماذا لا نكون دقيقين بحساباتنا، بمواعيدنا، بكلامنا ؟

والله أيها الإخوة، دخلت إلى بيت في جوبر ما وقعت عيني على بيت أجمل منه، مع أن الأرض ليست عليها بلاط، إسمنت، وغرف، وطرش، والأثاث طراريح، لكن أحواض النبتات كلها مطلية بلون واحد، ليس ثمة شيء في غير محله، البيت في منتهى البساطة، أصحابه فقراء جداً، لكن تشتهي البيت العربي المتواضع من شدة نظافته وأناقته.

تدخل أحيانا بعض البيوت ما فيها نظافة، ولا فيها أناقة، أنا أقول: نحن بحاجة إلى جانب جمالي في حياتنا، لأن العبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، أنت بحاجة ماسة إلى الجمال، جمال البيت، جمال المحل، جمال المكتب، جمال المركبة، والجمال يحتاج إلى نظافة فقط، نظافة، وانسجام، ألوان، وترتيب فقط، لو كل واحد جمل مكان عمله، ومكان بيته، وجمل مسجده لأفلحنا.

أحيانا أسمع عن مساجد نظيفة إلى درجة غير معقولة، شيء يلفت النظر، أنت كمؤمن يجب أن يحبك الناس بقدر ما يعظموك، تفوق وأخلاق.

ثمة واقعة مؤلمة جداً، أنك تجد إنسانًا حسن العبادة، سيئ الأخلاق، أو حسن الأخلاق سيئ العبادة، لا يجتمع الأمران عنده، لماذا لا تكون حسن العبادة وحسن الأخلاق معاً ؟ ما الذي يمنع ؟ اجعل هذه الآية منهجاً لك:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

أحيانا يحب الإنسان أمه محبة لا حدود لها، لكنها أمية، وهو معه دكتوراه، تعليقاتها مضحكة، وفهمها للأمور محدود جداً، هو يحبها، لكن لا يعجب بأفكارها، ولا بنظرتها، ولا بتحليلها، وأحياناً يكون له أستاذ بالجامعة في أعلى درجات الذكاء، والفهم، لكنه لئيم جداً، يكبره لعلمه، ولا يحبه، البطولة أن تجمع بين هاتين الصفتين، أن يحبك الطلاب، وأن يقدروا علمك، وإذا كنت أباً أن تكون محبوباً بقدر ما تكون مهابًا، وإن كنت في منصب أو في عمل جمع طرفي الكمال الإجلال كمال والإكرام كمال، أحدهم موضوعي، والثاني نفعي، جمع طرفي الكمال من جهة واحدة، هذا يلفت النظر، لذلك النبي لما صلى في آخر أيامه نظر إلى أصحابه فابتسم حتى بدت نواجذه، قال:

((علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكنونا أنبياء))

كنت مرة في قطر شقيق، حدثني أخ قال لي: هناك عالم يقول: إن الناس يشربون بول النبي، ودم حجامته، قلت: والله لا أصدق ذلك، كان عليه الصلاة والسلام يأكل التمر، يمسك بالتمرة فيأكلها، لو أنه أنهى أكل التمرة، وبقيت النواة في فمه لو أنه أمسكها بين إصبعيه، ووضعها على الخوان، ثم أمسك تمرة أخرى ليأكلها فوجدها قاسية جداً تركها، وأخذ تمرة ثالثة، ما الذي حصل ؟ انتقل لعابه إلى تمرة لم يأكلها، فكان عليه الصلاة والسلام إذا أكل تمرة وضع النواة هنا بين ظهر إصبعيه لتبقى في إبهامه وسبابته جافة، فإذا أمسك تمرة أخرى لم ينتقل لعابه إلى طبق التمر، هذه أناقة النبي ، وهذا ذوق النبي .

مرة صلى رجل كبير في السن إلى جانبه شاب، عليه علامات التدين، يبدو أن هذا الشيخ أعجبته صلاة هذا الشاب، فلما انتهى دعا له أن يرزقه الله صلاةً في بيت الله الحرام، إما في حج أو في عمرة، الدعاء طبعاً طويل، ضغطه في كلمة واحدة، قال له: حرماً إن شاء الله، هذا الشاب نظر إلى الشيخ، وجحظت عيناه، واكفهر لونه، وقال له: هذا لم يرد في السنة، بقسوة ما بعدها قسوة، فقال له: وهل ورد في السنة قلّة الذوق ؟ هذه السنة إذاً .

تجد أحياناً غلظة في التوجيه، وفظاظة، وقسوة، كان عليه الصلاة والسلام في أعلى درجات اللطف. أيها الإخوة، نريد نموذجًا يجمع بين طرفي التفوق، طرف أخلاقي وطرف علمي، لا أريد إنسانًا متفوقًا، لكنه زنديق، ولا إنسانًا صالحًا، لكنه جاهل، نريد التفوق مع الإكرام، نريد من جمع طرفي الكمال،

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

وأنت مسلم، وأنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتين من قبلك.

أنا أذكر لكم قصة قد لا تصدقونها، لكن المؤلف ذكرها، وهو عندي صادق ، رجل ملحد، من أكبر ملحدي أمريكة، أستاذ رياضيات في جامعة سان فرانسيسكو، سبب إلحاده لما كان طالبًا في التعليم الثانوي انتقد أستاذ الديانة، فأبوه تعصباً لهذا الأستاذ طرده من البيت، فلما طرده اعتنق الإلحاد، جاءته فتاة شرق أوسطية أرسلها إليه أستاذه، هذه الفتاة محجبة حجابًا كاملا، وفي أيام الصيف، والفتيات في أمريكة شبه عرايا، هو صدم أنه هذه عندها قناعات كبيرة جداً، وعميقة جداً، ومتينة جداً، خالفت في ثيابها معظم الفتيات، وقال: أنا أول مرة آخذ فكرة راقية عن الفتيات الشرق أوسطية، تحضر دكتوراه في الرياضيات، يقول هذا المؤلف: من يوم الذي نظرت إلى هذه الفتاة، وأخذت عنها فكرة جيدة، تهيبت أن أحدق في وجهها، ورغبت أن أقدم لها أعلى خدمة، ثم إنني عكفت في اليوم نفسه على قراءة القرآن، والقصة طويلة، ووصل إلى قوله تعالى:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس الآية: ٩٢)

فقال: هذا أول خطأ، اتصل بصديقه بوليس بوكاين بفرنسا، قال له: تعال، قال له: هذا فرعون، أنا رممت يديه بنفسي، وجيء به إلى فرنسا، وسبب وفاته هو الغرق، فصعق، في النهاية طبعاً ألف كتابًا طويلا في مئات الصفحات، لماذا أسلم، أسلم وصار هذا الإنسان من أكبر دعاة أمريكة الآن، اسمه جفري لنك.

ما السبب ؟ فتاة محجبة متفوقة في الرياضيات، تحضر دكتوراه، معنى ذلك أنك إذا تفوقت في الدنيا، وكنت متمسكاً في دينك ترى العجب العجاب، أنت تكون داعية، وأنت صامت، ونحن الآن بحاجة إلى دعاة صامتين، لأنه قد تكون أكبر داعية، وأنت ساكت ، استقامتك، عفتك، أمانتك، صدقك، إتقان عملك، إنجاز وعدك، تحقيق عهدك، دعوة إلى الله هذا معنى قول النبي الكريم:

((أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك))

[ورد في الأثر]

كل واحد سفير المسلمين، وأقول لكم مرة ثانية: والله الذي لا إله إلا هو لو أن الجاليات الإسلامية في العالم الغربي والشرقي طبقوا منهج الله عز وجل لكان موقف الغربيين من الإسلام غير هذا الموقف، لكن يرون الاحتيال أحياناً، والتصريح الكاذب، والتزوير، والطلاق الصوري من أجل نيلة التعويض، كله يفعله المسلمون، أقول لكن هذه الكلمة:

لو نظرت إلى بوذي في الطريق يتسول، هل تفكر لحظة في حياتك أن تقرأ كتابًا عن البوذية ؟ مستحيل، هو حجبك عن دينه، ولما يحتال المسلم، ويكذب، ويكون غير نظيف، وغير أنيق، وغير متفوق، وفي حياته فوضى، وفي حساباته فوضى، وفي علاقاته فوضى، وفي ببيته فوضى.

لو انتقلنا إلى النساء: امرأة مسلمة، لكن لا تعتني بصحتها أبداً، لا تعتني بثقافتها أبداً، لا تعتني بأولادها، تجد امرأة أخرى متفلتة من منهج الله، لكنها أم مثالية، ما الذي يحصل ؟ هذا المسلم يفتن في دينه، لذلك قال تعالى:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً)

(سورة الممتحنة الآية: ٥)

أنت حينما تسيء يتوهم الكافر أنه على حق، ويترفع عما تفعله، ويعتقد أنه على حق، من أقنعه أنه على حق ؟ أنت أقنعته أنه على حق، أنت فتنته في دينه، أما حينما تكون مستقيماً، ومتفوقاً تحدث له صدمة، يندهش، صدقوا أن آلاف الذين دخلوا في الإسلام بسبب مسلم متفوق، أنا مضطر أن أعالج هذه الموضوعات لأننا نعاني مشكلة كبيرة، لأن أعداءنا أقويا، وهم يخططون لتدميرنا، ولا ينجينا

من تدميرهم إلا أن نكون أقوياء، وبالتعبير المألوف حضاريين، بمعنى أنه حقائق هذا الإسلام التي أغفلناها يجب أن نعيدها.

والله في الإسلام مبادئ اجتماعية، مبادئ أخلاقية، مبادئ بالتعامل تفوق حد الخيال، لكننا قد أغفلناها جميعاً.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٤٩-٦٤) : الدعاء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، الآن نتوجه بالدعاء إلى الله عز وجل.

إخواننا الكرام، الدعاء مخ العبادة، الدعاء هو العبادة، الأصح أن الدعاء هو العبادة، وإذا قال الإنسان: آمين، فكأنه هو الذي دعا.

سيدنا موسى دعا الله عز وجل، معه سيدنا هارون، فقال الله عز وجل:

(قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا)

(سورة يونس الآية: ٨٩)

الذي دعا واحد، فالذي يؤمن، والذي يستحضر عظمة الله عز وجل، والذي يتصور بين يدي الله، يدعوه هو داعٍ أيضاً، وهذه الليلة هي أشرف ليلة في السنة، أشرف ليلة على الإطلاق، إنها ليلة القدر.

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

(سورة القدر)

هذه الليلة إن صحت فيها الصلة، وصح فيها الإقبال، وصح فيها الدعاء خير من أن تعبد الله ثمانين عاماً عبادة جوفاء،

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل دعاءنا، نغمض أعيننا، ونتوجه إلى ربنا، ونستحضر عظمة الله عز وجل، ونؤمن في قلوبنا على الدعاء.

اللهم إنا نستعينك، ونستهديك، ونستغفرك، ونتوب إليك، ونتوكل عليك، ونثني عليك الخير كله، نشكرك، ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وفيك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق.

اللهم لك الحمد لكل نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث، أو خاصة أو عامة أو سر أو علانية، لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالإيمان، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد على ما يسرت لنا بإتمام القرآن، والتوفيق للصيام والقيام، لك الحمد كثيرا كما تنعم كثيرا ، ولك الشكر كثيرا كما تجزي كثيرا، لك الحمد على نعمك العظيمة، وآلاءك الجسيمة، لك الحمد بكل نعمك علينا يا رب العالمين، لك الحمد على ما أتممت علينا شهرنا، وعلى ما يسرت لنا من إتمام قرآننا، يا رب العالمين، لك الحمد على نعمك العظيمة، وآلائك الجسيمة حيث أرسلت إلينا أفضل رسلك، وأنزلت إلينا خير

كتبك، وشرعت لنا أفضل شرائعك ، وجعلتنا من خير أمة أخرجت للناس، وهديتنا لمعالم دينك التي ليس بها التباس، لا إله إلا الله المتوحد في الجلال، في كمال الجمال تعظيماً وتكبيرا، المتفرد بتصريف الأمور على التفصيل والإجمال تقديراً وتدبيرا، لك الحمد كالذي نقول، وخيراً مما نقول، ولك الحمد كالذي تقول، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

اللهم إنا عبيدك، بنو عبيدك، بنو إمائك، ناصيتنا بيدك، ماضٍ فينا حكمك، عدل فينا قضاؤك، نسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، وقائدنا، وسائقنا إلى رضوانك، وإلى جنات النعيم.

اللهم ألبسنا به الحلل، وأسكنا به الظلل، وأسبغ به علينا من النعم، وادفع عنا به من النقم.

اللهم اجعلنا مما يتلوه حق تلاوته، على الوجه الذي يرضك عنا.

اللهم اجعل القرآن العظيم لقلوبنا جلاء، ولأبصارنا ضياء، ولقلوبنا نورا ولأسقامنا دواء، ومن الذنوب ممحص، وعن النار مخلصا، وإلى أعلى جناتك قائداً يا رب العالمين.

اللهم ذكرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضك عنا.

اللهم اجعلنا ممن يقيمون حروفه، وحدوده، ولا تجعلنا ممن يقيمون حروفه ويضيعون حدوده، يا رب العالمين.

اللهم ارزقنا العمل بكتابك، ارزقنا التخلق بكتابك، والتأسي بنبيك صلى الله عليه وسلم.

اللهم اجعل ما تلوناه حجة لنا لا حجة علينا، يا إلهنا، وخالقنا، ورازقنا.

اللهم تقبل صيامنا، ودعاءنا، وتلاوتنا، وقيامنا يا رب العالمين.

اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافينا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت، وقنا، واصرف عنا شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، ولك الحمد على ما قضيت، ولك الشكر على أعطيت، نستغفرك من جميع الذنوب، ونتوب إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا الله بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادنا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا إلى النار مصيرنا، واجعل الجنة هي دارنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك، ولا يرحمنا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

لا إله إلا الله الولي الحميد، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان مجيب الدعوات، سبحان مغيث اللهفان،

سبحان غافر الذنوب والخطيئات، لا إله إلا الله إلا أنت سبحانك، إنا كنا من الظالمين، لا إله إلا الله عدد ما مشى فوق السماوات والأراضين ودرج، والحمد لله الذي بيده مفاتيح الفرج، يا فرجنا إذا غلقت الأبواب، ويا رجاءنا إذا انقطعت الأسباب، وحيل بيننا وبين الأهل والأصحاب، والإخوة والأحباب.

اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنا، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنا، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنا.

إلهنا قد حضرنا ختم كتابك، وأنخنا مطايانا ببابك، لا تطردنا عن جنابك، فإن طردتنا فإنه لا حول لنا ولا قوة.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، ودمر أعداء الدين ، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخياً مطمئناً، وسائر بلاد المسلمين.

اللهم آمنّا في أوطاننا، وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا، واجعل ولايتنا فيمن يخافك، ويتبع رضوانك يا رب العالمين، اللهم وفق جميع ولاة المسلمين للحكم في شريعتك، واتباع سنة نبيك، وإظهار دينك، وإقامة حدودك يا رب العالمين.

اللهم وفقهم إلى صراطك المستقيم، أعنهم على القيام بوظائف دينك القويم.

اللهم إنا نسألك فعل الخيرات، ترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لنا وترحمنا، وإذا أردت بعبدك فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين ولا فاتنين.

اللهم إنا نسألك من الخير كله، عاجله وآجله، ما علمنا منه وما لم نعلم، ونعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمنا منه وما لم نعلم، ونسألك من خير ما سالك منه عبد ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وعبادك الصالحين، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم، وعبادك الصالحون.

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، لك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض، لك الحمد أنت الحق، وقولك الحق، ودعاؤك حق، نسألك اللهم أن تغفر لنا وترحمنا، رحمة من عندك تغنينا عن رحمة من سواك، يا حي يا قيوم، برحمتك نستغيث، يا حي يا قيوم، برحمتك نستغيث، يا حي يا قيوم، برحمتك نستغيث، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقلّ من ذلك.

اللهم أنت ربنا لا إله إلا أنت، خلقتنا، ونحن عبيدك، ونحن على عهدك ووعدك ما استطعنا، نعوذ بك من شر ما صنعنا، نبوء لك بنعمتك علينا، نبوء بذنوبنا فاغفر لنا، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

اللهم اكتبنا من عتقائك من النار، اللهم أعتق رقابنا من النار، اللهم أعتق رقابنا من النار، يا عزيز يا غفار.

اللهم برحمتك وفضلك أصلح أحوال المسلمين، أصلح أحوال أمة سيد المرسلين.

اللهم أمنهم في أوطانهم، أصلح أحوالهم، أرخص أسعارهم، ولي عليهم خيارهم اكفهم شر شرارهم، يا ذا الجلال والإكرام، اغفر لنا يا إلهنا، وارحمنا، فإنك بنا راحم ولا تعذبنا فإنك علينا قادر، ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، اصرف عنا عذاب جهنم، ربنا اصرف عنا عذاب جهنم، إن عذابها كان غراما، إنها كانت ساءت مستقرا ومقاما.

اللهم إنا نسألك باسمك الأعظم وبوجهك الأكرم، نسألك باسمك الأعظم الذي إذا سئلت به أعطيت، وإذا دعيت به أجبت، أن تجعلنا والحاضرين والسامعين من أهل الجنان، وأن تعيذنا من الجحيم والنيران، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم وقف علماء المسلمين لبيان الحق والدعوة إليك.

اللهم أجمع قلوب الدعاة إلى سبيلك على كتابك، وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم، ألف بين قلوبهم يا رب العالمين.

اللهم أصلح شباب المسلمين، اللهم أجعلهم قرة أعين لمجتمعاتهم، ولأسرهم وآبائهم، وأمهاتهم، اللهم حبب إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان واجعلهم من الراشدين يا أرحم الراحمين.

اللهم أصلح نساء المسلمين، اللهم ارزقهم العفاف والحشمة والحياء، وأعذهن من التبرج والسفور يا رب العالمين.

اللهم انصر دينك وكتابك، وسنة نبيك، وعبادك المؤمنين.

اللهم من أرادنا وأراد بديننا سوءًا، فأشغله بنفسه يا رب العالمين، ورد كيده إلى نحره، يا أكرم الأكرمين، واجعل تدبيره تدميراً عليه يا سميع الدعاء.

اللهم وفق جميع المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، وفق الأحياء منهم واغفر للأموات، إنك سميع قريب مجيب للدعوات.

اللهم اغفر لجميع موتى المسلمين الذين شهدوا لك بالوحدانية، ولنبيك بالرسالة وماتوا على ذلك.

اللهم اغفر لهم وارحمهم، وعافهم واعف عنهم، أكرم نزلهم، وسع مدخلهم اغسلهم بالماء والثلج والبرد، نقهم من الذنوب كما والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

اللهم أنزل على قبورهم الضياء والنور، والفسحة والسرور، يا عزيز يا غفور ، حتى يكونوا في بطون الألحاد مطمئنين، وعند قيام الأشهاد آمنين.

اللهم ارحمنا إذا وارنا التراب، وفارقنا الأهل والأحباب والأصحاب.

اللهم اجعل قبورنا روضة من رياض الجنة، ولا تجعلها حفراً من حفر النار، برحمتك يا عزيز ويا غفار.

اللهم هون علينا سكرات الموت.

اللهم ثبتنا عند الموت.

اللهم إنا نعوذ بك أن يتخبطنا الشيطان عند الموت.

اللهم ارحم في هذه الدنيا غربتنا، وارحم في القبور وحشتنا، وارحم يوم العرض عليك ذلة وقوفنا، يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم ارحمنا إذا برزنا إليك، ارحمنا يوم العرض عليك، ارحمنا إذا شخصت الأبصار، ارحمنا إذا حفيت الأقدام، ارحمنا إذا عريت الأجسام، ارحمنا إذا دنت الشمس من رؤوس الأنام، وجيء بجهنم تقاد بألف زمام، ومع كل زمام سبعون ألف ملك.

اللهم احفظ مجتمعات المسلمين من كل الآفات، وعمها بالخيرات والبركات ، وطهرها من المعاصي والمنكرات، ادفع عنا الغلاء والوباء، والرياء والزنا يا رب العالمين اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم نلقاك، واجعلنا أغنى خلقك بك، وأفقر عبادك إليك، هب لنا غنًى لا يطغينا، وصحة لا تلهينا، وأغننا بفضلك عما أغنيتنا عنا.

اللهم أعد علينا رمضان أعوامًا عديدة، وأزمنة مديدة.

اللهم أعده على الأمة الإسلامية وهي تركن بثوب العز و النصر على أعدائها يا قوي، يا متين.

اللهم أعده علينا سنين بعد سنين، مجتمعين غير متفرقين.

اللهم ارزقنا الاستقامة على الأعمال الصالحة في رمضان، وبعد رمضان.

اللهم ارزقنا التوبة الصادقة، والإنابة المخلصة.

اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، وتولى أمرنا، وفك أسرنا، وأعتق رقابنا من النار.

اللهم ارحمنا بالإسلام قاعدين، وقائمين، وراقدين، ولا تشمت بنا الأعداء والحاسدين، يا قوي يا عزيز، يا أرحم الراحمين.

اللهم كما وفقتنا بالصيام والقيام، فمنّ علينا بالقبول يا ديان.

اللهم منّ علينا بالقبول إلهنا، ولا تردنا خائبين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم اجعل اجتماعنا هذا اجتماعاً مرحوما، واجعل تفرقنا من بعده تفرقاً معصوما، ولا تجعل فينا ولا منا ولا معنا شقياً ولا محروما.

اللهم هؤلاء عبادك اجتمعوا إليك فاغفر لهم، وارحمهم، وعافهم، واعف عنهم.

اللهم ارحم ضعفنا، واجبر كسرنا، وتولى أمرنا، واختم بالصالحات أعمالنا، وبالسعادة أحوالنا.

اللهم اجبر كسرنا على فراق شهرنا، وأحسن عزاءنا على فراق شهرنا.

اللهم لا تجعل هذه الوقفة آخر العهد.

اللهم ما قصر عنه رأينا، ولم تبلغه مسألتنا من خير أنزلته على أحد من عبادك فاجعل لنا من أوفر حظ ونصيب.

اللهم إنك تسمع كلامنا، وترى مكاننا، وتعلم سرنا وعلانيتنا، نحن الفقراء إليك، نحن الفقراء إليك، نحن الأسرى المنطرحون بين يديك، نسألك مسألة المساكين، وندعوك بدعاء المذنبين، ونبتهل إليك ابتهال الخائفين، ابتهال من خضعت لك رقابهم، وذلت لك أجسادهم، ورغمت لك أنوفهم. اللهم تقبل منا يا أرحم الراحمين، اللهم تقبل منا أعمالنا، واجعلها خالصة لوجهك يا كريم، لا تجعل لأحد في أعمالنا مقصدا يا أرحم الراحمين، ارزقنا الإخلاص في أقوالنا وأعمالنا، وأعدنا من الرياء والسمعة يا حي يا قيوم.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، يا الله على ما أنعمت به، وأوليت، نستغفرك ونتوب إليك، نستغفرك من كل نذب وخطيئة، ونتوب إليك، نؤمن بك، ونتوكل عليك، أنت الغني، ونحن الفقراء، أنت القوي، ونحن الضعفاء، أنت الغني، ونحن الفقراء، أنت القوي، ونحن الضعفاء، أنت الغني، ونحن الفقراء، أنت القوي، ونحن الضعفاء.

اللهم يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك.

اللهم هب لنا منك عملاً صالحاً يقربنا إليك.

اللهم استرنا فوق الأرض، وتحت الأرض، ويوم العرض، اللهم استرنا فوق الأرض، وتحت الأرض، ويوم العرض.

اللهم أحسن وقوفنا بين يديك، ولا تخذنا يوم العرض عليك، لا تخزنا يوم العرض عليك، تقبل صلاتنا، وصيامنا، وقيامنا، وركوعنا، وسجودنا، تقبل صيامنا وتقبل قيامنا، وتقبل ركوعنا، وتقبل سجودنا، اجعلنا من عتقاء رمضان أجرنا من النار، أجرنا من خزي النار، أجرنا من كل عمل يقربنا إلى النار، أدخلنا الجنة مع الأبرار ، برحمتك يا عزيز ويا غفار.

اللهم اجعل يا مولانا في شهرنا هذا، وفي يومنا هذا، وفي ليلتنا هذه من عتقائك من النار، اجعلنا من المقبولين الفائزين، برحمتك يا أرحم الراحمين، برحمتك يا الله، يا ملك يا الله، يا قدوس، يا سلام، يا مؤمن، يا مهيمن، يا عزيز، يا جبار، يا متكبر، يا خالق يا بارئ، يا مصور، يا غفار، يا قهار، يا وهاب، يا رازق، يا فتاح، يا عليم، يا قابض يا باسط، يا خافض، يا رافع، يا معز، يا مذل، يا سميع، يا بصير، يا حكم، يا عدل يا لطيف، يا خبير، يا حليم، يا عظيم، يا غفور، يا شكور، يا عليم، يا كبير، يا حفيظ يا مقيت، يا حسيب، يا جليل، يا كريم، يا رقيب، يا مجيب، يا واسع، يا مجيد، يا واجد يا واحد، يا صمد، يا قادر، يا مقتدر، يا مقدم، يا مؤخر، يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن، يا والي، يا متعال، يا حي، يا قيوم، يا مقيت، يا مميت، يا بر، يا تواب، يا منتقم، يا عفو، يا رؤوف، يا مالك الملك ، يا ذا الجلال والإكرام، يا مقسط، يا جامع، يا غني، يا مغني، يا مانع، يا ضار، يا هادي، يا نور، يا بديع، يا باقي، يا وارث، يا رشيد، يا صبور، يا الله برحمتك نستغيث.

يا من ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، يا من ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، يا من ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، يا نعم المولى، ونعم المصير، سبحانك لا تحصي ثناء

عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، جل وجهك، وعز جاهك، تفعل ما تشاء بقدرتك، وتحكم ما تريد بعزتك، يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم زينا بزينة القرآن، أدخلنا الجنة بشفاعة القرآن، أكرمنا بكرامة القرآن ألبسنا بخلعة القرآن، شرفنا بشرف القرآن، ارحم جميع أمة محمد بحرمة القرآن.

اللهم اهدنا ووفقنا إلى الحق، وإلى طريق مستقيم ببركة القرآن، وبحرمة القرآن وبحرمة من أرسلته رحمة للعالمين، واعف عنا يا كريم، عافنا يا رحيم، اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا.

اللهم اجعل القرآن حجة لنا، ولا تجعله حجة علينا، اجعلنا ممن يقرأه فيرقى، ولا تجعلنا ممن يقرأه فيذل ويشقى، ارزقنا بكل حرف من القرآن حلالاً، وبكل كلمة وبكل آية سعادة، وبكل سورة سلامة، وبكل جزء جزاء.

اللهم ارزقنا القناعة، حببنا إلى صلاة الجماعة، ذكرنا بالموت كل ساعة احشرنا مع النبي المصطفى.

اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن عين لا تدمع، ومن عين لا تدمع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع، نسألك علماً نافعاً وقلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً، وعملاً صالحاً، ويقيناً صادقاً، نعوذ بك من الموت وكربته، والقبر وغمته، والصراط وزلته، ويوم القيامة وروعته، نعوذ بك من الموت وكربته، والقبر وغمته، والصراط وزلته، ويوم القيامة وروعته، اجعلنا نخشاك حتى كأنا نراك، وأسعدنا بتقواك، ومتعنا برؤياك، واجمعنا بنبيك ومصطفاك، اجعلنا نخشاك حتى كأنا نراك، أسعدنا بتقواك، متعنا برؤياك، اجمعنا مع نبيك ومصطفاك، انصر الإسلام وأعز المسلمين، أعلِ بفضلك كلمة الحق والدين، أهلك الكفرة والمشركين أعداءك أعداء الدين، رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً، رد المسلمين إلى دينك رداً جميلاً، انصرنا على أنفسنا، اللهم انصرنا على أنفسنا حتى نستحق أن تنصرنا على أعداءنا، استجب دعاءنا، واشف مرضانا، وارحم موتانا، وأهلك أعداءنا، ولا تخيب فيك رجاءنا، اختم بالباقيات الصالحات أعمالنا، بلغنا مما يرضك آمالنا، ولي علينا خيارنا، لا تولِّ علينا شرارنا، ارفع مقتك وغضبك عنا، ارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك، ولا يخشاك، ولا يرحمنا، طهر قلوبنا، وأزل عيوبنا، واكشف كروبنا، وتولنا بالحسنة، واجمع لنا خيري الدنيا والآخرة، أصلح أحوالنا، ألف بين قلوبنا، اختم بالباقيات الصالحات أعمالنا، برحمتك الواسعة عمَّنا، اكشف شر ما أغمّنا وأهمنا، على الإيمان الكامل والسنة جمعاً توقنا، وأنت راضٍ عنا، اجعل القرآن لنا في الدنيا قرينا، وفي القبر مؤنسا، وعلى الصراط نورا، وفي القيامة شفيعا، وإلى الجنة رفيقا، ومن النار ستراً وحجاباً، ومن النار ستراً وحجاباً، وإلى الخيرات دليلا وإماما، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين.

اللهم باعد بيننا وبين خطايانا كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقنا من خطايانا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

اللهم اغسلنا من خطايانا بالماء والثلج والبرد، إنك عفو كريم تحب العفو فاعفُ عنا يا كريم، تب علينا يا رحيم، سامحنا بفضلك يا أرحم الراحمين، متعنا بالنظر إلى وجهك الكريم، متعنا بالنظر إلى وجهك الكريم، متعنا بالنظر إلى وجهك الكريم، اجعلنا من الذين تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك الله اللهم، وتحيتهم في سلام، لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا، لا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

اللهم من تدخل النار فقد أخذيته وما للظالمين من أنصار، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار، وآتنا ما وعدتنا على رسلك، ولا تخذنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد.

يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الكمال والإنعام، يا ذا العفو والغفران، سبحانك إذا كان عفوك يستغرق الذنوب فكيف يكون رضوانك ؟ وإذا كان رضوانك نزكو به النفوس فكيف يكون حبك ؟ وإذا كان حبك ينير القلوب كيف يكون ودك، وإذا كان ودك ينسي كل ما سواك فيكف يكون لطفك ؟ يا مجيب دعاء المضطرين، يا ولي عبادك المؤمنين، يا غاية آمال العارفين، يا منتهى، أمل الراجين يا حبيب قلوب الصادقين، يا خير من سئل، يا أرحم من استرحم، يا من لا يخفى عليه إغماض الجفون، ولا لاحظ العيون، ولا ما استقر في المكنون، كيف نستدل عليك ونحن في وجودنا مفتقرون إليك.

اللهم إنك قدرت، وقضيت، وأمت، وأحييت، وأمرضت، وشفيت، وعافيت وابتليت، وأغنيت، وأقنيت، وأضحكت وأبكيت، المرجع والمآل إليك، نحن بك وإليك، كل عزيز غيرك ذليل، وكل قوي غيرك ضعيف، وكل مالك غيرك مملوك، لك العبادة، وإليك التوجه، ومنك الخشية، ومنك الاعتماد، لا احتكام إلى إليك، ولا سلطان إلا لشريعتك، ولا اهتداء إلا بهداك، كل شيء قائم بك، وخاشع لك، غمى كل فقير، عزّ كل ذليل، قوة كل ضعيف، مفزع كل ملهوف، من تكلم سمعت نطقه، ومن سكن علمت سره، ومن عاش تكفلت برزقه، ومن مات فإليك منقلبه، ورأيت النبت في الصحراء يربو وحده، فسأله من أرباك، إذا رأيت البدر يسري ناثراً أنواره فسأله امن أسراك، إذا رأيت النهر بالعذب الفرات جرى فاسأله من أجراك، إذا رأيت البحر في الملح الأجاج طغى فاسأله من أطغاك، يا رب لا يطيب الليل إلا بمناجاتك، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك، ولا تطيب الدنيا إلا لذكرك ولا تطيب الآخرة إلا ببرك، يا ذا العزة والجبروت، يا مالك الملك والملكوت، يا من أمّنت يونس في بطن الحوت، ونجيت موسى في التابوت، وحفظت الحبيب محمد بنسيج العنكبوت سبحانك أنت الحي الذي لا يموت.

اللهم أنت أحق من ذكر، وأحق من عبد، وأنصر من نصر، وأرأف من ملك وأزود من سئل، وأوسع من أعطى، أنت الملك الذي لا شريك لك، أنت الفرد الذي لا ند لك، كل شيء هالك إلا وجهك، القلوب لك مفضية، والسر عندك علانية، الحلال ما أحللت ، والحرام ما حرمت، والدين وما شرعت، والأمر ما قضيت، الخلق خلقك، والعبيد عبيدك وأنت الله الرؤوف الرحيم.
اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إلينا، واجعل خشيتك أخوف الأشياء علينا، اقطع حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك، يا كاشف الأسرار، يا واهب الأعمار، يا منشئ الأخبار يا مولج الليل في النهار ، يا معافي الأخيار، يا مداري الأشرار، يا منقذ الأبرار من النار والعار جد علينا جد علينا بصفحك عن زلاتنا، كن لنا وإن لم نكن لأنفسنا، لأنك أولى بنا متعنا بالنظر إلى وجهك، لا تهجرنا بعد وصلك، لا تبعدنا بعد قربك، لا تكردنا بعد روحك قد عادينا أعداءك فيك فلا تشمتهم بنا في تقصيرنا بحقك، والينا أصفياءك لك فلا توحشنا منهم بسهونا عن وجهك، ما رزقتنا مما نحن فاجعله عوناً لم فيما تحب، وما زويت عنا ما تحب فاجعله فراغاً لك فيما تحب، اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنسأل شر خلقك، ونبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من فوقهم ولي العطاء، وبيد وحدك خزائن الأرض والسماء.
اللهم إنا نعوذ بك من الخوف إلا منك، ومن الذل إلا لك، ومن الفقر إلا إليك نعوذ بك من عضال الدال، ومن شماتة الأعداء، ومن السلب بعهد العطاء.
اللهم إنا نبرأ من الثقة إلا لك، ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك، ومن التفويض إلا إليك، ومن التوكل إلا عليك، ومن الطلب إلا منك، ومن الرضا إلا عنك ومن الصبر إلا على بلائك. نسألك خفايا لطفك، وفواتح توفيقك، ومألوف برك، وعوائد إحسانك، وجميع سترك، وروح قربك، وجفوة عدوك.

اللهم احرسنا عند الغنى من البطر، وعند الفقر من الضجر، وعند الكفاية من الغفلة، وعند الحاجة من الحسرة، وعند الطلب من الخيبة، وعند المنازلة من الطغيان فإنه لا عز وجل إلا بالذل لك، ولا غناً إلا بالفقر إليك، ولا أمن إلا بالخوف منك، اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، ولا تهلكنا بالسنين، ولا تؤاخذنا بفعل المسيئين يا رب العالمين.

يا رب، قد عجز الطبيب فداونا، يا رب، قد عم الفساد فنجينا، يا رب قلّت حيلة فتولنا، ارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ولا تعاملنا بما فعل السفهاء منا، توفنا غير فاتنين ولا مفتونين، اغفر ذنوبنا، واستر عيوبنا، واقبل توبتنا وأصلح قلوبنا، وارحم ضعفنا، وتولّ أمرنا، استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، وآمنا في أوطاننا، وبلغنا مما يرضيك آمالنا، اختم بالصالحات أعمالنا، أعطنا ولا تحرمنا، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنا آثرنا ولا تؤثر علينا أرضنا وارض عنا، كن لنا، ولا تكن علينا، تقبل منا إنك أنت السميع العليم، تب علينا إنك أنت التواب

الرحيم، أصلح لنا ديننا الذي هو عصمت أمرنا، ولأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا، واجعل لنا الحياة زاد لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، أغننا بالعلن، وزينا بالحلم، وأكرمنا بالتقوى، وجملنا بالعافية، طهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة، أغننا بالافتقار إليك، ولا تفقرنا بالاستغناء عنك، استر عوراتنا وعورات جميع المسلمين، لا تجعل لنا ذنباً إلا غفرته، ولا هماً، ارزقنا فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، الزمنا سبيل الاستقامة لا نحيد عنها أبدا، واهدنا لصالح الأعمال لا يهدي لصالحها إلا أنت.

اللهم كما حسنت خَلقنا فحسن خُلقنا، نعوذ بك من منكرات الأخلاق، من منكرات الأعمال والأهواء، أنزل علينا من خيرات السماء، أنبت لنا من بركات الأرض، اسق عبادك العطشى يا رب العالمين، يا رب، من لم يعتز بطاعتك لم يزل ذليلا، ومن لم يستشفي بكتابك لم يزل عليلا، ومن لم يستغنِ بالافتقار إليك فهو الدهر فقيرا، ومن لم يتحقق بالعبودية لك كان في العبودية بمن دونك أسيرا، ومن لم يتترس بترس التوكل عليك أصابه كل رام، ومن لم يحتم بحماك لم يحمه منك حام، يا رب، كفانا فخراً أن تكون لنا ربا، وكفانا عزاً أن نكون لك عبيدا، نعوذ بك من أن نقول قولاً فيه رضاك نلتمس به أحداً سواك، نعوذ بك أي يكون أحد أسعد بما علمتنا منا، نعوذ بك من أن نتزين للناس بشيء يشيننا عندك، ونعوذ بك أن نكون عبرة لأحد من خلقك، ونعوذ بك من أن نكون عبرة لأحد من خلقك ، ونعوذ بك من أن نكون عبرة لأحد من خلقك.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٥٠-٦٤) : لوازم الإيمان - الإيثار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من لوازم الإيمان الإيثار، قال تعالى:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩))

(سورة الحشر الآية: ٩)

إن أردت صفة فاصلة بين المؤمن وغير المؤمن فهي الإيثار، غير المؤمن يأخذ، والمؤمن يعطي، إن كان العطاء أحب إليك فأنت مؤمن ورب الكعبة، وإن كان الأخذ أحب إليك فأنت بعيد عن أن تكون مؤمناً كاملاً، المؤمن يبني حياته على العطاء، وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم يؤثرون على أنفسهم، وفي أصعب حالات الإيثار،

(وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

يقابل الإيثار الشح، يقول:

((إِيّاكُم وَالشّحّ، فإِنّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بالشّحّ، أَمَرَهُمْ بالْبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بالْقَطِيعَةِ فَقطعُوا، وَأَمَرَهُمْ بالْفُجُور فَفَجَرُوا))

[رواه أبو داود والحاكم عن ابن عمر]

يقول ابن المبارك: " الإيثار سخاء النفس عما في أيدي الناس، أفضل من سخاء النفس بالذل " حينما تتعفف عما في أيدي الناس يحبك الله، ويحبك الناس، وحينما تطمع بما عند الله يحبك الله والناس

لا تسألن بني آدم حــاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب

فالله يغضب أن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

إن أردت أن يحبك جميع الناس فتعفف عما في أيديهم، هذا الفقير المتعفف المتجمل الذي يحسبه الجاهل غنياً من التعفف، هذا له عند الله شأن كبير، هذا قد يسبق الغني يوم القيامة، ولو كان صالحاً، فهو متعفف على فقر، لذلك:

((ومن دخل على غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[رواه الطبراني عن ابن مسعود]

((وما فتح عبد على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر))

[ورد في الأثر]

أيها الإخوة، مراتب الجود كثيرة، أعلى مراتبها الجود بالنفس،

يجود بالنفس إذ ظن البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

لكن لا بد من تعليق يبين حقوق العباد:

أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم استشهد، أراد أن يصلي عليه، فسأل صلى الله عليه وسلم: أعليه دين ؟ قالوا: نعم، قال:

((صلوا على صاحبكم))

لو أن الإنسان مات شهيداً، بذل أقصى ما يستطيع، بذل نفسه، لهذا كل آيات البذل في القرآن الكريم مقدم فيها بذل المال على النفس، لأن بذل المال أهون، أما بذل النفس أعلى درجة من درجات التضحية، ومع ذلك لو أن عليك ديناً فالقضية عند الله كبيرة لا يغفر هذا الذنب ولو مت شهيداً صدقوا أيها الإخوة، ألوف مؤلفة في أضيق مجتمع يقترضون، ولا يؤدون ما عليهم، في أي دائرة، في الأسواق، في المساجد، في أي مكان، وليس في نيته إطلاقاً أن يؤدي ما عليه، ويعتمد على المماطلة، إلى أن يمل صاحب الدين

الآن عندنا حالة غريبة، لا أحد يقرض أحدا، الذي يستقرض يتمسكن، ويتذلل إلى درجة غير معقولة، إذا ملك المبلغ فما من قوة تقنعه أن يؤدي ما عليه، حينما يتخلى الله عن المؤمنين، وعن المسلمين فالأسباب لا تعد ولا تحصى

أحياناً هناك جود بالرياسة، أنت بموقع قوي تقتضي مصلحة المسلمين أن تتنازل عن هذا الموقف لإنسان آخر، هو أنسب أن يكون مكانك، فتخليت عن هذا المنصب الرفيع طواعية، هذا الجود لا يقل عن الجود بالمال

أحياناً الجود بالراحة، هناك إنسان له وقت نوم، ممنوع في هذا الوقت أن يسأله أحد، أو أن يطرق بابه أحد، ولو كان مضطراً، هناك أشخاص يبذلون وقت راحتهم، وقت نومه، وقت استجمامه، فهذا الذي ليس مستعداً أن يغير شيئاً من نظام حياته، والذي يمكن أن تقتحم عليه استجمامه أو راحته شيء آخر، أقصى شيء أن تجود بالنفس، أو أن تجود بمنصب رفيع تتنازل عنه طواعية حقناً للدماء أحياناً، أو لصالح المؤمنين جميعاً، ثم أن تجودَ بوقت راحتك، ووقت استجمامك، ووقت خلودك إلى النوم

شيء آخر، أن تجود بالعلم، أصحاب المصالح عندهم خبرات متراكمة، أصحاب الاختصاصات، يحمل شهادة كبرى، وعليا من بلاد بعيدة، لا يسمح أن يتسرب هذا العلم لأحد، يبقى في يده، هو واحد، وحوله آلاف مؤلفة بحاجة إلى اختصاصه، لو علم عددا ممن حوله لصار هذا العلم هذا الألف مبذولاً، اتجهوا إلى خمسة أشخاص، اسأل ؟

أيحب أن يكون هذا العلم معه وحده ؟ وأن يستغل الناس ؟ وأن يأخذ الأرقام الفلكية على خبرته، هذا أيضاً لم يكن من الذين يؤثرون على أنفسهم،

(وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

أما الذي يجود بالعلم، أقصد بالعلم الخبرة، فعندك خبرة، عندك اختصاص معيّن، وأنت إذا عممت هذه المعلومات إلى من حولك انتفع المسلمون جميعاً، لا

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨))

(سورة الذاريات)

هذا شيء يتجه إلى أصحاب المصالح، أو أصحاب الاختصاصات، أو أصحاب الحرف، لا يعلّم أحدًا

لكن من الجود أن تعطي دون أن تسأل، هناك إنسان الذي يسأله يعطيه، ما الذي يحصل ؟ إنسان عنده كرامة، عنده عزة عالية جداً، فلا يسأل، هذا هو المحروم

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩))

(سورة الذاريات)

السائل يقتحم، عملياً السائل يقتحم عليك بقوة، وبإلحاح، وبمتابعة، إلى أن تخرج من جلدك، تعطيه، أما الذي يحفظ ماء وجهه فلا يسأل، بل يستحي، فعملياً الذين يأخذون في الأعم الأغلب ليسوا مستحقين، والذين لا يأخذون لا يسألون

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ)

(سورة البقرة الآية: ٢٧٣)

هذا يقتضي أن تسأل أنت عنه، أن تبحث أنت، أن تستحلف كل أخ كريم متعفف متجمل، في وجهه ماء حياء، أن تسأله عن حاجته، لأنه لا يسألك، والذي يسألك في الأعم الأغلب يكون ممتهناً للتسول أحد إخواننا الكرام نهض لمعاونة جهات عديدة لمكافحة التسول، فتم القبض على ١٥٠٠ متسول في دمشق وحدها، الآن قد لا تصدقون الأرقام التي سوف أضعها بين أيديكم تعجبون منها، أحد المتسولين يملك أربعين مليونًا، والبقية تملك مليونين أو ثلاثة، وثمانية مئة ألف، خمسة ملايين، أما مظهره فتتمنى أن تخلع معطفك، وتقدمه له، اختصاص

سألوا متسولا: أنت غني، فلمَ تتسول ؟ قال لهم: قضية مبدأ

والله نحن نعاني من المتسولين ما نعاني، امرأة ترتدي ثيابًا، تأخذ، تأتي بعد ساعة بالمكان نفسه بثياب أخرى، تغير صوتها، وتأخذ مرة ثانية وثلاثة ورابعة

فلذلك أتمنى في شهر الإنفاق أن يأخذ أموالكم المستحقون، المتعففون الذين لا يسألون، ينبغي أن تسألهم أنت، أن تبحث عنهم أنت

أحياناً تسأل عالماً عن مسألة، يقول لك: لا يجوز، لا يكفي، لمَ لا يجوز ؟ ما الدليل الذي يمنع ؟ ما الدليل الذي يسمح ؟ هذا إنسان بخيل بالعلم

أحيانا عند طبيب، هذا الدواء، ماذا معي، انتهى هذا الدواء، خذه فقط، يأتي طبيب آخر يعطيك تفاصيل، قضيتك سهلة، لكن تريد متابعة، هذا الدواء مضاد للالتهاب ، هذا الدواء منشط، هذا الدواء مميع للدم، يطمئنك، هناك شخص لا يتنازل أن يشرح لك شيئًا، أحيانا طبيب أو عالم يقول: حرام، لماذا حرام ؟ يجب أن تبين الدليل والتعليل، رأي الفقهاء، وعند السادة الشافعية كذا، والأحناف قالوا كذا، هذا نوع من الإيثار والبذل والتضحية

النبي الكريم سُئل عن ماء البحر أهو طاهر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنْ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ))

[أخرجه الترمذي]

أضاف للسائل شيئا، السائل سأل عن طهارة الماء فقط، فقال له:

((هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ))

هناك نوع من الجود في الشفاعة، أحيانا يكون الإنسان قويًّا على إنسان، وسوف ينهيه، هذا الإنسان القوي صديقك، تكلفك أن تذهب إليه، قد لا تحل بالهاتف، أن تذهب إليه، وهو يستحي منك، وحينما تضع جاهك مع هذا المظلوم قد تنقذه من المظلوم، يقول لك: أنا لا أترجى أحدًا، لا يقبل، أما حينما تذهب مع أخيك لإنسان قوي، وتعلم علم اليقين أنه يستجيب لك هذا من أعظم الأعمال، هذا أيضاً الجود بالجاه، كالشفاعة، لا أن تشفع في ظلامة، أن تشفع لإنسان ظالم، هذا لا يجوز واحد مرة له قريب وقع في فاحشة كبيرة، فرجاني أن أتصل بإنسان، قلت: لا، والله لا أفعل، هذه فاحشة كبيرة، إذا كان الشخص مظلومًا فيجب ألا تتردد لحظة، أما إذا كان في معصية كبيرة جداً، شذوذ، ثم تضع جاهك لتنقذ إنسانًا شاذًا، فهذا لعب بالدين

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ)

(سورة النور الآية: ٢)

هناك جود بالعرض، شيء عجيب، أحد أصحاب رسول الله اسمه أبو ضمضم، لا يملك شيئًا من حطام الدنيا، فقال مرة: اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي، العرض هنا ؛ السمعة، فمن شتمني، أو قذفني فهو في حل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

((من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم))

إذا تطاول عليك إنسان، وبإمكانك أن تنزل به أشد العقاب، بإمكانك، وأنت أقوى منه، لكنك عفوت عنه فهذا نوع من الجود، جدت بعفوك عليه

أهل مكة لسنوات عشرين تفننوا في إيذاء النبي، وفي محاربته، وفي التنكيل في أصحابه، وقد ملكهم، والله أيّ إنسان من أهل الحكم في الأرض لأمرَ بإعدامهم جميعاً، والتاريخ يشهد، إبادة جماعية، بعد الانتصار إبادة كاملة، والتتار والمغول الذين جاؤوا من الشرق في أحد أحياء دمشق يقول لك: برج الروس، قتل فيه خمسون ألف رجل، وضعت جماجمهم فوق بعضها حتى أصبحت برجاً، أي إنسان محقونٍ يجب أن يلغي وجوده، في عشرين سنة قتّلوا أصحابه، تفننوا في إيذائهم، تفننوا في محاربته فلما ملكهم قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[السيرة النبوية]

هذا جود، أحيانا تكون في موضع قوي جداً، وتستطيع أن تنهي خصمك، لكنك لا تفعل هذا لكن هناك نقطة دقيقة يجب أن تكون واضحة:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩))

(سورة الشورى)

المؤمن عزيز، إنسان تطاول عليك، وبغى عليك، وهو أرعن وأحمق، يبدو أنك إذا عفوت عن هذا الإنسان تمادى في غيه، وتمادى في جريمته، وصدق نفسه أنه مهاب، هو ليس كذلك، لذلك قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

لكن يقول أريد أن أكيل له الصاع عشرة، هذه كلمة إبليس

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

فقط، قال:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ)

(سورة الشورى الآية: ٤٠)

إذا غلب على ظنك أن عفوك عنه يصلحه فاعفُ عنه، والله يتولى أن يأجرك ،

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ)

العفو مرتبط بصلاحه

أحياناً يغلب على ظنك أن عفوك عن هذا الإنسان يصلحه، ينبغي أن تعفو عنه، وعندئذٍ يتولى الله مكافئتك

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

(سورة الشورى الآية: ٤٠)

هناك نقطة قد لا تخطر على بالكم، في الإنسان شيء اسمه مرح، ابتسامة إشراقة، كلام لطيف، هناك أشخاص ـ نعوذ بالله أن نكون منهم ـ يضنّ على من حوله بابتسامة، دائماً كأنه أكل أكلة حامضة، كلمة الله يعطيك العافية، مرتاح إن شاء الله، يكون الشخص مهمًّا جداً، عنده مستخدم، يضن عليه بابتسامة، وبسلام أحياناً

أحد إخواننا كان في بلد إسلامي، هذا البلد عنده عمالة أجنبية بأعداد وفيرة، والمدير صعب جداً، كان إذا قرع الجرس يحب أن يتوجه المدرسون إلى الصف من دون تردد، وكان قاسيًا، فهذا الأخ صبّ كأساً من الشاي فقرع الجرس، أمسك هذا الكأس، وأعطاه للمستخدم، هذا المستخدم لأول مرة من سنتين يقدم له مدرس كأس شاي، في اليوم التالي سأله: ما الذي حملك على أن تفعل ما فعلت ؟ ما خطر في بال المستخدم، القضية نظام، والمدير قاسٍ جداً، قال له: أنت أخ لنا، قال له: والله أنا هنا منذ عامين ولا أحد يسلم علي، هذا مستخدم، قال له: أنا أحمل ماجستير في العلوم، لكنه يعمل مستخدمًا، من شدة الفقر، قال لي: والله ما صدقت، دعوته إلى البيت، وجئته بموسوعة علمية باللغة الإنكليزية، قال له: ابنتي سألتني عن هذا الموضوع، هل تجيد فهمه، قال لي: أجاب بطلاقة عجيبة، قرأ وأجاب، النتيجة بدأ يكرمه، طبعاً هم كانوا وثنيين، ١٢ رجلا أسلموا على يده، بعد الحوار أحياناً الابتسامة تكسب الإنسان، سلام حار تكسبه، هذا أيضاً جود، ابتسامتك مودتك، أنت أب، عندك أولاد، أحياناً تجد الولد بهلولا، وقد أخذ محبة والده، وهناك ولد ما عنده حمق، لكنه جيد، ومستقيم، هذا محروم من الابتسامة، من كلمة: كيف حالك يا بني، فالذي عنده أولاد، الذي عنده أصهار، الذي عنده بنات، لا يمكن أن تكون ابتسامته لواحد دون الثاني، الابتسامة والمودة والمؤانسة هذه للجميع

الآن المشكلة أنه يأتي الإنسان، ويتزوج امرأة ثانية، وقد ضمن الشرع ذلك، لكن كل ابتسامته ومودته وانسجامه الكامل مع الجديدة، يدخل إلى عند الأولى غاضبا، لماذا ؟ الأكل كالذي عند الثانية، والسكن بالعدل، أريد المودة، الابتسامة، المؤانسة

فالإنسان أحياناً يبذل من مودته الشيء الكثير، هذا أيضاً بذل، جود، أنت قوي، ومستغنٍ عن الناس، لكن الناس بحاجة لابتسامتك، تطمئنهم أحياناً

أحيانا إذا كان الموظف خائفًا أن تنهي له عمله، وخوفه يجعله يرتبك، والإنسان عندما يخاف يفقد جزءًا من إمكانياته، اضطرب، لما تبتسم له أنت، تطمئنه، فيشعر أنه ضمن أسرة لا ضمن عمل فيه قسوة، فهذا أيضاً من البذل

سئل النبي عليه الصلاة والسلام ما هذا الأدب ؟ قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[أخرجه السيوطي عن ابن مسعود]

كانت الجارية تقود النبي عليه الصلاة والسلام من يده إلى حيث تشاء من لينه

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران الآية: ١٥٩)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٥١-٦٤) : ليس للإنسان إلا ما سعى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، لو أن طالباً في أول العام الدراسي، وجاءه من يخبره أن المدرس في آخر العام يعطي الأسئلة مقابل هدية، هل يستطيع هذا الطالب أن يدرس، وفي نهاية العام فوجئ أن الأستاذ نزيه جداً، ومستقيم جداً، ولن يعطي لا تلميحاً ولا تصريحاً، وأن هذا الذي نقل له الخبر كاذب مغرض، ضيع العام الدراسي.

الآن في آية من سورة النجم يقول الله عز وجل:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩))

لو فهمنا أبعاد هذه الآية يمكن أن ننفي مئات القصص، ومئات الأوهام والخزعبلات، والترهات، النبي عليه الصلاة والسلام يقول لابنته فاطمة ولعمه العباس:

((يا فاطمة بنت محمد، يا عباس عم رسول الله، أنقذا نفسيكما من النار إنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتوني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[متفق عليه عن أبيس هريرة]

تقريباً معظم المسلمين معتمدون على مفهوم ساذج للشفاعة، ويقولون: أمة محمد ﷺ مرحومة، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الكلام الواضح القطعي الدلالة يبين أن كل إنسان يحاسب بعمله. لو أن واحداً عاش مع النبي صلى الله عليه وسلم، واستطاع بطلاقة لسان، ووضوح بيان، وذكاء، أن ينتزع من فمه الشريف فتوى لصالحه، ولم يكن محقاً بها هل ينجو من عذاب الله ؟ لا ينجو، معه فتوى من سيد الخلق، قال عليه الصلاة والسلام:

((لعلَّ بعضكُم أن يكونَ ألحنَ بحجَّتهِ من بعض، فإنْ قضيتُ لأحدٍ منكُم بشيءٍ من حقِّ أخيهِ، فإنَّما أقطعُ لهُ من النَّار))

[أخرجه الترمذي عن أبي هُرَيرَةَ]

دائماً وأبداً الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح.

والله أيها الإخوة، يلقى في بعض الدروس كلام لا أصل له إطلاقاً، هي قصص، مدلولاتها خطيرة جداً، لكن لا أصل لها، أنه حينما يوضع الإنسان في قبره، ويأتي الملكان ليسألانه تأتيهم ضربة من شيخ هذا الميت، يقال لهما: أمثل هذا يُسأل ؟ هذا كلام ما له أصل، قال:

((اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُم وَاسْأَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ))

[أخرجه أبو داوود عن عثمان بن عفان]

هذا كلام النبي عليه الصلاة والسلام.

أيها الإخوة، من خلال هذه الآية:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠))

(سورة النجم)

هناك أغنياء يموتون، يوهمهم بعضهم أن هناك صدقة تسقط عنه الصلاة، وصدقة أخرى تسقط عنه الصيام، القضية سهلة.

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[الحاكم في المستدرك عن أنس، السجزي عن أبي هريرة]

((ابن عمر، دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذي مالوا))

[ورد في الأثر]

النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة يقول:

((أمتي أمتي: " فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك أو ما بدلوا بعدك فأقول سحقا سحقا))

[أخرجه مسلم في كتاب الفضائل عن أم سلمة]

مرة ذكرت أنه بعد فتح مكة، وحول النبي ﷺ علية القوم، قال له بعض الصحابة: هناك أخت لك تريد أن تلقاك، هي امرأة عجوز رضعت من حليمة السعدية وقت كان النبي ﷺ يرضع منها، إذاً هي أخته من الرضاعة، تروي الروايات أنه قام من مجلسه، وانطلق ليلقاها حيث هي، ويرحب بها أشد الترحيب، ويأتي بها إلى مكانه، ويجلسها مكانه، ويظللها بردائه، ويسألها عن حالها، ويخيرها بين أن تقيم عنده، وبين أن تلحق بأهلها ويكرمها، فلما اختارت أن تلحق بأهلها أعطاها مئة ناقة، ما هذا الوفاء، فقلت: يا رسول الله، لا تدري ماذا أحدثوا بعدك ؟ أناس قطعوا أرحامهم، قطعوا علائقهم مع من يلوذ بهم، أناس أساؤوا إلى بناتهم، إلى أمهاتهم، هل تصدق أن دعاوى كثيرة بين الأقرباء، حينما قطعوا أرحامهم بعد ما جاؤوا إلى الدنيا، أو بعد عصور عديدة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((سحقا سحقا))

يا أيها الإخوة الكرام، يمكن أن تنفي قصصاً لا تعد ولا تحصى من هذه الآية:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)

أما أن تفعل شيئاً مكان شيء، أما أن ينال الإنسان أجراً من دون أن يفعله، لذلك العلماء حينما جاء موضوع حجة البدل، لا تقبل حجة البدل إلا ممن وصى، هذا الذي لم يوص لو جاء إنسان، وحج عنه هذه الحجة لن يسعى الميت إليها، أما إذا وصى معنى ذلك أنها مقبولة، ولكن استثنى العلماء أن

الابن الصّلبي إذا حج عن أبيه ولو لم يوص، هذه مقبولة عند الله، ولولا أن هذا الأب ربى ابنه تربية صحيحة حتى كان ديناً، وحتى كان باراً ما كان له أن يكون كذلك.

أيها الإخوة الكرام،

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤))

(سورة الصافات)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

(سورة الحجر)

أعرابي جاء النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله، عظني، ولا تطل فقرأ عليه قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨))

(سورة الزلزلة)

قال: كفيت، فقال: فقه الرجل.

الآن أنا مضطر أن أضع بين أيديكم حقيقة، هي أخطر حقيقة في العبادات، الإنسان يصلي، والصلاة لا تكلفه شيئاً، ويصوم، ويحج، ويعتمر، ويؤدي زكاة ماله، لكن حينما سأل النبي أصحابه الكرام:

((هل تدرون من المفلس؟ قلنا: المفلس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار))

[رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه]

أين الصلاة إذاً ؟ هذه عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، إن لم ترافقها استقامة لا تصح، ولا تقبل، أوجه هذا الكلام للأخوات الكريمات.

((إن فلانة، فذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: "هي في النار))

[رواه أحمد والبزار عن أبي هريرة]

((عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعا فدخلت فيها النار، قال الله: لا أنت أطعمتها، ولا سقيتها حين حبستها، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

((لأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مَنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بيضاً، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ ! صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ

لاَنَعْلَمُ، قالَ: أمَا إنَّهُمْ إخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أقوَامٌ، إذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ، أنْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان]

هذه الصلاة، الصيام:

((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))

[رواه أحمد في مسنده وصحيح البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة

هذا الصيام، الحج:

((من حج بمال حرام، ووضع رجله في الركاب، وقال لبيك اللهم لبيك، ينادى ألا لبيك، ولا سعديك، وحجك مردود عليك))

[ورد في الأثر]

بقي الإنفاق:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٣))

(سور التوبة)

المشكلة الأولى أن الصحابة الكرام فهموا الإسلام ٥٠٠ ألف بند، ونحن فهمنا الإسلام خمسة بنود، صلاة، وصيامًا، وحجًّا، وزكاة، ونطق بالشهادة.

أيها الإخوة، كلام سيدنا جعفر كلام بليغ جداً، قال:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، حتى بعث الله فينا رجلاً، نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان ـ الآن دققوا ـ وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أحمد عن أم سلمة]

الإسلام انضباط، الإسلام قيم أخلاقية، الإسلام صدق، الإسلام أمانة، الإسلام استقامة، الإسلام إخلاص، الإسلام رحمة، الإسلام عفو، هذا الإسلام، فلما فهمنا الإسلام صلاة، وصيام فقط وجوفاء، وفعلنا كل الموبقات، ونحن مسلمون، ألا ترى إلى رمضان كل المعاصي مجموعة في رمضان، ومن أجل ذلك إكراماً لشهر رمضان المبارك، كل هذا إكرام لشهر رمضان، فلذلك:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (٥٩))

(سورة مريم)

ولقد ليقنا هذا الغي، والله أيها الإخوة ما من كلمة تدمي القلب كأن تقول: هان أمر الله علينا فهنا على الله، والله الذي لا إله إلا هو لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه والله ما خرج من مكة،

بقي في مكة، أما أن يصل إلى الصين، وإلى مشارف باريس، لأن الإسلام كان سلوكاً وانضباط.
لما أرسل سيدنا رسول الله عبد الله بن رواحة ليقيّم تمر خيبر لاتفاق بينه وبينه اليهود، وأغروه بحلي نسائهم، قال: جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم عندي أبغض من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالت اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا.

إخواننا الكرام، كلمة قاسية، لكن لا بد منها، حينما قال الله عز وجل:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ)

(سورة المائدة الآية: ٦٨)

(شيء) أقل كلمة في اللغة تعبر عن أقل شيء، إذا ثار الغبار وسط أشعة الشمس ترى ذرات لا وزن لها إطلاقاً، تراها في أشعة الشمس، هذه شيء، يقاس على هذه الآية، ويا أيها المسلمون لستم على شيء حتى تقيموا القرآن الكريم، فلذلك هذه الآية:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

هناك خرافات، وإضافات، وترهات، وضلالات، وقصص، ما أنزل الله بها من سلطان، ونتائج باهرة لأسباب صغيرة جداً لا تتناسب هذه مع تلك، فنحن نريد أن نكون واقعيين، وشعارنا الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح.

هذه الحقيقة، العبادات التي نحن فيها لا تقبل، ولا تصح إلا إذا رافقتها عبادات شعائرية.

مثلاً تجد شخصًا يميل إلى أن يأخذ المال دون أن يقدم جهداً، هل سمع قول النبي لما رأى شاباً يتعبد الله في وقت العمل، سأله: من يطعمك ؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك، حينما قال النبي الكريم:

((واليد العليا خير من اليد السفلى))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم عن حكيم بن حزام]

حينما قال النبي الكريم:

((ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة يسأل الناس إلا فتح الله عليه باب فقر))

[أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن عبد الرحمن بن عوف]

صدقوا أيها الإخوة، نحن مفهومنا للدين صلاة وصوم واستقامة، وإنابة، هذا صحيح، لكن يجب أن نفهم الدين عملا، وإنتاجًا، وتطويرًا، وتقوية الأمة، لأن الطرف الآخر قوي جداً، وغني جداً، وذكي جداً، واستطاع أن يفرض علينا إباحيته، وثقافته، وأنا أدعوكم لا إلى التفاؤل الشديد، قد نمنع من هذا الدرس في المستقبل، قد نمنع من أن نحوز القرآنَ، هكذا يخططون، نية الكافر شر من عمله، فما لم

نتقوّ، نحن ضعاف الآن، نحن في محنة كبيرة، كل واحد منا يفكر بعمل صالح، يفكر بعمل يقوي أمته، يفكر يطور عمله، يفكر يخفف عن المسلمين الأعباء، يفكر أن يقدم للمسلمين كل الخدمات.

والله أيها الإخوة، حديث شريف أنا أراه هو سر نجاتنا، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إنما تنصرون بضعفائكم))

[رواه أبو نعيم عن أبي عبيدة]

ما معنى هذا الحديث ؟ أنت قوي أمامك واحد ضعيف، إذا أكرمت هذا الضعيف أعطيته حقه، أعطيته حاجته، إن كان مريضًا عالجته، وإن كان بلا عمل وفرت له فرصت عمل، وإن كان مظلومًا نصرته، وإن كان عاريًا كسوته، وإن كان بلا مأوى هيأت له المأوى، وإن كان مهانًا كرمته، أنت الآن نصرت ضعيف، وبإمكانك أن تسحقه، ربنا عز وجل سيكافئك مكافأة من جنس عملك، سينصرك على من هو أقوى منك، ليس هناك طريق كي ننتصر على هؤلاء الأعداء المتغطرسين الأقوياء إلا أن ننصر ضعفاءنا، هذا ملمح أنا أسميه ملمحًا توحيديًّا.

هناك ملمح آخر واقعي، الضعيف حينما ننصره يتماسك المجتمع، وعندئذٍ يستحيل أن يخرق من الخارج، صار المجتمع قلعة، هذه الأفكار أيها الإخوة يجب أن نعيها وعياً تاماً، نحن أمام أخطار كبيرة جداً، لأن الأعداء البعيدين يخططون لتغيير هويتنا، لتغيير ثقافتنا لتغيير ديننا، والعمل يجري على قدم وساق.

فنرجو الله سبحانه وتعالى أن نقوي أنفسنا، وأن نفهم الدين عمل.

أمسك النبي يد بعض أصحابه عبد الله بن مسعود، وكانت خشنة، رفعها، وقال: هذه اليد يحبها الله ورسوله.

سيدنا عمر يمشي في بلدة فرأى كل الفعاليات بيد غير المسلمة، فعاتبهم، فاحتجوا كما يحتج أغنياء المسلمين، الله سخرهم لنا، فقال هذا العملاق الخليفة الراشد: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم ؟ المنتج قوي، والمستهلك ضعيف، أنت عندك مركبة، تعطلت فيها قطعة، لو طالبوك بمئة ضعف ثمنها فأنت تزعم.

نحن عندنا عقود شراء اسمها في الفقه عقود إذعان، بمئة ضعف، هناك دراسة أن المركبة تباع القطعة بثلاثمئة ضعف من ثمنها، اشترِ مركبة أنتَ، علقتْ، أي شيء تحتاجه ثمنه غير معقول، ثمنها ثلاثمئة ضعف، قال: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم ؟ الله عز وجل يحب العمل.

سيدنا عمر يقول: أرى الرجل لا عمل له يسقط من عيني.

والله أيها الإخوة، لما أزور إخواننا المتفوقين بأعمالهم، والله أشعر بانتعاش، أشعر بحماس لا يوصف، دائماً المسلم الضارب على الآلة الكاتبة، أو الآذن، هذا المسلم ؟ لمَ لا يكون صناعيًّا كبيرًا؟ لمَ لا يكون تاجرًا كبيرًا، مزارعًا كبيرًا، أستاذًا جامعيًّا كبيرًا، طبيبًا من أعلى درجة ، لماذا ؟ النبي طلب النخبة، قال: الله أعزَّ الإسلام بأحد العُمرين، طلب نخبة يحملون معه، اسمعوا مني هذه الكلمة، والله الآن لن يحترم دينك إلا إذا تفوقت في عملك، تتفوق، يربطون التفوق بالإسلام.
نحن اليوم من فضل الله أكرمنا طلابًا كثيرين متفوقين في الشهادة الثانوية، ٢٣٧ من ٢٤٠، عدد طلاب كبير جداً من المتفوقين، أنا والله أعتز بهم، وهذا هو الدين، الناس الجهلة يفهمون أن التدين يعني التخلف، وهناك عبارة لا سمح الله ولا قدر أن نكون كذلك تقال عنا في الغرب: أن هذا المسلمين أي بي إم، أي إن شاء الله، بي بكرة، إم معلش، دائماً يسوف، ولا يدقق بعمله، لا بمواعيده، لا بإنجازه، لا بإتقان عمله، دائماً يماطل ويقول لك: إن شاء الله، ليس هذا هو المسلم، المسلم صادق الوعد.

فأرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الآية:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

هذا الدين يجب أن يكون قوياً.

أقول لكم هذه الكلمة: هناك قوة الحق، وهناك حق القوة، الآن بالعالم كله القوي على حق ولو ظلم، لو قتل، لو أباد، لو أباد مئات الألوف، لو هدم مئات المساكن، لو جرف المزارع، لو هدم الآباء، لأنه قوي على حق، متى يكون للحق قوة ؟ الآن قوة الباطل، مادام قويًّا يدعي أنه على حق .

فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يرينا أمتنا وهي قوية، وهذا يقوم على سواعدكم، وكل واحد مسؤول عن هذه الأمة، الآن أنت الطالب تفوقت خدمت أمتك، تفوقت وقدمت للأمة مخترعًا، أو إنجازًا أو حلاً لمشكلة، الصانع أتقِن عملك، ونافِس البضاعة الأجنبية.

واللهِ بعض المسلمين تباع بضاعتهم في أوربة وفي أمريكة، هذا شيء يرفع الرأس، طور عملك، والله معك، فقط تحرك، إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، كل واحد يعاهد نفسه، يقدم شيئًا للأمة، هذا الشيء يعود عليك، لكن يطور نفسه فيتفوق في دراسته، يتقن صناعته، يتقن تجارته، يضع نفسه في القمة حتى تقوى الأمة في مجموعها به.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة،

((حينما صعد النبي صلى الله عليه وسلم درجات المنبر ففي الدرجة الأولى قال: آمين، وفي الدرجة الثانية قال: آمين، وفي الثالثة قال: آمين، فلما انتهى من صلاته سأله أصحابه الكرام: علام أمّنت يا رسول الله ؟ فقال: جاءني جبريل فقال لي: رغم أنف عبد أدرك رمضان فلم يغفر له، إن لم يغفر له فمتى ؟))

[أخرجه البخاري ومسلم والأربعة وأحمد في مسنده عن أبي هريرة]

((من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه))

[أخرجه البخاري ومسلم والأربعة عن أبي هريرة]

((من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه))

[أخرجه البخاري والثلاثة عن أبي هريرة]

نحن جميعاً أيها الإخوة أمام فرصة ذهبية، أن نقيم صلحاً مع الله، وتوبة نصوحًا، فلعل الله سبحانه وتعالى يعفو عما سبق، ويحفظنا فيما سيأتي.

النقطة الدقيقة جداً أن الله سبحانه وتعالى:

(يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢))

(سورة البقرة الآية: ٢٢٢)

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧))

(سورة النساء)

وكأن الله سبحانه وتعالى ينتظرنا، إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى مناد في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

والله أيها الإخوة، لا يمكن أن تقول كلمة: هنيئاً لك بكل معانيها، وبكل الإخلاص إلا إذا قيلت لمن اهتدى إلى الله، لأن تمام النعمة الهدى، وصدق، ولا أبالغ أن الهدى واحد، والصحة صفر أمامه، وأن الغنى صفر آخر، وأن الزوجة الصالحة صفر ثالث، وأن الأولاد الأبرار صفر رابع، وأن الذكاء والوسامة أصفار أمام هذا الواحد، فإذا لم يكن هذا الإنسان مهتدياً ألغي الواحد، فكل الذي بين يديه أصفار.

لذلك أيها الإخوة، يمكن أن تكون مشكلة المسلمين الأولى ضعف معرفتهم بالله، وأصل الدين معرفته، وسورة القدر من دون دخول بالتفاصيل هكذا إذا قرأتها بشكل عفوي يقول الله عز وجل:

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ)

(سورة القدر)

ألف شهر تعبده، ٣٣ عاماً، صلوات خمسًا، وصيامًا، وحجًّا، وزكاة، وطاعة إلخ... عبادة جوفاء خير منها أن يحصل لك تقدير لله عز وجل في ليلة من ليالي رمضان،

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

ذلك لأنك حينما تعرف الله تعرف ماذا عنده من عطاء، وماذا عنده من عقاب، والمشكلة الأولى أن المسلمين اليوم مع توسع العلوم الشرعية على علم دقيق بالأمر والنهي، ولكن حينما يعصون الله عز وجل على جهل كبير بمعرفة الله عز وجل، لذلك بين من يقدر الله عز وجل، ومن بين من يعبده عبادة جوفاء، كما بين العالم والعابد، والفرق بينهما كبير جداً.

((لعالم واحد أشد على إبليس من ألف عابد لأن العابد لنفسه والعالم لغيره))

[رواه ابن النجار عن ابن مسعود]

العابد الآن أيها الإخوة لا ينجو، لا ينجو أبداً، لِما في الأرض من شبهات، ومن ضلالات، ومن طروحات مناقضة، ومن تفاوض عن هذا الدين، ومن تطاول على القرآن الكريم، ومن فتن مستعرة، وشهوات سائرة، والدنيا خضرة نضرة، وكل شيء الآن في الدنيا يدعو إلى المعصية، كل شيء في الدنيا يدعو إلى الزهد في الآخرة، أينما تحركت وإلى أي شيء نظرت، وإلى أي جهة تسمعها، تدعوك إلى المعصية.

فلذلك أيها الإخوة، ليلة القدر يجب أن تكون عالماً بالله، تعني أن تعرف أن الله سبحانه وتعالى الذي خلقك لجنة لأبد الآبدين، وأن أكبر خسارة تتحقق أن تخسر الآخرة، وأن هذه الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، وأن الآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك عادل

أيها الإخوة الكرام،

((اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك))

[رواه البزار عن أبي بكر]

أنت حينما تطلب العلم تحقق إنسانيتك.

مرةً أنا ذكرت: أن طفلاً قال لك: أنا معي مبلغ عظيم، كم تقدر هذا المبلغ ؟ مئة ليرة، فإن قال مسؤول كبير في دولة عظمى: أعددنا لهذا الحرب مبلغاً عظيماً، قد يقدر هذا المبلغ بمئة مليار دولار، فإذا قال ملك الملوك، ومالك الملوك.

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

يبدو أنه أعظم فضل يتفضل الله عليك أن يسمح لك أن تعرفه، إن عرفته وجدت كل شيء، وإن فاتك معرفته فاتك كل شيء، والله أحب إليك من كل شيء.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

الآن السؤال التفصيلي: كيف أعرفه ؟ الله عز وجل يقول:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة الأنعام الآية: ١٠٣)

حواسك الخمس غير مؤهلة أن تعرف الله بها، لكن الله سبحانه وتعالى أودع فيك عقلاً إذا أعملته في خلق الله تعرفت إلى الله، وهذا يعد أعلى عبادة على الإطلاق، عبادة التفكر أن تتفكر في السماوات والأرض كي يشف لك الكون عن عظة الله، عن عدله، عن حكمته، عن قدرته، عن رحمته، عن حلمه، فلابد أن تعرف الله على التفاصيل.

لذلك أن تطالع الأسماء الحسنى، وأن تطالع الصفات الفضلى، وأن تبذل جهداً في معرفة الله عز وجل هذا يدعوك إلى طاعته، لأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر الآية: ٢٨)

إخواننا الكرام، الآن العباد مقاومتهم هشة، لا يصمدون أبداً أمام الإغراء، ولا أمام الضغوط، وما أكثر العقبات في طريق الإيمان، وما أكثر الصوارف، وما أكثر الضغوط، وما أكثر المغريات، بل إن الشيطان يقول:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦))

(سورة الأعراف)

في اللحظة التي تفكر فيها أن تسلك إلى الله يأتي الشيطان يخوفك، يدعوك إلى البخل، يخوفك من طاعة الله، يوهمك أن طاعته الخسران في الدنيا، وأن الدنيا تحتاج إلى أن تبتعد عن الدين،

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية: ١٧)

من بين أيديهم التقدم، ونحن في عصر العلم، وعصر الثورة، ثورة المعلومات، وأن المرأة نصف المجتمع، ينبغي أن تكون سافرة، وأن تكون مفاتنها ظاهرة، لأنه من حقها أن تعرض مفاتنها على الناس، تسمع كلاماً مزخرفاً لا ينتهي، نحن في الكمبيوتر، وفي عصر الفضاء، عصر التواصل، عصر انهيار الحواجز بين الثقافات، يريدون ديناً يلغي الآخرة، ويكرس الدنيا من أجل المتع والشهوات، ليس غير، مع أن الله سبحانه وتعالى خلقنا للآخرة.

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)

(سورة القصص الآية: ٧٧)

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

الحقيقة أن في الحياة الدنيا أشياء تلمع، التواصل، الإعلام، الأموال الطائلة، السياحة، المرأة السافرة الفاتنة، هذه كلها أشياء تفتن ضعاف الإيمان،

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

التراث، التاريخ الجاهلي، التاريخ الفرعوني، يعودون إلى ما قبل الإسلام، لسبب بسيط أن ما قبل الإسلام لا يحملهم مسؤولية، لماذا الديانات الوضعية عليها إقبال شديد ؟ ٩٠٠ مليون في شرق آسيا يدينون بالبوذية فرضاً، دين بلا منهج، بلا تكليف، لست مكلفاً بشيء إلا أن تعلن ولاءك فقط. لذلك الناس يميلون إلى التعلق بمرحلة ما قبل الإسلام، لأن هذه المرحلة لا تكلفهم شيئاً، ويعلنون ولاءهم إلى ما قبل الإسلام، ففي كل حضارة هناك عودة نكسة إلى ما قبل الإسلام، لذلك هناك جاهلية الآن، أين منها الجاهلية الأولى ؟

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب الآية: ٣٣)

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

الآن:

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

الدين ينبغي أن يختصر إلى شعائر فقط، إلى زخرفة إسلامية، إلى بطاقة إسلامية، إلى فن إسلامي، إلى خط إسلامي، إلى تراث إسلامي، إلى خلفية إسلامية، إلى نزعة إسلامية، إلى أرضية إسلامية، إلى اهتمامات إسلامية، أما الإسلام كمنهج اقتصادي، كمنهج عبادي، كمنهج اجتماعي، كأمر تفصيلي، كأمر يدخل إلى أدق الخصوصيات الإسلام كشرع، هذا مرفوض، لا بد من أن تكون حياتنا في تعليمنا، وإعلامنا، وجامعاتنا، وكتبنا، وعلاقاتنا، وأفراحنا وأتراحنا، أما على النمط الغربي فهذه،

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

و:

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

المعاصي والآثام.

فالمعركة أيها الإخوة معركة خطيرة جداً.

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)

(سورة الإسراء الآية: ٧٣)

جهدهم من أقدم الأزمان إلى نهاية الدوران أن تفتري علينا غيره، شيء يحل محل الشرع، نظام اقتصادي أساسه الربا، نظام اجتماعي أساسه الاختلاط، فن أساسه الإباحية، هكذا، لذلك:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣))

(سورة الإسراء)

هذا التطبيع:

(لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا)

إن تخليت عن كون الزنا جريمة يسمح لك أن تدخل في السوق المشتركة، أما إذا أصررت أن الزنا جريمة فليس لك مكان في هذا السوق، إن عددت الزواج أنه يجب أن يكون بين ذكر وأنثى فأنت متخلف، الزواج عقد بين شخصين ذكريين أو أنثيين، أو ذكر وأنثى، هذا مؤتمر السكان، أربع مؤتمرات عقدت ليكون الشذوذ هو الأصل، لا بد من أن تسمح للشباب أن يمارسوا الجنس قبل الزواج في بيت الأسرة، هذا الذي قرأته عن مؤتمر السكان والله لا يصدق أيها الأخوة، لا يستطيع الزوج أن يمنع زوجته من السفر، ولا أن تمتهن أي حرفة ولو الرقص، هذه حرية،

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)

فتاة في مدرسة بنيويورك قبل أشهر ارتدت ثياب الشابات الشاذات جنسياً، هناك شذوذ بين الذكور، وهناك شذوذ بين الإناث، يبدو أن مدير المدرسة على بقية من خلق ففصلها، فأقام الأب دعوى على مدير المدرسة، وربح الدعوى، والحاكم حكم بثلاثين ألف دولار تعويضًا على أنه أهان فتاة سحاقية، فثياب الشاذات مسموح به في العالم، أما حجاب المسلمات فممنوع، لا يسمح لفتاة محجبة أن تدخل المدرسة في فرنسا،

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا)
(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤))

(سورة الإسراء)

أحيانا الداعية يقول: سأجاملهم قليلاً، سأتنازل قليلاً لعلهم يسلمون،

(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)

(ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥))

(سورة الإسراء)

أيها الإخوة الكرام، ليلة القدر أن تعرف الله، وتعرف أن الله حينما شرع تشريعات هذه التشريعات محض حق، ولو تقوّل المتقولون، قال أحد العلماء: الشريعة عدل كلها، رحمة كلها مصلحة كلها، حكمة كلها، فأية قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة، ومن العدل إلى الجور، ومن الحكمة إلى خلافها، ليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل.

إخواننا الكرام، لو أن الإنسان لم يتح له في رمضان أن يكون كما يتمنى، فليفتح مع الله صفحة جديدة بعد رمضان، وليفكر في خلق السماوات والأرض، وليغض بصره، وليحكم استقامته، وليقدم لله عملاً طيباً، فالله عز وجل معنا في كل الأشهر، وهذا الكلام يقال الآن، في أول رمضان نقول: إن لم يغفر له فمتى ؟ أما الآن فنقول كلامًا آخر، إذا فاتك ما تتمنى في رمضان فاجعل ما بعد رمضان كرمضان، في صلاة الفجر، وفي ذكرك، وفي تلاوة قرآنك، وفي غض بصرك، وفي إنفاق مالك، إلخ...

فيا أيها الإخوة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون عتقاء النار في هذا الشهر وفي هذه الليلة.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من ألزم لوازم الإيمان التوبة إلى الله، ذلك لأن المؤمن مذنب تواب، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى أودع في كيانه شيئاً من الأرض، وشيئاً من السماء ، فركب من شهوة وعقل، فحينما تسمو شهوته على عقله يحتاج إلى التوبة، وحينما يسمو عقله على شهوته يحتاج إلى الشكر، ولو تصورنا ديناً من دون توبة لوجدت تسعة وتسعين بالمئة من الناس إلى النار، لأنه إذا ارتكب الإنسان ذنباً بحسب ما أودع الله فيه من شهوات، وباب التوبة مغلق، فحينما ييئس من التوبة يرتكب أكبر الآثام، لذلك أرجى آية في القرآن الكريم:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

(سورة الزمر)

وليس أبلغ من كلام النبي صلى الله عليه وسلم حينما ذكر لنا قصة أعرابي ارتحل ناقته، وعليها طعامه وشرابه ليقطع بها مفازة خطيرة، في منتصف المفازة الصحراء جلس ليستريح أخذته سنة من النوم، استيقظ فلم يجد الناقة، أيقن مئة بالمئة أنه هالك لا محالة، فبكى، ثم بكى، حتى أدركته سنة من النوم أخرى، فاستيقظ، فرأى الناقة فاختل توازنه، من شدة الفرح قال: يا رب، أنا ربك، وأنت عبدي، هل هناك من صورة أبلغ ردت إليه روحه.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَالْتَمَسَهَا حَتَّى إِذَا أَعْيَى تَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةَ الرَّاحِلَةِ حَيْثُ فَقَدَهَا، فَكَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا هُوَ بِرَاحِلَتِهِ))

(سنن ابن ماجة)

مهما بلغت ذنوبك لو بلغت عنان السماء، ثم جئته تائباً غفرها لك ولا يبالي، باب التوبة مفتوح على مصارعه، لكن لئلا نقع في أوهام قاتلة الله عز وجل في أكثر من خمس آيات، ولعلها ثمانية آيات يقول:

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(١١٠))

(سورة النحل)

غفور إذا أقلعت عن الذنب فوراً، وإذا ندمت، وأصلحت، وإذا عزمت على ألاّ تقع في الذنب:

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠))

ولو تتبعتم آيات التوبة:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠))

(سورة الحجر)

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ(٥٤))

التوبة مقبولة بشرط أن الإقلاع الفوري عن الذنب.

ثانياً: العزم على ألا أعود إليه.

ثالثاً: الإصلاح فيما مضى، في حقوق تجاوزات ديون هذه كلها ينبغي أن تؤدى، لذلك العلماء وجدوا أن للتوبة أركان ثلاثة: الركن الأول العلم، والثاني الحال، والثالث: العمل، في ركن علمي، وركن نفسي، وركن سلوكي، العلم ما لم تطلب العلم لا تكتشف أخطاءك، تجد الإنسان غارقًا في المعاصي الكبرى الصارخة، كالقتل، والسرقة، والزنى معروفة، لكن في التعامل اليومي قد يقع في الربا، وهو لا يشعر.

أوضح مثل: يأتيك من يقول: هل تشاركني في شراء هذا البيت ولك أجرة ؟ جيد !! البيت ثمنه عشرة ملايين، ومطلوب منك خمسة ملايين، ولهذا البيت أجرة، فأنت كلمة أجرة وشريك كلها كلمات شرعية، أنت حينما تريد مبلغك بالتمام والكمال بعد حين فهذا الذي أخذته أجراً يعد ربا، أما إذا كان الموضوع مفتوحًا بعد سنتين الأسعار هبطت، أو ارتفعت، إذا كان يمكن أن يقيم البيت تقييمًا جديدًا بعد سنتين هذه أجرة، الغرم بالغنم، أما إذا كنت ضامناً لمالك مئة في المئة، ولا علاقة لك بهبوط الأسعار أو بارتفاعها، ولا بالكوارث لو استملك البيت فأنت تردي خمسة ملايين، هذا هو الربا بعينه، فلذلك من دخل السوق من دون فقه أكل الربا، شاء أم أبى، فمتى تكتشف أخطاءك ؟ حينما تطلب العلم، وأوضح مثل: لو كلفنا إنسانًا ضعيفًا في اللغة العربية أن يفحص طالبًا في هذه المادة، وقال: اقرأ هذه الصفحة - الذي قرأ الصفحة ارتكب ثمانية وعشرين خطأ، لأن الفاحص ضعيف في اللغة يقول له: جيد، علامة تامة، أما الخبير باللغة فيكشف الأخطاء، ما لم تكن خبيراً في الأمر والنهي فلا تعرف ما إذا كنت عاصياً أو مطيعاً، البيوع فيها منزلقات، الشراء فيه منزلقات، واستثمار المال العلاقات الاجتماعية.

فلذلك أيها الإخوة، قضية التوبة تحتاج إلى علم.

أوضحُ مثلٍ، هناك أمراض لا أعراض لها أبداً مثل كالضغط، وفي حالات نادرة فيها أعراض في الرأس، أما الضغط قد يرتفع لاثنين وعشرين، وثلاثة وعشرين، وثمانية وعشرين، وأنت لا تشعر، أقول لك: متى تعالج نفسك من ارتفاع الضغط ؟ حينما تعلم أنه معك ضغط مرتفع، ومتى تتوب من ذنب ؟ حينما تعلم أنه ذنب، فإن لم تعلم أنه ذنب لن تتوب منه.

لذلك لا يمكن لإنسان أن يحقق التوبة، والله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء)

إلا إذا عرفت ما لك وما عليك، أزواج كثيرون يرتكبون بحق زوجاتهم أخطاء كبيرة جداً قد يقول لك أنا لا أعلم لك حق وعليم واجب !

ارتكبت مرة في أميركا جريمة، في أثناء التحقيق والمحاكمة قالت امرأة: هو أناني، ينصرف قبل أن أقضي حاجتي، فحقدت عليه إلى أن قتلته، فهناك قضايا حتى في العلاقات الزوجية، حتى في تربية الأولاد، حتى في كسب الأموال، وإنفاقها، والعلاقات العامة، وفي علاقتك مع الله عز وجل الإنسان من دون علم كائن يخبط خبط عشواء، أكثر الناس قد يترك صلاته، يقول: العمل عبادة، أليس كذلك ؟ !!! يتلبس، العمل عبادة، ينبغي أن تكون الصلوات الخمس الأولوية في عملك، فمن أجل عمل قد يتعامل بمادة محرمة، وهو لا يدري لذلك التوبة تحتاج إلى علم، حينما تجلس في المسجد على ركبتيك تتعلم الأحكام، هذا وقت مستثمر، وليس مستهلكاً، لأن أقل خطأ مع الله مدمِّر، الله عز وجل يعاقب الإنسان بجهله فقط، في القانون يقال: لا جهل في القانون، والمغفل لا يحميه القانون، فلذلك: ما لم تطلب العلم فلن تكتشف أخطاءك، فالتوبة تحتاج إلى علم، الآن تحتاج إلى حال، عَنِ ابْنِ مَعْقِلٍ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى عَبْدِ اللَّهِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((النَّدَمُ تَوْبَةٌ))

(سنن ابن ماجة)

بالضبط، وأنت تمشي في بستان وجدت ثعبانًا، لو أنك لم تقلق إطلاقاً، وبقيت هادئًا ومرتاحًا، تترنم ببعض الأبيات، معنى ذلك أنك لم ترَ الثعبان إطلاقاً، لو رأيته لخرجت من جلدك، وصرخت لوليت هارباً، فإنسان يعرف أنه مذنب، ومع الذنب عقاب، وهو مرتاح هذا مستحيل، فأنت حينما ترى الثعبان فهناك ثلاث حالات، حالة إدراك، وحالة اضطراب، وحالة سلوك، إن أدركت أنه ثعبان تشعر بخوف واضطراب شديدين، هذا الخوف والاضطراب يحملك على أن تغادر، وتبتعد عنه كثيراً، لذلك قالوا: الإنسان في تعامله مع المحيط الخارجي يحكمه قانون إدراك انفعال سلوك. يوجد مثل آخر أستخدمه للتوضيح: واحد قال لك: على كتفك من الجهة الخلفية عقرب ! فنبهك أنت

بقيت هادئًا جداً، والتفت نحوه، وابتسمت وقلت له: أنا شاكر لك لهذه الملاحظة، وأسأل الله جل جلاله أن يعينني على أن أشكرك عليها في المستقبل !! معنى ذلك أنه ما سمع ما قلت له إطلاقاً، لو أنه فهم ما قلت لاضطرب، وقفز، وخلع معطفه، وصرخ أحياناً فما لم تنفعل لمعصية فأنت لا تعرف أبعاد هذه المعصية.

تجده يتعامل بالربا وهو مرتاح، هذا لم يقرأ القرآن:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة)

ولا يعلم أن المرابي ماله ينتهي إلى المحق.

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة)

أخ في بلد آخر له محل تجاري في أوجه شارع، لا يوجد أعلى من هذا المستوى، أخذ قروضًا، فلما تراكمت الفوائد اضطر أن يبيع المحل ليسدد هذه الفوائد، الله عز وجل قال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

فأنت ما لم تعلم حقائق الشرع لا تكتشف الخطأ، فإذا اكتشفت الخطأ، وأنت مؤمن بالله مؤمن بوعده ووعيده ينبغي أن تضطرب، لذلك النبي الكريم اختصر موضوع التوبة بكلمة واحدة قال:

((النَّدَمُ تَوْبَةٌ))

فالعلماء شرحوا ذلك فقالوا: الندم لا بد أن يسبقه علم، ولا بد من أن يعقبه عمل، علم وعمل، والإنسان حينما يتوب من ذنبه، ولا أبالغ أنه يشعر كأن جبالاً أزيحت عن صدره، لذلك حال التائب حال لا يصدق من الفرح، هو خفيف، إلا أنه حينما تقع في الذنب مرة ثانية نقول لك: أن تتوب مرة ثانية، لكن التوبة الثانية أصعب، والثالثة أصعب وأصعب، فكلما تكرر الذنب نفسه وجد صعوبة الإنسان في التوبة.

لذلك في المرة الثانية يفضل أن تدعم التوبة بصدقة،

((اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحوها وخالق الناس بخلق حسن))

فلا بد من دعم التوبة الثانية بعمل طيب، من صدقة أو صيام أو خدمة، لكن يجب أن تعلم أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يتوب علينا.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

ويجب أن تعلم ثانية أن الله يحب التوابين، أنت حينما تتوب فأنت حبيب الله، وما لنا غير الله شئنا أم أبينا.

مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، للمليون، لكن من باب التناصح كل مرة إذا أذنبتَ الذنب نفسه كانت التوبة أصعب من التي تسبقها، لكن بالنهاية لا بد من أن نتوب، وليس لنا إلا الله.

أيها ا لإخوة: مرة ثانية أوجه هذه الملاحظة: لو أن إنسانا ما أعجبه صيامه، وكان صيامه دون طموحه ماذا يفعل ؟ نقول له : العام كله رمضان، استأنف التوبة، لذلك في مدارج السالكين هناك منزلة اسمها استئناف التوبة، التوبة ليست مرة واحدة، المؤمن مذنب تواب، كلما زلت قدمه تاب إلى الله عز وجل، والله عز وجل يعلم ما إذا كان هذا الذنب سببه غفلة، وغلبة، أو كبر، وعناد، الذي يرتكب المعاصي كبراً وعناداً، والذي يستنكف أن يعبد الله، ويأبى أن يعبد الله هذا إنسان لا توبة له، أما حينما يغلب عليك شيء، تغلبك الشهوة، ثم تستغفر، وتتوب تشعر أن الطريق لله سالك، وأن الله سيقبله.

أيها الإخوة الكرام: الندم توبة، والمؤمن مذنب تواب.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ))

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٥٤-٦٤) : سورة الممتحنة الآية (١٢)

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في سورة الممتحنة آية فيها ملمح دقيق، ألا وهي:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢))

(سورة الممتحنة)

ما الفرق بين أن يقول الله عز وجل: ولا يعصينك، وبين أن يقول: ولا يعصينك في معروف ؟ في الحالة الأولى لا يعصينه مطلقاً، لكن في الحالة الثانية معصية النبي مقيدة بالمعروف: ماذا يعني ذلك ؟ يعني أن الدين يتوافق مع العقل: يؤكد هذا المعنى الدقيق أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل سرية: وأمر عليها أنصارياً: بعد حين عثرت على رواية لها: أمر عليها أنصارياً ذا دعابة: فلما انطلقوا قال لأصحابه: أضرموا ناراً عظيمة، فأضرموها، قال: اقتحموها ؟ قالوا: كيف ؟ قال: ألست أميركم ؟ أليست طاعتي طاعة رسول الله ؟ اقتحموها، الصحابة ترددوا، بعضهم حكم عقله، فقال: إنما آمنا بالله فراراً من النار، كيف نقتحمها ؟ وبعضهم همّ أن يقتحمها، فلما عرضوا أمرهم بعد حين على النبي صلى الله عليه وسلم قال: والله لو اقتحمتموها لا زلتم فيها إلى يوم القيامة ؟ إنما الطاعة في معروف.

(الترمذي)

أي إنّ هذه الشريعة عدل كلها، رحمة كلها، مصلحة كلها، حكمة كلها، أية قضية خرجت من العدل إلى الجور، ومن الرحمة إلى القسوة، ومن الحكمة إلى خلافها، ومن المصلحة إلى المفسدة، فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل.

من الشريعة أن تذبح في الحج غنمة، إما جزاءاً، أو تقرباً، أو ترميماً، أو شكراً، مضت سنوات طويلة يذبح في منى ما يقترب من مليون أو أكثر، تذبح وتلقى في الطريق، ائت بإنسان عاقل، أيعقل أن يكون هذا شرع الله عز وجل ؟ مليون غنمة ! ثمن الدابة مبلغ كبير، وهناك شعوب تموت من الجوع، هل هذه شريعة ؟ هل أمر الله يقتضي أن تذبح وتمشي ؟ وتبقى منى تفوح منها رائحة اللحم المتفسخ لثلاثة أشهر، الآن طبعاً تذبح في المسالخ، وتجمد، وتساق للدول الفقيرة، هذه شريعة، لا يمكن أن تتناقض الشريعة مع العقل السليم، ولا مع الفطرة السليمة، ولا مع الواقع، لذلك يمكن أن

نقول: إن الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، أنا ألح على الكلمة الثانية، النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، العقل الصريح لأن هناك عقلاً تبريرياً، أهل الشهوات والأهواء يستخدمون العقل التبريري، فمن أجل شهوتهم ومتعتهم، وانخراطهم في الملذات المحرمة يقولون: المرأة نصف المجتمع، ولا بد أن تعمل، وتكون في كل مكان، ومن حقها أن تظهر مفاتنها، هذا عقل تبريري، هدفه المتعة، نغطي المتعة بفلسفة فارهة، هذا سماه القرآن زخرف القول.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)

(سورة الأنعام)

هذا العقل التبريري مرفوض، العقل الصريح والنقل الصحيح، هناك أحاديث لا تعد ولا تحصى، لا أصل لها، موضوعة، تثبط همة الإنسان، كل الناس هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، هذا الحديث مهمته التيئيس، لا بد من نقل صحيح، ولا بد من عقل صريح، ولا بد من فطرة سليمة، ولا بد من واقع موضوعي، حتى يكون الحق حقاً.
أن تعتقد أن الدين شيء لا يخضع للعقل، مستحيل، من خلق العقل ؟ الله عز وجل، من أنزل الوحي؟ الله عز وجل، من فطر الإنسان فطرة سليمة ؟ الله عز وجل، من خلق الواقع الموضوعي ؟ الله عز وجل، أيعقل أن تكون أربعة فروع من أصل واحد متناقضة فيما بينها ؟ هذا ما دعا عض كار العلماء أن يؤلف كتاباً حول حتمية توافق النقل مع العقل.

أيها الإخوة: إذا تعارض النقل مع العقل فلضعف في قطعية أحدهما، إذا تعارض العقل مع النقل فلخلل في قطعية أحدهما.

يا أيها الإخوة: يجب أن نطمئن أن هذا الدين دين الله، النصوص من عند الله، الفطرة من تصميم الله عز وجل، الواقع من خلق الله، العقل من خلق الله، لذلك سيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم الذي يوحى إليه معصيته مقيدة بالمعروف، قد يأتي إنسان لم يتعمق بالعلم، يرى أن مخالفة الشيخ في أي شيء محرم.

مرة كنت في بيت الله الحرام، ودون أن أشعر انتهى إلى سمعي فقرة من درس، هذه الفقرة تقول: أن إنسانا عزف ابنه عن أكل اليقطين، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحبه، فقتله تقرباً إلى الله ! ما هذا الكلام ؟؟؟ والله المتكلم جاد فيما يقول.

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

ما من إنسان فوق العقل، أو يأمر الناس أن يقتلوا أنفسهم، في أميركا قبل أعوام عديدة إنسان جمع خمسة وخمسون شخصا، وألقى في روعهم أنه في مرتبة دينية عالية، ثم أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، فقتلوا أنفسهم، المؤمن محصن، الأمر النبوي يجب أن يتوافق مع العقل، ومع النقل، ومع الفطرة، والواقع هذه الحقيقة، فديننا دين علم، دين أدلة، دين عقل، دين فطرة، وواقع، ووحي، انطلقت من هذه الكلمة في آية:

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

العقل لا يعطل أبداً، لكن قد تسألني: ما علاقة النقل بالعقل ؟ التوافق حتمي لكن مهمة العقل له مهمة قبل النقل، وله مهمة بعد النقل، قبل النقل أن يتأكد من صحة النقل، وبعد النقل أن يحاول فهم النقل فقط، أما أن نعطي العقل صلاحية أن يكون حكمًا على النقل، هذه فرقة ضالة هي الفرقة المعتزلة، التي بدأت في العصور العباسية، ولها بقايا الآن، الذي يحكم عقله فقط، فإذا لم يعجب عقلك الشيء رفضته، ولو كان حديثاً، أو قرآناً، أو نصاً صحيحاً هذا غلو في الدين، وتطرف ما بعده تطرف، لن يكون العقل حكماً على النقل.

أقوى دليل على ذلك ؟ أن العقل مرتبط بالواقع، نحن بين أيدينا قرص فيه مئة وخمسون ألف صفحة، أربعة جدران من الأرض إلى السقف فيه كتب، فيه قرص واحد، وثمنه خمسون ليرة، لو أيقظت إنسانا من قبره قبل مئة عام، وحدثته أن هناك قرصا يتسع لمئة وسبعين ألف صفحة يتهمك بالجنون، ولا يصدق !!! لأن العقل مربوط بالواقع، والبيئة، والخالق.

مثلاً: في عهد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يوجد الخيل والبغال والحمير والجمال فقط، لكن قضية الطائرة قد تركب من دمشق إلى أقصى مكان في الدنيا بسبعة عشرة ساعة ! أما قديماً يجب أن تأتي من المدينة إلى دمشق بأشهر، فالذي لن يعيش هذا العصر لن يصدق بالطائرة، لكن الله حينما قال:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨))

(سورة النحل)

لو تعارض العقل مع النقل، ولا يمكن التوفيق بينهما نحن مع من ؟ مع النقل، النقل هو الوحي، والوحي من عند المطلق، من عند الذي علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون ما لم يكن لو كان كيف كان يكون !

أيها الإخوة: هذا المنهج في البحث دقيق جداً، كل هذا الكلام من كلمة في معروف، معصية النبي صلى الله عليه وسلم مقيدة بالمعروف.

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

لذلك لا تعطل عقلك أبداً بالمقابل، إياك أن تحكم عقلك بالنص، استخدم عقلك للتأكد من صحة النص، ثم استخدم عقلك لفهم النص، أما أن تفكر قليلاً فتقول: هذا الحديث غير منطقي، وغير معقول، أنا لا أقبله، من أنت ؟ هذا الآن يجري، كل إنسان اعتمد عقله مرجعية كاملة، وحكما مطلقا، ومقياسا مطلقا، لذلك من علامات قيام الساعة عن أبي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:] عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ [، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ يَعْنِي بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا، يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ قَالَ: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ))

(سنن أبي داود)

أيها الإخوة: دققوا كثيراً في قوله تعالى:

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

واعتقدوا اعتقاداً جازماً أن الذي خلق العقل، والذي خلق الفطرة، والواقع هو الذي أنزل هذا القرآن.

أحياناً يرد سؤال: ما وضع الإيماء في الإسلام ؟ الآن هذا الموضوع غير موجود إطلاقاً، ولا في أي مكان في العالم، ومع ذلك قبل أن تخوض في تفاصيل هذا الموضوع يجب أن تعتقد أن تشريع الله عز وجل تشريع كامل يجب أن يليق التشريع بكمال الله وعدله ورحمته، أما أن يتناهى على سمعك عن أحكام لا دعم لها من نص قرآني، أو حديث نبوي، لكنها من اجتهاد إنسان عاش حقبة غير هذه الحقبة.

أنهي هذا الدرس بقول أحد العلماء: الشريعة عدل كلها رحمة كلها، مصلحة كلها، حكمة كلها، وأية قضية خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن العدل إلى الجور، ومن الحكمة إلى خلافها فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٥٥-٦٤) : التمكن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، من لوازم الإيمان التمكن، ما معنى التمكن ؟ أن تكون في الأعماق، ألاّ يستخفك المبطلون، ألا تتزلزل إن ألمت بك النوازل، ألا يضعف يقينك بنصر الله عز وجل.
فرق كبير بين قارب صغير قد تطيح الأمواج، و بين سفينة عملاقة كالجبل في البحر، فضعيف الإيمان كالقارب، أقلّ موجة تجعله يضطرب، بينما المتمكن كالجبل الشامخ لا تزلزله العواصف .
الحقيقة أن الآية التي تتعلق بهذه المكانة وهذه المرتبة هي قوله تعالى:

(وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠))

[سورة الروم: الآية ٦٠]

لو أن الإنسان كان خفيفاً فأيّة هزة، أيّ ضغط، أيّ إغراء يخرجه عن استقامته، هذا الذي عبرت عنه ليلة القدر.

حينما يعبد الإنسان الله من دون علم تكون مقاومته هشة، فهو يخرق استقامته لأدنى ضغط، أو لأدنى إغراء، وما أكثر العقبات والصوارف في هذه الأيام، فالذي لا يستخفه الفاسقون والمبطلون وأهل الدنيا والمشككون والمتطاولون يعد متمكناً.

وقد جاء قبل هذه الآية:

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

[سورة الروم: الآية ٦٠]

وقد يحتاج الناس إلى شرح هذه المنزلة لما يجري الآن من حرب شعواء على المسلمين في شتى بقاع الأرض، فضعيف الإيمان يقول: أين الله ؟ لما لا يتدخل ؟ أين وعده بالنصر ؟ فكلما ضعف الإيمان تزلزل الإنسان، و في معركة الخندق:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١))

[سورة الأحزاب]

تكلم ما شئت، تحدث عن نفسك ما شئت، لكن الله متكفل أن يضعك في حجمك الحقيقي، فلذلك عاش رجل مع النبي عليه الصلاة والسلام، فلما رأى الأحزاب، وقد جاءت لتستأصل شأفة الإسلام، وتنهي الإسلام، وتبيد المسلمين قال: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد كسرى و قيصر، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟ المتمكن في قمة جبل، وفي سفح هذا الجبل ساحل بحر، مهما علت أمواجه

فلن تصل إلى قمة الجبل، فهو في حرز حريز، وفي مكان قوي، بينما ضعيف الإيمان على ساحل البحر أية موجة تجذبه إلى البحر وتغرقه، فبين أن تكون في الأعماق وبين أن تكن معرضاً لكل الفتن، ولكل الظروف الصعبة، والحقيقة في معامل الإسمنت مع كل وجبة يصنعون مكعبات صغيرة من الإسمنت، بعد أن تجفف توضع على جهاز، وتعلق من أعلاها، وفي أسفلها كفة ميزان، توضع الأثقال في هذه الكفة، فعلى أي وزن تقطع تكون هذه مقاومتها.

لو صح هذا المثل كل مؤمن في شدة معينة تخرجه عن استقامته، فكلما كان يقينه بالله قوياً وكلما كان متمكناً، وكلما كان في الأعماق، وكلما كان في قمم الجبال لا تستطيع المصائب ولا الزلازل، ولا الإغراءات ولا العقبات، ولا الصوارف أن تصرفه عن طاعة الله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام، هذا المعنى يذكرنا بقول الله عز وجل:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤))

[سورة القلم: الآية ٤]

(على) تفيد التمكن، مهما اشتد الأمور، مهما ظهر الكفار أقوياء، مهما بطش الكفار، مهما كانوا ممكنين في الأرض فيقين المؤمن بنصر الله لا يتزحزح، ولا يتغير، ولا يضعف، فكلما اشتدت الأمور فرز الناس إلى منافقين، وإلى مؤمنين صادقين:

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا

(بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣))

[سورة الأحزاب: الآية ٢٣]

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ)

[سورة الأنعام: الآية ١٣٥]

كل شخص له مكانة، فإما أن تكون هذه المكانة في قمة جبل لا يتأثر بأي طارئ، وإما أن تكون هذه المكانة في سفح جبل معرض لأي طارئ:

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ)

[سورة الأنعام: الآية ١٣٥]

هذا التمكن فوق الطمأنينة، المطمئن مطمئن، لكن المطمئن قد لا يطمئن إلا أن المتمكن مرتبته فوق المطمئن، طبيب متبحر في العلم، متعمق رأى آلاف الحالات، الأمراض الإنتانية الناتجة عن التلوث، مستحيل وألف ألف مستحيل أن يأكل فاكهة من دون أن يغسلها، قضية منتهية، يوجد بالإنسان حقائق قد يعبر عنها بأنه عقلها، نحن في الكومبيوتر نحتفظ بالمعلومات، إما على الهارد، أو على الذاكرة، المعلومات في الذاكرة باقية ما دامت التيار موصول بالكومبيوتر، فإذا قطع التيار

محيت المعلومات، بينما المعلومات على الهارد مثبتة بشكل ميكانيكي، فلو أطفئ الجهاز، ولو انقطع التيار المعلومات راسخة، لذلك الذي عَقّله الإنسان في الدنيا يكون معه في القبر.

سيدنا عمر سأل حينما أوضع في القبر: عقلي معي ؟ قال له: عقلك معك، الحقائق حينما تبقى في الذاكرة قد تغيب عنك أحياناً، أما حينما تصل إلى القلب فأي حقيقة صارخة ثابتة واضحة مرئية حاضرة دائماً.

بالمناسبة أصعب شيء وضع المؤمن الضعيف، لا هو مؤمن قوي يقطف ثمار الإيمان، ولا هو كافر، يخاف من الله لكن حاله صعب جداً، أي بين أخذ و رد، الأخبار السارة تثبته قليلاً، الأخبار السيئة تضعفه كثيراً، يكفي أن تقرأ مقالة أنه استطاع العلماء أن يعرفوا جنس الجنين قبل أن يولد، يتزلزل، أين قوله تعالى:

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)

[سورة لقمان: الآية ٣٤]

كأنه فقد إيمانه، فلو تريث، وتحقق، الله عز وجل لم يقل: يعلم من في الأرحام، أي ذكرًا كان أم أنثى، يقول: يعلم ما في الأرحام، يوجد على الحوين المنوي من المورثات ما يزيد على خمسة آلاف مليون مبرمجة بأوقات معينة من يعلم تفاصيلها ؟ عرفوا ثمانين، مئة، أما العدد فمستحيل أن يحصيه إنسان، فمقالة أنه سوف يخترع دواء لإطالة العمر خطأ، هناك آية:

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤))

[سورة النحل: الآية ٦١]

أحياناً يقول:

(سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥))

[سورة القدر: الآية ٥]

الآن تقصف الفلوجة في ليلة القدر، كيف هذه الآية ؟ أي ضعيف الإيمان أيّ حدث، أيّ ضغط، أيّ إكراه، أيّ إغراء يخرجه عن استقامته، فلابد من التمكن، فالتمكن يحتاج إلى جهد كبير، إلى متابعة، إلى استقامة، إلى إتقان عبادة، إلى بذل، إلى تضحية، التمكن مرتبة أسأل الله جل جلاله أن نرزقها جميعاً.

(وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨))

[سورة الحج: الآية ٧٨]

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١))

[سورة آل عمران: الآية ١٠١]

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ)

[سورة النساء: الآية ١٤٦]

إذاً التمكن طريقه الاعتصام بالله، الاعتصام بكتابه، الاعتصام بنصوصه كي تتمكن عقيدتك، قال العلماء: اعتصام نوعان، اعتصام توكل، واستعانة وتفويض، وعياذ، وإسلام واستسلام.

سيدنا موسى عندما كان مع بني إسرائيل، وقد فروا من فرعون، فإذا بفرعون وراءه بجيشه، و قده، وطغيانه، وجبروته، وقهره، وبطشه، وكبريائه، والبحر أمامهم، هل يوجد أمان ؟ والآن لا يوجد أمل، لا يوجد أمل أرضيّ الآن:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين (٦٢))

[سورة الشعراء]

هذا التمكن، بالمليون واحد لا يوجد أمل، البحر أمامنا، وفرعون بجيشه الضخم، وحقده الكبير، و بطشه، و جبروته، و تألهه وراءنا، فالله عز وجل أوحى إلى سيدنا موسى:

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً)

[سورة طه: الآية ٧٧]

هذه القصص من أجل أن نعلم أنك إذا كنت متمكناً لا شيء يزلزلك، و لا شيء يدخل إلى قلبك الشك، فالتمكن مريح، أما أن تكون في السفح عرضة لكل موجة تأخذك، و العوام يعبرون عن هذه الحالة المرضية بالكلمة الدارجة كلمة تأخذه، و كلمة تحضره، يقرأ مقالة علمية قد تصادم آية يتزلزل، يسمع قصة يزداد إيمانه.

ذكرت قبل يومين في ليلة من ليالي القدر الماضية أنّ إمام الحرم دعا في صلاة الوتر، و بكى كثيراً، وبالدعاء تقريباً خمس عشرة دقيقة، دعا على إسرائيل أن يدمرها الله عز وجل، والذي لا يصدق أنه في الوقت نفسه كانت طائرتان هيلوكبتر ذاهبتان إلى جنوب لبنان كي يخطف أفراد الطائرتين المسلمين من المساجد كرهائن في ليلة القدر، الذي حصل أن الطائرة الأولى وقعت على الثانية، والطائرتان وقعتا على مستعمرة، ومات مئة وخمسة وعشرون ضابط كوما ندوس، وكل ضابط كلف من خمسة إلى عشرة ملايين دولار، وهذه الخسارة أكبر خسارة تمنى بها إسرائيل من وقت نشوئها.

الذي يلفت النظر أن الصندوق الأسود في الطائرة الأولى لما فتح سمعوا رسالة من الطيار يقول: أنا أسقط، ولا أدري لم أسقط، الأمر بيد الله عز وجل، إن تدخل الله عز وجل ، يحسم كل شيء، و لكن يجب أن نقدم لله سبباً كي يتدخل من أجلنا.

فالمتمكن إذا تدخل الله هذه الحكمة، وإذا لم يتدخل هذه الحكمة، لا يوجد عنده شك، ولا واحد بالمليار، لا يوجد عنده شك أن الذي يفعله الله هو الحكمة المطلقة، ولا ييأس، ويبقى متفائلاً. وأنا أقول لكم: أيها الإخوة، أخطر شيء أن نهزم من الداخل، أخطر شيء أن نشك في وعد الله لنا، فالتمكن اعتصام توكل واستعانة، وتفويض وعياذ، و إسلام و استسلام.

أما الاعتصام الآخر فهو اعتصام الوحي، أي أن تحكم الوحي في كل أمورك، لكن الناس ألفوا أن أمور العبادات الشعائرية، هذه وفق الفقه، كم ركعة ؟ الآداب، السنن، الفرائض، المستحبات، هذه كلها من الشرع مأخوذة، أما البيع و الشراء، التعامل المادي، الاحتفالات العلاقات، الأفراح، الأتراح، هذه وفق التقاليد و العادات، مثلاً: من غش المسلمين، وقال: الله أكبر، في الحقيقة ما قالها، ولا مرة، ولو رددها بلسانه ألف مرة، لماذا ؟ لأنه رأى رؤية خاطئة، أن هذا المال الذي سيحققه من غش المسلمين هو أكبر عنده من طاعة الله.

من أطاع زوجته في معصية، وعصى خالقه ما قال الله أكبر و لا مرة، و لو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى رؤية خاطئة أن إرضاء زوجته أكبر عنده من إرضاء الله.

من أطاع مخلوقاً أي مخلوق، وعصى ربه، ما قال الله أكبر و لا مرة، و لو رددها بلسانه ألف مرة لأنه رأى أن هذا المخلوق رضاه أكبر من رضا الله عز وجل.

فنحن مشكلتنا أن هذه الكلمات الإسلامية الكبيرة فرغت من مضمونها، لا معنى لها الآن، يرتكب كل المعاصي و الآثام، و ماله حرام، وبالعيد الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، كلام لا معنى له إطلاقاً، الذي يقول الله أكبر لو قطعته إرباً إرباً لا يعصي الله.

المليون عنده كالليرة، التبر كالتراب في جنب طاعة الله.

فيا أيها الإخوة، المطلوب في هذه المنزلة منزلة التمكن أن نسعى لأن نكون في الأعماق، أو أن نكون في قمم الجبال، لا أن نكون على حرف:

(النَّاس مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١))

[سورة الحج: الآية ١١]

بين أن نعبد الله على حرف، و بين أن نعبد الله، و نحن في الأعماق، و نحن في قمم الجبال.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: في سورة المرسلات آية هي قوله تعالى:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩))

[سورة الإنسان: الآية ٢٩]

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِوَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٣١))

[سورة الإنسان]

أيها الإخوة الكرام، أحياناً يتوهم قارئ القرآن أن ربط مشيئة العبد بمشيئة الرب جبر له، وعقيدة الجبر عقيدة زائغة، و عقيدة الجبر عقيدة فاسدة، وعقيدة الجبر تشل حركة الإنسان، وعقيدة الجبر تجعل المسلمين في مؤخرة الأمم، لأنهم يتوهمون أن كل أحوالهم السيئة قدرها الله عليهم، ولا حول لهم ولا قوة، لذلك يقول الله عز وجل:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

[سورة يونس: الآية ٣٩]

أي: بالقرآن، معنى ذلك هناك آيات تحتاج إلى تأويل، وقد قال الله عز وجل:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧))

[سورة النحل: الآية ٤٣]

وأهل الذكر أهل القرآن.

آية ثانية ربطت فيها مشيئة العبد بمشيئة الرب:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: الآية ٢٩]

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

[سورة الإنسان: الآية ٣٠]

فماذا يعني هذا الربط ؟ في هذه الآية:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩))

[سورة الإنسان: الآية ٢٩]

الإنسان مخير، فإن شاء الهداية فطريق الهداية واضح، الإنسان مخير، إن شاء الهداية طريق الهداية فهو ميسر، وواضح، بل إن هناك طرقًا إلى الله لا تعد ولا تحصى، فالطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

إن تفكرت في خلق السماوات والأرض فهو طريق إلى الله، إن تلوت القرآن، وتدبرته فهو طريق إلى الله، إن ذكرت الله فهو طريق إلى الله، إن أصغيت إلى صوت الفطرة فهو طريق إلى الله.
إذاً:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩))

[سورة الإنسان: الآية ٢٩]

لكن مشيئة الرب لا تعني الجبر، بل تعني أنها مشيئة فحص واختبار، نحن في بلادنا إذا قدم الطالب امتحان الشهادة الثانوية جاء بالحد الأدنى من العلامات مئة وخمسة، قدم طلباً إلى كلية الطب، مستحيل، كلية الطب تفحص هذا الاختيار، هل قدم العلامات المناسبة لهذا الاختصاص ؟ أنت لك أن تشاء ما شئت، لكن كل مشيئة لها ثمن، فمشيئة الله عز وجل أن تفحص مشيئتك، وأن تفحص الثمن الذي أعد لها هل قدمته ؟ ألا يقل الله عز وجل:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

[سورة الإسراء: الآية ١٩]

فمن السذاجة والغباء أن تطلب مكانة علية دون أن تدفع الثمن، فإذا ربطت مشيئة العبد بمشيئة الرب، فالمعنى أن مشيئتك مشيئة إرادة واختيار، لكن مشيئة الله مشيئة فحص واختبار، إذاً الله عز وجل رسم طريقاً إلى الإيمان، رسم طريقاً إلى الجنان، رسم طريقاً إلى الآخرة، ما لم تسلك هذا الطريق لن تستطيع أن تصل، كذلك الدولة، ولله المثل الأعلى رسمت طريقاً إلى أن تكون طبيباً، أما أن تقرأ مجلات طبية فقط، و تضع إعلاناً، وتقول: الدكتور فلان تحاسب حساباً عسيراً، أنت بهذه الطريقة لن تسلك الطريق التي رسمت للمواطن كي يكون طبيباً.

وكذلك رسم الله عز وجل طريق للإيمان، طريق للجنان، طريق للآخرة، طريق للنصر، هذه مشكلة المشكلات الآن، طريق النصر هو الإيمان الذي يحملك على طاعة الله رسم، وهذا جانب اعتقادي سلوكي، ثم أن تعد للعدو كل ما تستطيع، وهذا جانب عملي، هذا طريق النصر، أما أن تقف على المنبر، و تقول: يا رب، انصرنا على أعدائنا، اللهم دمرهم، اللهم اجعل كيدهم في تدميرهم، اللهم شتت شملهم، اللهم أرنا قدرتك بهم، ونحن لسنا مؤمنين إيماناً يحملنا على طاعته، ولم نعد لهم الإعداد الكافي، فالقضية في الدين قضية مقننة، كل شيء له طريق، إن سلكته حققت النتائج، وإن لم تسلكه فمهما رفعت الصوت، ومهما أحدثت ضجيجاً، ومهما توسلت إنك تخالف منهج الله عز وجل.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: الآية ٢٩]

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩))

[سورة الإنسان: الآية ٢٩]

الآن ماذا يريد الناس ؟ يريد أن يصل إلى الله، وهو مقيم على كل شهواته التي لا ترضي الله، لكن الشيء الخفيف يأتي به هذا لا يقدم ولا يؤخر، لذلك مهما حاول، ومهما رفع صوته بالدعاء، ومهما توسل، ما لم تسلك الطريق التي رسمت لك كي تكون مؤمناً لن تصل إلى ما تريد، هذا هو الربط، ليس ربط جبر، لكن مشيئتك مشيئة إرادة واختيار، ومشيئة الله مشيئة فحص واختبار.

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً(٣٠))

[سورة الإنسان]

في ظاهر الآية:

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ)

[سورة الإنسان: الآية ٣١]

لكن لو تابعتها:

(وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٣١))

[سورة الإنسان: الآية ٣١]

إذاً من هم الذين شاء لهم أن يرحمهم ؟ غير الظالمين، لذلك قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آَمَنُوا)

[سورة الأنعام]

لكن:

(وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢))

[سورة الأنعام: الآية ٨٢]

من هنا نكتشف حقيقة أن الأمة الكافرة العادلة تنتصر على الأمة المؤمنة الظالمة.

مادام قد لابس الإيمانَ ظلمٌ فالله عز وجل في حل من كل وعوده للمؤمنين هذه آية.

الآية الثانية:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: الآية ٢٩]

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

[سورة الإنسان: الآية ٣٠]

هناك ربط بمعنى آخر، هذا الربط ربط فضل، كيف ؟ الإنسان أعطي حرية الاختيار، وبهذه الحرية لو أحسن استخدامها لفاق الملائكة المقربين، والمؤمن أعلى مستوى في المخلوقات، والدليل:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧))

[سورة البينة: الآية ٧]

على الإطلاق، المؤمن مرتبته أعلى من الملائكة، والكافر مرتبته أدنى من الحيوان:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة البينة: الآية ٦]

في آخر الآية:

(أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة: الآية ٦]

فلو أن إنساناً استخدم حرية الاختيار استخداماً صحيحاً فأصبح في مكان عالٍ عند الله فوق الملائكة، قال:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

[سورة الإنسان: الآية ٣٠]

أي: لولا أن الله شاء لكم أن تشاؤوا، لولا أن الله منحكم حرية الاختيار لما نلتم هذه المراتب العلية، فمشيئة العبد هنا قد ربطت بمشيئة الرب ربط فضل.

فرضاً أب عنده عشرة أولاده، عنده معملاً خيرهم بين أن يبقى أحدهم في البلد، ويعمل في المعمل، وله بيت، و مكتبة، و راتب قدره خمسون ألفاً، أما الذي يقبل أن يسافر ليأتي باختصاص عال جداً، يكتب له المعمل كله، فقال أحد أولاده: أنا، إن سافر، ودرس، وجاء بالشهادة له المعمل كله، ودخل المعمل فلكي، أما لو لم يأت بالشهادة فليس له مكان في المعمل لصار متسولاً، لأن الأب أعطى هذا الأب، وتلك الحرية لأبنائه جميعاً، وأحدهم قبلها، وسافر، وعاد، وقد تملك المعمل كله ماذا نقول له؟ لولا أن أباك قد عرض عليك هذا العرض، وأنت قبلته، وكنت أهلاً له لما كنت في هذه المكانة، وذاك الدخل الكبير.

إذاً الآية الثانية:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: الآية ٢٩]

فيها ربط فضل لا ربط جبر، أنا أريد في تلك الحالتين أن أنفي أن يتوهم الإنسان أن مشيئة العبد قد ربطت بمشيئة الرب ربط جبر، لو جبر انتهى الدين.

إذا أجبر الله عباده على العبادة بطل الثواب، إذا جبرهم على المعصية بطل العقاب، لو أن الله أجبرنا على أفعالنا بطل الثواب والعقاب، وبطلت الجنة والنار، وبطل حمل الأمانة، وبطلت التكاليف، ولأصبحت الحياة الدنيا تمثيلية سمجة.

لذلك أيها الإخوة الكرام، لأنني أعلم علم اليقين أن عقيدة الجبر متغلغلة في نفوس المسلمين، شخص يشرب الخمر، ماذا يقول العامة عنه ؟ لا تعترض، طاسات معدودة، بأماكن محدودة، لو زنا شخص فالله يبتليه.

كلام العامة أحياناً هو الكفر بعينه:

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨))

[سورة الأعراف: الآية ٢٨]

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(١٤٨))

[سورة الأنعام: الآية ١٤٨]

فكان سيدنا عمر الخليفة الراشد حاسماً في هذه القضية، لما جاءه شارب خمر، وقال: أقيموا عليه الحد، فقال هذا الشارب: والله يا أمير المؤمنين، إن الله قدر عليّ ذلك ؟ فقال: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.

إذاً كلما قرأتم في القرآن ربط مشيئة العبد بمشيئة الرب، فاعلموا علم اليقين أن هذا الربط إما ربط فضل، أو ربط آخر، كما ذكرته قبل قليل، مشيئتك مشيئة إرادة اختيار ومشيئة الله مشيئة فحص واختيار.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٥٧-٦٤) : خسارة المقصر - أحقية الموت

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم سورة قال عنها الإمام الشافعي لو تدبرها الإنسان لكفته، وكان أصحاب النبي رضوان الله عليهم لا يتفرقون إلا على هذه السورة، وقد شُرحت مئات المرات، ولكن:

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الذاريات)

ملخص الملخص، ملخص ثلاثين يومًا، استمعنا إلى كل القرآن الكريم، في صلاة الفجر، وفي صلاة التراويح، ملخص الملخص: أن خالق السماوات والأرض يُقسم أن الإنسان خاسر، تملك مليار دولار، أنت خاسر، تعتلي أعلى منصب في الأرض أنت خاسر، تتزوج أجمل امرأة في الأرض، أنت خاسر، يكون لك مركز كبير، خاسر، تنجح بتأسيس أكبر شركة، خاسر، تصور أي نجاح في الدنيا، إن حققته بنص هذه الآية فأنت خاسر.

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢))

جواب القسم، خالق الكون يقسم أنك خاسر، تعلو في الأرض علوًّا علميًّا، علوًّا ماليًّا، علوًّا إداريًّا، يكون لك أولاد نجباء، خاسر، عندك أموال لا تأكلها النيران، خاسر تمتلك أطراف الأرض، خاسر،

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢))

لأن نجاحات الدنيا ليست فوزاً حقيقياً، ولكنها فوز خلبي، يأتي الموت فينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وغنى الغني، فقر الفقير، الأغنياء يموتون، وأصحاب الملايين يموتون، والمعدمون يموتون، والأذكياء يموتون، والأغبياء يموتون، والأقوياء يموتون، والضعفاء يموتون، وأصحاب الأجسام الرياضية يموتون، وأصحاب العلل السقيمة يموتون،

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢))

لو تنبهنا إلى هذه الخسارة والله الذي لا إله إلا هو لانعكست موازيننا ١٨٠ درجة، لو انتبهنا لهذه الخسارة، نعيش في أوهام،

(وَالْعَصْرِ)

خالق الكون يقسم لك بمطلق الزمن، لأنك أنت زمن، لأنك بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك، كيف مضى رمضان ؟ البارحة أعلن أن غداً رمضان، وصلينا التراويح أول يوم، الآن نحن في اليوم الثلاثين، وسيمضي هذا العام، ويأتي رمضان آخر، وفي أحد الأيام يقرأ الناس نعينا، شئنا أم أبينا، أحببنا أم كرهنا، هل هناك من حدث أكثر واقعية بالنسبة إلينا من الموت ؟! أبداً، من يملك أن يعيش ساعة قادمة ؟ أبداً، لا أحد يملك.

إذاً:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢))

سيدنا عمر بن عبد العزيز كلما دخل مقره في الحكم يتلو هذه الآية:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧))

(سورة الشعراء)

أريد أيها الإخوة أن أبين لكم حقيقة، هناك أعمال ليس لها أثر مستقبلي، فلو سافرت إلى مكان جميل، وأمضيت فيه أياماً، وأنفقت في هذا السفر أموالاً، وعدت، فهذا الاستمتاع بهذا المكان الجميل هل له علاقة بدخلك ؟ هل يزداد دخلك ؟ لا، هل يزداد اختصاصك ؟ لا هناك أعمال ليس لها أثر مستقبلي، وهناك أعمال لها أثر مستقبلي، لو عكفت على دراسة متينة عميقة خطيرة أساسية في حياتك، المستقبل قد تطلب لأعلى منصب، قد يأتي دخل كبير من هذا العمل، فأنت فرِّق بين عملين، عمل استهلاكي وعمل استثماري، عمل له أثر مستقبلي، وعمل ليس له أثر مستقبلي.

لو جلس رجل في حوض السباحة، والماء فاتر، واستمتع بالماء الفاتر ساعتين أو ثلاثاً، لما ينتهي هل يجد مليون ليرة أمامه ؟ لا لن يجد شيئًا، الاستمتاع بالحياة ليس له أثر مستقبلي أبداً.

فربنا عز وجل نبهانا في هذه السورة التي قال عنها الإمام الشافعي: " لو أن الناس تتدبروا هذه السورة لوسعتهم "، ما هذه السورة ؟

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢))

تقريباً ولا أبالغ معظم الناس يستهلكون أوقاتهم هكذا، أوقاتهم تنفق من دون أثر مستقبلي، يأكل ويشرب وينام، يتداول الأخبار، يتابع المسلسلات، هذا الإنفاق إنفاق استهلاكي، يأتي ملك الموت فيكون مجيئه كالصاعقة، تفضل، ماذا معك من عمل صالح ؟ ماذا أعددت لهذه الساعة ؟ ماذا تجيب الله عز وجل ؟ ماذا فعلت في الدنيا ؟ هل واليت فيه ولياً ؟ هل عاديت فيه عدواً ؟ هل بذلت من مالك ؟ من وقتك، من علمك ؟ من خبرتك ؟ هل أمرت بالمعروف هل نهيت عن المنكر ؟ هل وقفت

بين اثنين متشاكسين ؟ هل أزلت عن الطريق ما يؤذي الناس، ماذا فعلت ؟ هل ربيت أولادك ؟ هل ربيت بناتك ؟

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢))

لكن رحمة الله كلها في كلمة:

(إِلَّا)

(سورة العصر الآية: ٢)

استثناء.

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

(سورة العصر)

لذلك قال بعضهم: لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علما ، ولا بورك لي فيه طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قربا.

والله الذي لا إله إلا هو لو أن غلتك في اليوم مليون ليرة، كل يوم، فأنت خاسر، أما لو ازددت علماً أو عملاً صالحاً فأنت رابح.

فهذه السورة أيها الإخوة يجب أن تكون شعارنا مدى الحياة، تخسر إذا أنفقت وقتك استهلاكاً، وتربح إذا أنفقت وقتك استثماراً، كيف ينفق استثماراً ؟ بأربعة أشياء ملخصها:

يجب أن تطلب العلم، في المسجد، في الجامعة، عن طريق شريط، عن طريق كتاب، عن طريق شيخ، عن طريق درس علم، عام أو خاص، يجب أن تطلب العلم، ولا قيمة للعلم في الإسلام من دون تطبيق، ويجب أن تعمل به.

ويجب أن تدعو إليه، لأن الدعوة إليه فرض عين، ويجب أن تصبر على طلبه، وعلى العمل به، وعلى الدعوة إليه، وما لم تفعل في اليوم هذه البنود الأربعة فأنت خاسر لا محالة، لماذا ؟ لأن مضي الوقت يستهلكك، أنت بضعة أيام، بعد حين تنتهي ضعف ألفًا، بعد حين تنتهي، ضع مئة ألف، بعد حين تنتهي، أنت لك أيام عند الله، بضعة أيام، كم عمرك الآن أربعون سنة ؟ أيْ مرّ عليك أربعون ربيعًا، و أربعون خريفًا، و أربعون شتاء، و أربعون صيفًا، يمكن لو كان هناك إحصاء دقيق أن تعد سفرات في هذا الأربعين عامًا، الولائم التي دعيت إليها، النزهات التي قضيتها، كل شيء يعد، لك عدد محدود، وعمرك محدود، وقتك محدود، المتع محدودة، الآلام محدودة، كل شيء يعد، ما دام الأمر معدوداً ومحدوداً فسوف ينقضي.

إذاً ما من كلمة أبلغ من أن مضي الوقت وحده يستهلك الإنسان، لذلك قال سيدنا عمر بن عبد العزيز: " الليل والنهار يعملان فيك، كيف ؟ عندك صورة، كان عمرك خمس سنوات ؟ انظر إليها، ثم انظر إلى وجهك في المرآة، هناك فرق كبير جداً، لو كنت في الثمانين الفرق أكبر، انظر إلى صورتك وإلى وجهك في المرآة، هذه الأخاديد، وهذه التجعدات من فعل الليل والنهار، الليل والنهار يعملان فيك، كيف ترد على فعلهما فيك ؟ فاعمل فيهما الأعمال الصالحة، في النهاية بعد الإيمان بالله وطاعته حجمك عند الله بحجم عملك الصالح:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

أنت بحاجة إلى مزيد من العلم، وبحاجة إلى مزيد العمل به، وبحاجة لمزيد للدعوة إليه، ثم بحاجة إلى صبر على طلبه، البيت مغرٍ، البيت فيه مقاعد وثيرة، وزوجة أمامك وأولاد، وهناك طلبات، هاتوا كأسًا من الشاي، هاتوا كأس عصير، أمّا المسجد فليس فيه شيء مغرٍ، الجلوس على الأرض، مقعد، يحب الرجل أن يستند فلا يجد شيئًا يستند إليه، فأنت حينما تؤثر طلب العلم، تؤثر تعلم آية، أو حديث شريف، أو حكم فقهي، أو موقف للصحابة، أنت حينما تزداد علماً ينبغي أن تزداد طاعة لله، وينبغي أن تزداد دعوة إلى الله، وينبغي أن تتسلح بالصبر.

أيها الإخوة، تكاد تكون هذه السورة:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

هذه السورة ملخص ما سمعناه في هذا الشهر بأكمله من كتاب الله، أنت رابح أو خاسر، رابح بإنفاق وقتك إنفاقًا استهلاكيًّا كما يفعل معظم الناس، يأكل، ويشرب، ويرتاح، ويعلق على أفعال الناس، ولا يفعل شيئاً، ثم هناك بوابة خروج، وأمراض كثيرة، كلها يشفى منها الإنسان إلا مرض واحد، هذا مرض الموت، هذا لا يشفى منه، هذا أنا أسميه بوابة الخروج، من أين تبدأ مع الإنسان، دقق في حالات الموتى، هذا بورم خبيث، هذا بأزمة قلبية، هذا بحادث سير، هذا بخثرة بالدماغ، هذا بتشمع الكبد، هذا بفشل كلوي، من هنا تبدأ، يتفاقم بعدها فيخرج النعي.

واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا.

إذا يمكن أن يكون في سورة ملخص ما سمعناه من كتاب الله طوال رمضان، وما سمعناه من تفسير طوال رمضان هو هذه السورة، بين أن تكون خاسراً، وبين أن تكون رابحاً، وهذا كلام الله، وهل يعقل أن يقسم الله لك ! من أنت ؟ يقول لك الله:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢))

خاسر.

هناك شركات عملاقة دخلها فلكي، هناك مناصب رفيعة جداً، هل هناك منصب أعلى من أن تكون على رأس أكبر دولة طاغية في العالم ؟ العالم كله رهن إشارتك، خاسر هل هناك أعلى من أن تنتصر في حرب ضروس ؟ خاسر، هل هناك أعلى من أن تكون كهذا الذي يملك في أمريكا ٩٠ مليار دولار ؟ خاسر، سوف يموت.

سيدنا عمر بن عبد العزيز اختار أحد العلماء، قال له: كن معي دائماً، فإذا رأيتني ضللت فامسكني من تلابيبي، وهزني هزاً شديداً، وقل لي: اتق الله يا عمر، فإنك ستموت.

أكبر موعظة هو الموت، يملك مليارات، في النعش، ترون النعوش كل يوم، تجد كل هذا الضجيج لا ينفعنا في النعش، إلا أن يكون الله راضياً عنا.

أحيانا يكون الإنسان بمكان يحدث له من التبجيل والتعظيم ما لا يوصف، العبرة أن يكون الله راضياً عنه، أن يكون في مرضاة الله، يقول الناس ما يشاؤون، فإذا كان الواحد فرضاً لا يقرأ ولا يكتب، قل له: أنت دكتور، أنت أعلم علماء الأرض، أنت وحيد عصرك، وفريد زمانك، يبقى جاهلا، هذا لا يقدم ولا يؤخر.

فيا أيها الإخوة، نحن في أمس الحاجة في أن نستخدم هذه السورة كل يوم، هذه شعارنا:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

الآن بعد رمضان يجب أن يكون هناك منهج ثابت، رمضان يسمونه قفزة نوعية، لكن بعد رمضان استمرار لهذا الإنجاز في رمضان.

وكل عام وأنتم بخير

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٥٨-٦٤) : من لوازم الإيمان الإحسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من لوازم الإيمان الإحسان، وتعلمون أن في الإسلام مصطلحات ثلاثا: الإسلام ـ والإيمان ـ والإحسان ـ

فالإسلام: أن تنصاع لأوامر الله عز وجل بجوارحك.

والإيمان: فضلاً عن أن تنصاع إلى الله بجوارحك، تقبل عليه بقلبك.

والإحسان: أن تتجرد عن كل حظوظك، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما.

((١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢))

(سورة الأنعام)

وقتك، وعلمك، وخبرتك، وعملك، كله في سبيل الله.

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١))

(سورة الواقعة)

أيها الإخوة الكرام، من تعريفات النبي صلى الله عليه وسلم للإحسان:

((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لن تكن تراه فإنه يراك))

من تعريفات الإحسان أن تحسن كل شيء، أن تتقن عملك، أن تكون أباً رؤوفاً، لكوني أماً راعيةً لزوجها وأولادها، أن تكون أخاً صدقاً، أن تكون مسئولاً تخاف الله عز وجل .

الإحسان كيف ما تحركت، وكيف ما تحولت أنت في طاعة الله، والعبادة كما تعلمون أيها الإخوة لها مفهومات ضيقة، أن نصلي، وأن نصوم، وأن نحج، وأن نزكي، لكن لها مفهومات واسعة جداً، العبادة تدور مع الإنسان كيف ما تحرك، تدور معه في كل أحواله، في كل حركاته وسكناته، في كل أطواره، في كل مواقعه.

سيدنا الصديق خليفة المسلمين قبل أن يتسلم منصب الخلافة كان يؤدي خدمة لجارة عجوز، هذه الخدمة كان يحلب شياهها، فلما تسلم الخلافة غلب على ظن هذه العجوز أن هذه الخدمة قد توقفت، ففي صبيحة اليوم الأول يطرق باب العجوز تقول لابنتها: يا بنيتي افتح الباب، ثم تسألها من الطارق؟ قالت: جاء حالب الشاة يا أماه، إحسان كامل.

سيدنا عمر رضي الله عن عمر سأل أحد ولاته: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً إن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإن لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، اشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

الحقيقة أن الإحسان طوعي، لكن العدل قسري، أنت مأمور بالعدل شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت، لكن الإحسان لك أن تحسن بأي مستوى، لذلك هناك آية كريمة تحل مشكلات المجتمع، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

(سورة النحل الآية: ٩٠)

فالقضية إن لم تكن محققة عن طريق العدل تحقق عن طريق الإحسان،

(إن اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

فقد لا يستحق هذا الموظف عندك هذا المعاش، لكنه يعاني مشكلة كبيرة جداً، عنده حالة صحية، عنده حالة مرضية، عنده ولادة، فإن لم يسعك أن تعطيه بالعدل، لأن راتبه وفق الحد الأقصى، الإحسان يأمرك أن تفعل ذلك.

مثلاً: الزكاة واجبة وفرض، لكن الصدقة إحسان.

وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْس

(أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧))

(سورة البقرة)

فإيتاء المال على حبه إحسان، من هنا أيها الإخوة، يتضح أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠))

(سورة الرحمن)

الله عز وجل أحسن إليك حينما أوجدك.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١))

(سورة الإنسان)

أنت الآن موجود، تشغل حيزاً، هذا الوجود إحسان، منحك نعمة الإيجاد، فضلاً عن ذلك منحك نعمة الإمداد، أمدك بالهواء، وبالماء، بالطعام، بالشراب، بالزوجة بالأولاد، بالمسكن، بالخبرة، أعطاك خبرة ترتزق منها، كل إنسان مكنه الله من عمل.

في سهرة من السهرات كان معنا طبيب قلب جراح، قلت: سبحان الله ! كيف تأتيه رغبة أن يأكل ؟ عمله يفتح الصدر بالصاروخ، يباعد بين العظام، الدم يخرج، يفتح القلب، يشق البطين، يصل إلى الدسام، يزيل الدسام المعطوب، يضع دسامًا جديدًا، والدماء بشكل مخيف، وقد أراني بعض الأفلام للعمليات الجراحية، كيف مكنه الله من ذلك ؟ أمامه إنسان فتح صدره، وفتح قلبه، وفتح بطين القلب، ودخل إلى الدسام، ثم أعاد تشغيل القلب.

كل إنسان الله عز وجل مكنه من عمل، هذا عطاء أيضاً، منحك نعمة الإيجاد ، ومنحك نعمة الإمداد، كل إنسان عمله سهل عليه، بينما أعمال الآخرين يراها صعبة جداً، مكنك من عمل كي ترتزق منه، فأنت بحاجة لمليون حاجة، وسمح لك أن تتقن حاجة، أتقنت حاجة، وبحاجة لمليون حاجة.

فالإحسان منحك نعمة الإيجاد، ثم منحك نعمة الإمداد، ثم منحك نعمة الهدى والرشاد

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

هذا الذي يأتي يوم القيامة، وقد ابتز أموال الناس، وألقى الرعب في قلوب الناس، وأهان الناس، واستعلى على الناس، وأكل أموالهم بالباطل، بل هؤلاء الطغاة الذين قتلوا الناس، وأفجعوهم بأولادهم، وهدموا بيوتهم، هذا إذا جاء يوم القيامة ماذا يقول لله عز وجل ؟

ورد في بعض الأحاديث:

((إن العار ليلزم العبد يوم القيامة، حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[رواه الحاكم عن جابر]

منحتك نعمة الإيجاد، وكلهم عبادي، لماذا بنيت مجدك على أنقاضهم ؟ لماذا بنيت غناك على إفقارهم، لماذا بنيت حياتك على موتهم، لماذا بنيت عزك على ذلهم، لماذا ؟!!

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

هذا جزائي معك يا عبدي، والإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله.

إخواننا الكرام، لو أنك تعيش عيش الكفاف، لكن لا علاقة لك بما يجري في الأرض من جرائم الآن، عندنا ستة جرائم كبيرة، جريمة إفقار المسلمين، إركاعهم

تقريباً في العالم العربي الأمور كلها نحو الأصعب، الدخولُ تقلّ، الشركات لا تربح، المواد الأولية أسعارها ارتفعت، والأسعار ارتفعت، الدخول قلت، في جريمة إفقار العالم الإسلامي، بتعبيرهم تجفيف مصادر الإرهاب، إلغاء العمل الخيري.

البند الثاني جريمة الإضلال، شبهات، شبهات، شبهات، تطاول على الإسلام على القرآن، على نبي الإسلام، بالإنترنت، وبالصحف، إلغاء القرآن، وإحداث قرآن جديد، اسمه الفرقان الحق، وفيه آيات ما أنزل الله بها من سلطان، هذه الجريمة الثانية إضلال المسلمين، منع التعليم الشرعي، تغيير المناهج، إلغاء الهوية الإسلامية.

الجريمة الثالثة: إفساد المسلمين، يجب أن تكون ساحة الإنسان جنس فقط يجب أن يألف الجنس الشاذ أيضاً، هذه جريمة ثالثة، إفساد المسلمين.

الجريمة الرابعة: إذلالهم.

الجريمة الخامسة: إبادتهم.

لما يكون الإنسان حلقة بهذه الجرائم، ويأتي يوم القيامة، ويقول له: يا عبدي ماذا فعلت ؟

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

هكذا تعامل عبادي، والإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله.

فيا أيها الإخوة، كما أن الله منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد يجب أن تمنح عباده كل الخير، من دون تفرقة، هذا عدل لله.

أحياناً لا ترى شيئًا ينتمي إليه الإنسان أقوى من إنسانيته، إنسان، الذي يجري الآن بالعالم العقل لا يصدقه، خلاف بين قبيلتين في جنوب إفريقيا، ٥٠٠ ألف ذبحوا خلال أسبوع تقريباً، في رواندا، المذابح الجماعية، المقابر الجماعية، التطهير العرقي، شيء تأباه البشرية، هذا الذي يجري في العالم، فالآية الكريمة:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

أنا أقول لكم أيها الإخوة، هنيئاً لإنسان نظيف، هنيئاً لإنسان يده نظيفة، ولسانه نظيف، وكتاباته نظيفة، أحياناً في إضلال كتابي، مقالة في صحيفة، يقول لك: أنت أخلاقي لأنك ضعيف، وأنت ضعيف لأنك أخلاقي، جعل لك الأخلاق في الحضيض، سبب ضعفك، سبب هيمنة الناس عليك، هذا الصحفي كتب هذه الكلمة قد تفتن شابًّا، قد تفتن إنسان محدود التفكير، يصدقه، أو أن تأتي بصرعة علمية فيها تحدي للخالق، كالاستنساخ، طيب أين هي ؟ تسمع من حين لآخر فقاعات بعد هذا تختفي، استنسخنا أطفالا، في عملية تحدي لخالق السماوات والأرض، والله عز وجل يسمح أحياناً للمحاولات، ولا يسمح بالنتائج، يسمح بالمحاولات لتظهر قدرته التامة والكاملة.

فيا أيها الإخوة، الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

آخر موضوع، أنت غني أول إحسانك أن تنفق، أنت قوي أول إحسانك أن تحق الحق، وتبطل الباطل، أنت عالم، أول إحسانك:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩))

(سورة الأحزاب)

هذا الإحسان، الإحسان أن يكون عملك مغطى من قِبل الله عز وجل، أن تكون في مرضاة الله، والإحسان واسع جداً، عملك المهني يحتاج إلى إحسان، وبنوتك تحتاج إلى إحسان، دعوتك تحتاج إلى إحسان، أي شيء تفعله يحتاج إلى إحسان، أن تقدم العمل كاملاً أن تقدم العمل كامل بلا شائك، بلا نقص، أنت أعطيت إنسانًا فقيرًا أمام الناس وبإذلال، وهذه زكاة مالي، وأنت فقير، انتهى الفقير **!** كأنك ما فعلت شيء.

حدثني مدير مدرسة قال لي: أنا حينما أريد أن أعاون الطلاب الفقراء أستدعي آباءهم، وأعطي هذه الألبسة لأبيه، الأب يعطيها لأبنه على أنها من أبيه، حتى يشعر الطفل باعتزاز، هو ليس فقيراً، هذا اللباس الجديد جاء به أبوه، فكان المدير لما يريد أن يساعد طلابًا فقراء يعطي الحاجات إلى الآباء كي يأتون بها إلى البيت، كأنها من عندهم، أحيانا الإنسان يعمل عملا صالحًا، لكن يسيء إساءة بالغة.

أيها الإخوة، الإنسان يعلم بفطرته كيف يكون الإحسان، ولكن في غفلة من غفلاته، أو برعونة من رعوناته، أو بتطاول من تطاولاته، يسيء، وأشخاص كثيرون يسيئون من حيث لا يشعرون، وكلما كنت قريباً من الله كنت أقرب إلى الإحسان، وكلما كنت بعيداً عن الله كنت أقرب إلى الإساءة، والإساءات لا تعد ولا تحصى، أحياناً نظرة قاسية فيها إساءة، أحياناً أن تمن على إنسان، يقول لك: لحم أكتافك من خيري، لا كان هذا الخير، ولا كان هذا المن.

فيا أيها الإخوة، كلما قرأتم قوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧))

(سورة القصص)

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١١-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في نهاية المطاف أستعير من مصطلحات الأدب مصطلحين، المصطلح الأول شاعر المناسبات، الشاعر الملتزم، شاعر المناسبات مرتبته دنيا، لكن الشاعر الملتزم مرتبته عليا، لذلك حتى في الدين مناسبات، السابع والعشرون من رمضان، رجب، صوم خمسة عشر يوما من شعبان، صوم رمضان، يضبط أموره، وما سوى ذلك حر طليق، هذا مؤمن المناسبات مرتبته دنيا، المؤمن الملتزم طوال العام في كل الأشهر، وفي كل الأوقات، وفي كل الأمكنة، هذا المؤمن مرتبته عليا، والذي يلفت النظر أن المقصرين يحفلون بالمناسبات أضعاف ما يحتفل بها المؤمنون ! لأنه ينشأ عنده حالة اسمها التعويض، هناك تقصير، وتفلت، فتأتي هذه المناسبة فيقنع نفسه أنه دين، هذا يشبه إنسانًا يأكل ما يشتهي، ووزنه يزداد، عند الشاي يطلب حبة سكر، هذه الحبة من أجل أن يقنع نفسه أنه منضبط، لكنها لا تقدم ولا تؤخر.

أنا أشعر أن أناسًا كثيرين دائماً بالمناسبات يحتفلون احتفال كبيرًا، لأنهم في غير المناسبات مقصرون تقصيرًا كبيرًا.

الذي أتمناه على نفسي وعلى كل أخ كريم أن يجعل العام كله رمضان والتزامًا، هذا الإنسان الذي وهب وقته وعمر وطاقاته وعلمه وخبرته لله عز وجل المناسبات عنده لا تقدم ولا تؤخر، هو يتألق في المناسبات، ليس معنى هذا أنه في غير المناسبات يقصر، بغض البصر على مدى العام، الصلوات على مدى العام، الإنفاق، تلاوة القرآن، طلب العلم، الدعوة إلى الله، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إنفاق المال، الأعمال الصالحة، هذه ديدنه طوال العام، رمضان قد يزداد فيه نشاطا، لأن النبي عليه الصلاة والسلام فيما أثر عنه أنه كان جواداً على مدى العام، وكان أجود ما يكون في رمضان، لكن لم يرد أنه كان جواداً في رمضان فقط.

وبالمناسبة، أنا مضطر لأن أتكلم هذا الكلام، حتى المتفلتات إلى أقصى الحدود ينضبطون، هذا الإنسان الذي يقصر مدى العام، ويلتزم في رمضان مرتبته دنيا، طبعاً نحن نرحب بهذا الالتزام في رمضان، لا نسفهه، لكن ليس هذا شأن المؤمن، شأن المؤمن أنه عاهد الله :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة)

فالمؤمن باع نفسه في سبيل الله، باعها طوال العام، لا في رمضان، طبعاً هذا الكلام يناسب هذا الدرس، وقد انتهى رمضان، وغداً عيد إن شاء الله، الإنسان لا يتوهم أنه انتهى رمضان، وانتهت معه الطاعة، والتلاوة، وغض البصر، و....

كما قال الشاعر:

رمضان ولى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق

ليس هذا من شأن المسلم إطلاقاً.

يوجد شيء آخر يضاف إلى هذا الموضوع، منزلة عجيبة اسمها استئناف التوبة، الإنسان تاب إلى الله، واصطلح معه، لكن المؤمن الصادق يتوب كل يوم وكل ساعة.

سأفرض حالة أرجو أن تكون قليلة جداً – يوجد أخ كريم لم تعجبه صلاته في رمضان، ولم يعجبه التزامه في رمضان، ماذا يفعل ؟ لا ينتظر إلى رمضان القادم، ليجعل شهر شوال امتدادًا لرمضان، ويستأنف التوبة في رمضان، ليس لنا إلا الله عز وجل:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧))

(سورة النساء)

فأهم شيء في التوبة أن تكون من قريب، وأن يكون الفاصل بينها وبين الذنب فاصل قصير جداً، فكلما قلّ الفاصل طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، إذا فعل الإنسان الذنب، وآخّر التوبة يألف هذا الذنب، فإذا أصبح عادة من عوائده من الصعب جداً أن يتوب منه، يألف هذا الذنب، فكلما كانت توبته أقرب إلى الذنب كانت نجاته أكثر احتمالا، لو أن إنسانًا لم يعجبه صيامه في رمضان فلا ينبغي أن ينتظر إلى رمضان القادم، ينبغي أن يكتب برنامج عبادة وانضباط بعد رمضان، ليتابع، لأن الله عز وجل رب الشهور كلها، رب رمضان، وشوال، وذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم، وصفر، فهذا استئناف التوبة، أن تعالج الأمر سريعاً، لذلك قال سيدنا عمر:" تعاهد قلبك "، كل إنسان يلاحظ قلبه، إذا كان فيه تقصير، أو جفوة مع الله، أو فتور، والفتور علاجه سهل جداً.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠))

(سورة الكهف)

أنا أشعر أن إخواننا الكرام لأنهم ملتزمون طوال العام هم أقرب إلى الحالة التي أتمناها من الحالة التي لا أتمناها، هم يحضرون مجالس العلم كل أسبوع مرتين أو ثلاثًا باتصال مع نفحات الإيمان والعلم، وومضات الدين على اتصال مستمر.

فلذلك أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون رمضان كما يسميه البعض إقلاعًا بعد الإقلاع، طيران، لاحظ، هناك من يدفع السيارة التي تحتاج إلى دفع، هناك جهد كبير جداً، أما إذا دار المحرك فلا يستطيع الذي دفعها أن يلحق بها، وهذا المثل ينطبق على المؤمن، الإنسان يبذل جهدًا، فإذا انطلق ينطلق، وتبقى سرعته متصاعدة، وأنا ألاحظ هذا في إقلاع الطائرات، إذا ركب إنسان الطائرة

يمشي الطيار ببطء شديد، لأنه ينتظر الأمر بالإقلاع، بطء غير معقول، يقف، ويمشي، ويقف عند المنعطفات، ويمشي، ثم يقف في أول المدرج، فإذا جاء أمر الإقلاع ارتفعت السرعة فجأة إلى مئتين وثمانين أو ثلاثمئة كيلو متر في الساعة، حتى تكون هذه السرعة كافية كي يطير، فكان المؤمن يتفحص، ينطلق، ينتكس، يتوب، يتكرر هذا الوضع إلى أن يقلع، فإذا أقلع فعليه أن لا يهبط، في الطيران لا بد من الهبوط، أما في عالم الإيمان فممنوع أن تهبط، ينبغي أن تبقى تحلق في الأجواء، فأسأل الله سبحانه وتعالى لي ولكم النجاة، وأن يكون رمضان منطلق وقفزة نوعية، والذي ألفناه في رمضان ينبغي أن يستمر بعد رمضان، وتزود المؤمن من دروس العلم والله الذي لا إله إلا هو يشبه شحن الهاتف المحمول، فما لم تشحن لا تنطلق، والانطلاق هنا العمل الصالح، عندما يضعف الشحن بقي الإنسان كائنًا يأكل ويشرب، ويستمتع بالحياة، انتهت رسالته، وانتهى تحقيق أهدافه الكبرى، أما إذا شحن، فينبغي أن يكون الشحن أسبوعيًّا، الحد الأدنى، من هنا كانت صلاة الجمعة فرضاً، صلاة الجمعة شحن أسبوعي، وعلمي، وروحي، والإنسان ما لم يشحن تتعطل قواه، وقد ورد في الحديث الشريف عَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثًا مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ))

(سن ابن ماجة)

فإذا تابع الترك يكون الران، ولا يوجد إنسان ليس بحاجة للشحن، وأنا واحد منكم، لا يوجد إنسان يمكن أن يستغني عن الشحن مهما علا مقامه بدرس علم، بخطبة جمعة، يشحن، يكون قريبًا إلى عالم الإيمان والآخرة، ومفاهيم الدين الصحيحة، وإلى التوبة، وإلى الصلح مع الله، فإذا ترك الشحن انتهى، يعيش مع الناس بالشرك، بالتفلت، بالتقصير، ثم بالسوداوية، ثم اليأس والشكوى، تجلس مع إنسان تشعر أنك لا تستطيع أن تقف من كثرة همومه، هذه هموم من البعد عن الله عز وجل، هذه إعراض الأعراض، أنا أستخدم هذا المصطلح:اليأس والقنوط والشكوى والضجر والانقباض والشعور أن المسلمين انتهوا، هذا شعور يأتي مع البعد عن الله عز وجل، أما القرب ففيه تفاؤل، وثقة بالله، وأمل، يوجد شعور بالتسليم لله عز وجل، وإدراك الحكمة.

الحقيقة أنه من السهل جداً أن تكتشف السلبيات، أي حدث فيه سلبيات صارخة، لكن من الصعب جداً أن تكتشف إيجابيات المرحلة، ونحن في مرحلة صعبة جداً، توجد إيجابيات لا يعلمها إلا الله.
كلكم يعلم قبل خمسين عامًا مَن هم رواد المساجد، ثمانون فما فوق، الآن في كل أحياء دمشق حتى الأحياء الغنية جداً تجد إقبالا على المساجد يفوق حد الخيال، هذا من بركات الأحداث المؤلمة التي ألمت بالمسلمين، ما بقي أمام المسلمين إلا الله، تعلقنا بأنظمة مستوردة من الشرق والغرب سابقاً، فلم تفلح في إسعادنا، ولا في حل مشكلاتنا، الآن ثبت لكل المسلمين أن أي نظام وضعي مستورد أو

مصنع داخلياً لا يمكن أن يسعد الإنسان، بل يزيده شقاء، لذلك هناك اتجاه إلى الله في العالم الإسلامي، لا تعبأ بالأطر الأطر المادية، هذه لا قيمة لها إطلاقاً، العبرة بالمضمون.

هناك وهم خطير جداً يروجه أعداء الدين، أن هذا الدين للفقراء فقط، المفاجأة أن أغنى الأغنياء ملتزمون بالدين كالتزام الفقراء ! الدين حاجة أساسية.

فأرجو الله سبحانه وتعالى أن نستأنس بالتوبة بعد رمضان، وأرجو الله أن لا نكون مؤمني مناسبات، بل نكون مؤمنين يداومون على طاعة الله، كشاعر ملتزم، وشاعر المناسبات، وكل عام وأنتم بخير.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٦٠-٦٤) : التربية الصالحة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٢-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، آية في سورة الطور، الحقيقة هي مسعدة، والحقيقة هذه الآية تؤكد أن طريق الجنة يبدأ وينتهي في البيت، في البيت فقط، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

(سورة الطور)

أنت متزوج وعندك أولاد، من يصدق أن هؤلاء الأولاد ذكوراً وإناثاً إذا اعتنيت بهم أشد العناية، اعتنيت بإيمانهم، اعتنيت بعبادتهم، اعتنيت بتحصينهم، اعتنيت بصحتهم، اعتنيت بأخلاقهم حتى كانوا شبابًا مؤمنين صادقين مخلصين، هذا العمل وحده يكفي لدخول الجنة، بل إن كل أعمالهم الصالحة هم وذريتهم من بعدهم، قد لا تصدقون إنسانًا تزوج وأنجب خمسة أولاد، والأولاد تزوجوا، وأنجبوا أولادًا إلى يوم القيامة، كم يكون من ذرية هذا الإنسان ؟ قد يكون الملايين، قد يكون مئات الملايين، قد يكون آلاف الملايين إن كان هؤلاء الذين أنجبهم وعرفهم بربهم وعلمهم، واعتنى بإيمانهم واستقامتهم وعبادتهم بجهد واضح، كل أعمال ذريتهم إلى يوم القيامة في صحيفة هذا الإنسان.

مرة كنت في بلد عربي مجاور، صليت في المسجد، صدقوا لم تقع عيني على مسجد في أناقته وجماله، والعناية الفائقة به، سمعت أن هذا المسجد بناه مهندسان وفاء لوالدهما الذي علمهما القرآن حينما كانا صغيرين، أصبحا مهندسين كبيرين، ووفاء مع الأب الذي اعتنى بتربية أولاده وبدينهم، وبعبادتهم، وفاء مع أبيهم أنشآ هذا المسجد، وسمياه مسجد الوفاء.

فيا أيها الإخوة، هذه الآية تحث كل الآباء والأمهات على أن يعتنوا بأولادهم عناية فائقة، فإذا أنشأت ابنك على طاعة الله، وشب على محبة رسول الله، وكان نظيفاً خلقاً وفكراً، وديناً واستقامة، وكان معطاءً فكل أعماله في صحيفتك، لذلك الإنسان يموت، ولكن إذا كان له صدقة جارية لا يموت.

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُه إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيةٍ. وَعِلْمٌ يُنْتَفِعُ بِهِ))

وَوَلَدٌ صَالِحٌ يدْعُو لَهُ "

[متفق عليه]

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

يعني ألحقنا بهم أعمال ذريتهم.

أيها الإخوة، أكاد أقول: إن أكبر أنواع النجاح أن تنجح في بيتك، لأن الزوجة والأولاد زادك إلى الآخرة، الذي يستطيع أن يتقي الله في أهله لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

(سورة التحريم الآية: ٦)

أنت مسؤول عن زوجتك وأولادك،

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

إذاً في شيئين في هذه الآية، الشيء الأول: أن تتقي أن تكون سبباً في معصية الله عز وجل لمن حولك، طبعاً إهمال الأب، عدم التدقيق، عدم المتابعة، البعد عن أسرته لفترة طويلة جداً، الغياب المديد عن البيت، هذا يجعل الأهل في حالة فوضى، وحالة عدم ضبط، لأن الأب هو الذي يربي فالبعد، والإهمال، وعدم المتابعة، وعدم الملاحظة، هذه تسبب تفلت من قبل الأولاد ومن قبل البنات والزوجة، لذلك يأتي قول الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

هذا الشيء السري، فأنت مكلف أن تمنع كل مخالفة في بيتك، وأن تمنع كل معصية في بيتك، وأن تكون فوق رأس أهلك، وأن تكون المرأة فوق رأس أولادها من أجل أن تضبطهم، وأن تحملهم على طاعة الله، وعلى السير وفق قواعد الشرع

ومع أن الصوارف عن الدين كثيرة، والعقبات كثيرة، لكن البطولة أن تستطيع وسط هذه الصوارف وتلك العقبات أن تحمي أهلك من معصية الله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

هذا المعنى الأول.

أما المعنى الثاني الإيجابي: أن هؤلاء الذين ربيتهم وأولادهم من بعدهم، وأولاد أولادهم إلى يوم القيامة كل أعمالهم الصالحة في صحيفة الأب الأول الذي رباهم.

لذلك هذه الآية أيها الإخوة، ينبغي أن تكون باعثاً لنا جميعاً على مضاعفة العناية بالأولاد،

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

من خلال ما أتلقى من مشكلات عبر الهاتف أو عبر رسالة أجد أن آباء كثيرين عندهم خلل في بيوتهم خطير، انحراف خطير، وهم لا يعلمون، وهم لا يسمعون، ولا يدققون، ولا يسألون، هؤلاء يحاسبون عند الله أشد الحساب،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

أما الشيء الإيجابي أنك إن استطعت أن تربي ابنك تربية إيمانية عالية، ربيته على طاعة الله، وعلى محبة الله، وعلى محبة أهل بيت رسول الله، ربيته على الاستقامة والعمل الصالح، وحب الخير، فكل أعمال هؤلاء الأولاد وذريتهم إلى يوم القيامة في صحيفتك من دون أن ينقص من أعمالهم من شيء.

هذه الآية أيها الإخوة كافية لتكون باعثاً لنا جميعاً على العناية بالأولاد.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٦١-٦٤) :المحبة المادية أصدق من المحبة المعنوية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٢-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، الله عز وجل حينما قال:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

(سورة آل عمران)

المحبة كما يصفها العلماء شيء معنوي لا يمكن إثباته، كلٌ يدعي أنه يحب الله عز وجل، فالدعوى سهلة جداً، وقد لا ينطوي قلب الإنسان على محبة لله، ويدّعي أنه يحب الله، فلذلك لأن دعوى المحبة يستطيعها كل إنسان، وينطق بها كل إنسان، ويدعيها كل إنسان، الله عز وجل طالب من ادعى محبته بدليل مادي، بدليل يُرى بالعين، بدليل ثابت،

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

إذاً لا يستطيع الإنسان أن يدعي حبَّ الله عز وجل وليس مطبقاً لسنة النبي عليه الصلاة والسلام، تعد دعواه كاذبة.

دليل آخر، هو أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ـ ما هي الثلاث ؟ ـ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما))

[متفق عليه]

وقف علماء الحديث عند هذا الحديث وقفة متأنية، لو سألت مسلمي الأرض المليار والثلاثة مئة مليون: ألا تحبون الله ؟ لن تستمع إلى جواب سلبي إطلاقاً، الكل يقول: نحن نحب الله، ولكن شراح الحديث رأوا أن هذا المعنى ينصرف إلى أن محبة الله تعني أن تطيعه فيما أمر، في أمر القرآن، أن يكون الله في قرآنه، والنبي في سنته أحب إليك من أي شيء آخر، عند التعارض، حينما تتعارض مصلحتك مع النص القرآني، وحينما تتعارض مصلحتك مع النص النبوي الصحيح، وتؤثر طاعة الله وطاعة رسول الله، وتضع مصلحتك المتوهمة تحت قدمك فأنت إذاً تحب الله.

فلذلك: ما عند الله جل جلاله لم يربط إلا بالعمل

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف الآية: ١١٠)

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة الآية: ١٠٥)

معنى ذلك أنه لن تستطيع أن تخدع الله ولا ثانية واحدة.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء الآية: ١٤٢)

يمكن أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، ويمكن أن تخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا من سابع المستحيلات، أما أن تخدع الله ونفسك لثانية واحدة فهذا من أشد المستحيلات.

فلذلك أيها الإخوة، لما كثر مدّعو محبة الله عز وجل طالب الله بالدليل، والدليل طاعة رسوله، ذلك لأن القرآن الكريم فيه أحكام عامة، وفيه قضايا عامة، وفيه توجيهات عامة، أما التفاصيل فجاءت بها السنة المطهرة، فلذلك هذا الذي يتوهم أنه يتبع ما في القرآن هو ليس بحاجة إلى ما في السنة هذا يكذب القرآن الكريم، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية: ٧)

إذاً الملمح الأول في قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)، أي إن المحبة شيء معنوي، هي حقيقة، ولكنها ليست شيئاً مادياً، هذه الطاولة لها وزن، ولها حجم، ولها لون، ولها طول، وعرض، وارتفاع، وأبعاد، وتشغل حيزاً مادياً، لكن المحبة في القلب لا تقاس بوزن، ولا بحجم، ولا بطول، ولا بعرض، ولا بارتفاع، ولا بلون، ولا بقساوة، ولا بحرارة، شعور داخلي، هذا الشعور يصعب إثباته، لذلك لما كثر مدّعو المحبة طولبوا بالدليل، والدليل يرى بالعين، الدليل أن تصلي كما صلى النبي عليه الصلاة والسلام، الدليل أن تغض بصرك، الدليل أن تضبط لسانك، الدليل أن تضبط دخلك، الدليل أن تضبط إنفاقك، الدليل أن تكون حيث أمرك، وأن يفتقدك الله حيث نهاك، الدليل أن تحرر دخلك من الحرام، الدليل أن تنفق مالك في وجوه الخير، الدليل أن يكون بيتك إسلامياً، الدليل أن يكون عملك إسلامياً، الدليل أن تكون البضاعة التي تتعامل معها مشروعة، الدليل أن تقيم علاقة حميمة مع إنسان بعيد عن الله عز وجل، الدليل أن تبحث لابنتك عن زوج مؤمن، لا عن زوج غني، ولا تعبأ بدينه.

فيا أيها الإخوة الكرام، المحبة شيء معنوي، شعور بالقلب، وكثيراً ما تُدعى، ولأنها تُدعى لم يكن دليلها شيئاً معنوياً آخر.

افتراضاً لو أن الحديث: من أحب الله فليحبني، دليل محبة الله معنوي، الدليل معنوي على ادعاء معنوي، معنوي بمعنوي، أما الآية فصريحة وحاسمة:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

فلذلك أيها الإخوة، هناك وهم عند بعض الناس، أنه يجد إنسان تارك الصلاة أو مرتكب معصية، يقول: لعله ولي لله، هذا كلام فارغ، هذا كلام فيه تضليل، هذا كلام فارغ، هذا كلام فيه لعب بالدين، المعصية معصية، والطاعة طاعة، والمعصية يحاسب عليها أي إنسان في أي زمان ومكان. فأحبابنا اختاروا المحبة مذهباً وما خالفوا في مذهب الحب شرعنا

الشرع فوق الجميع.

((إِنَّ اللَّهَ تَعالى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنهما].

إذاً أيها الأخوة:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

شيء آخر، هو أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أشار إلى المحبة أشار إلى نتائجها، فعلامة المحبة الطاعة، قال بعض العلماء: مستحيل أن تعرفه ثم لا تحبه، ومستحيل أن تحبه ثم لا تطيعه.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

الآن حينما ادعى اليهود والنصارى أنهم أحباب الله.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

بماذا رد عليهم الله عز وجل ؟

(فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: ١٨)

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى رأى أن الله جل جلاله لو قبل دعوى هؤلاء لما عذبهم، لأن الله لا يعذب أحبابه، ولكنه رفض دعواهم فقال:

(فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

لأن الله رفض هذه الدعوى عذبهم، ولو أنه قبل دعواهم لما عذبهم، لأنه يستنبط من هذه الآية أن الله جل جلاله لا يعذب أحبابه.

هذا الكلام أيها الإخوة ينفعنا جميعاً لئلا تقع في وهم، لئلا تقع في تصور خاطئ، لئلا تتوهم أنك مؤمن، وأنت لست كذلك، علامة محبتك طاعتك، علامة محبتك اتباع سنة نبيك، علامة محبتك أنك تعظم شعائر الله.

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢))

(سورة الحج)

إذاً موضوع المحبة ينبغي أن يربط بالدليل دائماً، المحبة يدعيها كل إنسان، ويتحدث عنها كل إنسان، ولكن كما قال الشاعر:

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

علامة المحبة طاعة الله عز وجل، لو رأيتم إنسانا يطير في الهواء، أو يمشي على وجه الماء، ولم يكن عند الحلال والحرام فلا تعبئوا به، الولاية لا أن تطير في الهواء، ولا أن تمشي على وجه الماء، ولكن أن يراك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٢-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة ورد في سورة ق:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)

(سورة ق الآية: ١٦)

الحقيقة أن الإنسان يكون أحياناً في حالة حوار داخلي، الحوار الداخلي إما أن يأتي إلهاماً من ملك، أو أن يأتي وسوسة من الشيطان، أو حديثاً من ذات الإنسان، إما حديث نفسي، أو إلهام ملك، أو وسوسة شيطان، ولكن الله جلت حكمته جعل لكل إنسان ملكاً يلهمه وشيطاناً يوسوس له، وهو مخير، ويجب أن يعلم الإنسان علم اليقين أن كل شياطين الأرض لا تستطيع أن تفعل شيئاً إلا أنها توسوس، بدليل أن الله عز وجل يقول:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢))

(سورة إبراهيم)

هذه الآية أيها الإخوة أصل في أن الشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً، كل فعل الشيطان أنه يوسوس. فلذلك أنت حينما تكون واثقاً أن الشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً، لكن هو يغوي ويوسوس، ويدعوك إلى معصية، ويزين لك الحرام، ويزهدك بطاعة الله عز وجل، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً مادياً، أي أن يحملك على معصية، أو أن يبعدك عن طاعة.

لذلك الشيطان يكتفي بأن يوسوس، والإنسان يستجيب أو لا يستجيب، ذلك لأن الإنسان مخير، فلابد من أن يأخذ موقفاً، معه وسوسة ومعه إلهام، والقصة التي أذكرها كثيراً: أن هذا الذي صعد المركبة، وأعطى السائق مبلغاً كبيراً، ورقة نقدية كبيرة، ورد له السائق مبلغاً أكثر من استحقاقه، وقال في نفسه: بما أنني إمام مسجد، وأنا مسلم ملتزم لا بد من رد المبلغ إلى السائق، لأنه ليس لي، هذا إلهام الملك، فلما جلس في المركبة جاءه خاطر آخر، هو في الحقيقة من وسوسة الشيطان، أن هذه الشركة ضخمة وعملاقة، ودخلها فلكي، والمبلغ يسير، لا يقدم ولا يؤخر، وأنت أيها الشاب في أمسّ الحاجة إليه، ولا عليك أن تأخذه، فهو هبة من الله، هذه وسوسة الشيطان، لذلك لما أراد هذا الراكب الإمام أن ينزل من المركبة دون أن يشعر أعطى السائق المبلغ الزائد وهو عشرون بنسًا،

فقال له السائق: ألست إمام هذا المسجد ؟ قال: بلى، قال: والله حدثت نفسي أن أزورك قبل يومين لأتعبد الله عندك، ولكنني أردت أن أمتحنك، لذلك هذا الشاب وقع مغشياً عليه، لأنه تصور عظم الجريمة التي كاد يقترفها لو أنه أبقى المبلغ في جيبه، وقال قولته الشهيرة: كدت أبيع الإسلام كله بعشرين بنساً.

إذاً الإنسان له ملك يلهمه، وله شيطان يوسوس له، وأنت مخير، فالذي يعرف الله، ويعرف ما وراء المعصية، وما وراء الطاعة، يلتزم جانب إلهام الملك، والذي يكون ضعيف المعرفة بالله، وضعيف المعرفة بالقوانين يلتزم جانب الوسوسة، فالإنسان يُمتحن إما في اتباع الملك في إلهامه، أو باتباع الشيطان في وسوسته، الآية الكريمة:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)

أيها الإخوة، الله عز وجل أقرب إليك من كل شيء،

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

يعني أقرب إليه من روحه، كل الخواطر التي تخطر على بالك إنما هي بعلم الله عز وجل، والدليل سيدنا زكريا، جاءت الآية الكريمة:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (٣))

(سورة مريم)

بإمكانك وأنت مطبق الشفتين أن تناجي الله عز وجل، بخواطرك، قضية مناجاة الله عز وجل، والدعاء، والاستعانة، والاستغاثة، والالتجاء إلى الله، يمكن أن تتم وأنت مطبق الشفتين،

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

فالآية :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨))

(سورة ق)

يعني كل حركة، وكل سكنة، وكل كلمة، وكل خاطرة هي مسجلة عليك ، فلذلك يوم القيامة يقول الإنسان:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ)

أيْ كتاب الإنسان.

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٤٩))

(سورة الكهف)

كل شيء مسجل.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

وأنت في خلوتك كل شيء مسجل عليك.

((من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله تعالى إذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله))

[رواه الحكيم عن أنس]

وعلامة إخلاص المؤمن أن سريرته كعلانيته، وأن سره كجهره، وأن خلوته كجلوته، إذاً:

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

أيها الإخوة الكرام، هناك أناس كثيرون لا يلتفتون إلى هذه المعاني التي وردت في القرآن الكريم، ملك عن يمينك، وملك عن شمالك، وأنت حينما تنهي الصلاة ماذا تقول ؟ السلام عليكم ورحمة الله السلام عليكم ورحمة الله، فهناك ملكان موكّلان بكتابة كل شيء،

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

فلذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

(الترمذي)

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة ـ كلمة واحدة ـ لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

نتابع:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩))

(سورة ق)

إخواننا الكرام، ما من حدث مستقبلي أشد وقوعاً وحتمية وواقعية ويقيناً من الموت، (ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)، لذلك حال أهل الجنة يتميز بالطمأنينة، أنت في الدنيا إذا كنت في بحبوحة فأنت في قلق مع البحبوحة، لأن هذه البحبوحة تزول عنك، أو أن تزول عنها، إما أن تزول أنت عن هذه النعمة بالموت، أو أن تزول عنك وأنت حي، نعمة البصر إما أن تزول عنك لا سمح الله ولا قدر، أو أن تزول عنها، لابد من الموت، لذلك أجمل أحوال أهل الجنة أنهم مطمئنون أن كل النعم التي هم فيها نعم أبدية دائمة لا تزول.

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨))

(سورة الحجر)

الآن في الدنيا قد يكون لك خصم عنيد، خصم قوي، خصم حاقد، خصم مؤذٍ، خصم يده طولى، فأنت تقلق قلقاً شديداً، أما في الجنة:

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧))

(سورة الحجر)

أجمل ما في الجنة الطمأنينة على أن هذه النعم لا تزول، وأجمل ما في الجنة هذا الإنس الذي بين المؤمنين، بين أهل الجنة:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١))

(سورة ق)

سائق يسوقها للحساب، وشهيد يشهد على كل فعل فعلته.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)

(سورة ق الآية: ٢٢)

لذلك أشد مرض يصيب الناس في دينهم الغفلة عن الله.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢))

أيها الإخوة، جميع البشر عندما يأتيهم الموت يرون الحقائق التي جاء بها الأنبياء، ولكن بعد فوات الأوان، والدليل فرعون، حينما أدركه الغرق قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩٠))

(سورة يونس)

إذاً خيارنا مع الإيمان خيار وقت، وليس خيار قبول أو رفض، الآن جاء الشاهد الذي بدأت به الموضوع.

(وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣))

(سورة ق)

قرينه من الشيطان.

(وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦))

(سورة ق)

هذا القرين أولاً سائق وشهيد، أولاً ملكان عن يمين وعن شمال،

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

ثانياً:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)

ثالثاً: هناك القرين الذي يقدم يوم القيامة كل أعمال الإنسان:

(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧))

(سور ق)

هذه الحقيقة الدقيقة، لا يمكن لمخلوق أن يضل مخلوقاً، إلا أن الذي أضل كما يبدو ظاهراً عنده رغبة للضلال، وعنده استعداد للضلال، وعنده اختيار للضلال،

(قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

هو أراد الضلال، إذاً يمكن أن نستنبط من هذا أن واحداً من الخلق لا يستطيع أن يغوي واحداً من الخلق، إلا أن الذي أغوي عنده رغبة في هذه الغواية.

(قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(٢٩))

(سورة ق)

هذا مشهد أيها الإخوة من مشاهد يوم القيامة، وهذا المشهد سوف يجري علينا جميعاً، فالبطولة أن تتكيف مع ساعة الموت وما يتلوها من حالات مسعدة للمؤمن وصعبة جداً للكافر، فلذلك لو أن الإنسان جاءه ملك الموت، وعرف مكانه في الآخرة لصاح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، فالتكيف يقتضي أن تتكيف، وتتوافق مع هذه النهاية التي لا بد منها.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٢-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

من لوازم المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، من لوازم المؤمن أنه يغار، فقد قال الله عز وجل:

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

[سورة الأعراف الآية: ٣٣]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنْ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنْ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

لا سمح الله ولا قدر، لو أنك تمشي في الطريق، ورأيت ابنك وابن أخيك وشابًّا ثالثًا لا تعرفه، الثلاثة يدخنون، تشعر بغليان اتجاه ابنك، وتتألم أشد الألم لهذا الانزلاق في التدخين، وقد تصرخ في وجهه، وقد تعنفه، وقد تضربه، بينما ابن أخيك تكون معه أقلّ حدة من ابنك، تعاتبه، لكن الشاب الثالث تقول له: انصرف، الغيرة: أن تشعر أن إنساناً يلوذ بك ألمّ به مكروه، أو زلت قدمه، أو مشى في طريق الشقاء، هذه الغيرة.

هل يغار الله؟ :

ولله المثل الأعلى، الله عز وجل يغار أن نعبد غيره، يغار أن نعصيه، مفهوم الغيرة تنطلق من الرحمة، وتنطلق من المحبة، لأن الله سبحانه وتعالى جعل أساس العلاقة بينه وبين عباده المحبوبية، يحبهم ويحبونه، ولو أراد الله عز وجل لهذه العلاقة أن يكون أساسها السيطرة، لحمل الناس جميعاً على الهدى، قال تعالى:

(لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً)

[سورة الرعد الآية: ٣١]

والقضية سهلة جداً، لو أن هذا الهدى يكون قسرياً لا يسعد به إنسان، أرادك الله عز وجل أن تأتيه طائعاً، أن تأتيه مختاراً، أن تأتيه بمبادرة منك، فلذلك: أساس العلاقة بينك وبين الله علاقة الحب، أو علاقة المحبوبية، بشكل مصطلحي، ف:

إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه.

ما معنى هذا الحديث: (إن الله يغار ....)؟ :

مثل آخر: لو أنك مدير مؤسسة، أعلنت في الصحف أنها بحاجة إلى موظف تحت التدريب، واخترت واحداً من هؤلاء المتقدمين، أعطيت توجيهاً لمن حولك أن تسجل عليه كل حركة وسكنة، متى يأتي؟ متى يذهب؟ لو كلفناه بعمل كم يغيب؟ انضباطه؟ هندامه؟ كلامه مع العملاء كيف؟ لا يشعر هذا المدير بعاطفة نحو هذا الموظف، إلا أن علاقته به علاقة إحصاء أخطاء، فإذا تراكمت، وبلغت حجماً لا يحتمل صرفه من المؤسسة، لكن لو أن هذا الموظف هو ابن صاحب المؤسسة، فإذا أخطأ يعنفه أشد التعنيف، يحاسبه عن خطيئة خطيئة، واحدة واحدة، ولا يدخر له العتاب إلى اليوم التالي من شدة الغيرة، فالله عز وجل كما قال عليه الصلاة والسلام ، وهو لا ينطق عن الهوى:

إن الله يغار ....

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَالْمُؤْمِنُ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ))

المؤمن يغار أن يرى الناس حوله متفلتين، أن يرى الناس حوله لا يوقرون الله عز وجل، ينتهكون حرمات الله، لا يستقيمون على أمر الله، لا يقيمون للعبادات وزناً، من شدة محبته لله، ومن شدة رحمته لمن حوله يغار عليهم أن يعصوا الله عز وجل، لذلك:

عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:

((خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، قَالَ: لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

البكاء الكثير دليل غيرة النبي -عليه الصلاة والسلام- على أمته، وكلما ارتقى موقع الإنسان عند الله تتسع دائرة غيرته، قد تتألم من مسلم يعصي الله، ولكن قد لا تتألم أبداً من كافر ينتهك حرمات الله عز وجل، لكنه كلما ارتقى مقامك عند الله، تتسع دائرة الغيرة لتشمل الخلق جميعاً.

فالنبي -عليه الصلاة والسلام- بوصف الواصفين: كان أرحم الخلق بالخلق.

أرحم الخلق بالخلق هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هذا معنى:

((إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَالْمُؤْمِنُ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ))

ما الحكمة من هذه المعالجات الإلهية على العباد جميعاً وعلى المؤمنين خاصة؟ :

لذلك: كانت المعالجات الإلهية، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة الآية: ٢١]

من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى، إلى غيرة الله عز وجل:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١٥٥-١٥٧]

إذاً: من غيرة الله عز وجل على عباده جميعاً، وعلى المؤمنين خاصة: أنه يسوق لهم من الشدائد ما يحملهم على طاعته والتوبة إليه، من هنا نفهم قوله تعالى:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٧]

يعني تقتضي رحمته ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين الذين أجرموا، وسلكوا طريق شقائهم الأبدي، لذلك يتولاهم الله بالعلاج، هذا معنى قول النبي -عليه الصلاة والسلام-:

((إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَالْمُؤْمِنُ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ))

هل ترتبط الغيرة بالإيمان؟ :

وفي قول آخر للنبي -عليه الصلاة والسلام-:

((أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي))

والحقيقة: أن الغيرة مرتبطة بالإيمان، وعدم المبالاة مرتبط بالبعد عن الله عز وجل، تجد إنساناً من حديثه اليومي -يستحقون-، لا يشعر برحمة أبداً لما يصيب المسلمين، وكأنه ليس منهم، لا يحس بألم إذا رأى مصائب تترى على بعض المؤمنين، قد لا يتألم لو رأى بعض مناظر القتل والتدمير، وأنا أعجب أشد العجب كيف يروق للمسلمين أن يقيموا حفلات غناء، وأن يقيموا سهرات طرب إلى منتصف الليل، وأخوانهم المسلمون يذبحون ويقتلون؟ لا غيرة عند هؤلاء!؟

لذلك الإنسان المؤمن ينتمي إلى مجموع المؤمنين، بينما الإنسان المتفلت ينتمي إلى شهوته فقط، فما دامت شهوته محققة فعلى الدنيا السلام، هكذا قيل: من بعدي الطوفان.

من معاني هذه الآية :

مما يدخل في الغيرة: أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً)

[سورة الإسراء الآية: ٤٥]

من أدق المعاني في هذه الآية: أن الذي لا يؤمن يغار اللهُ أن يعلّمه علماً، فأكبر عقاب يعاقب به المتفلت: أن الله يحجبه عن العلم، وعن رحمته.

وقد ورد في بعض الأحاديث: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية.

وحينما شكا الشافعي إلى شيخه سوء حفظه قال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فـأرشدني إلى ترك المعاصي

وأنبأني بأن العـــلم نور ونور الله لا يهدى لــعاص

كلما اقترب الإنسان من الله عز وجل، هتك الحجاب بينه وبين الله، وكلما ابتعد عن الله عز وجل، يعاقب بهذا الحجاب.

أنواع الغيرة :

١-غيرة من الشيء :

الحقيقة: أن الغيرة كما قال عنها بعض العلماء هي نوعان؛ غيرة من الشيء، وغيرة على الشيء، الغيرة من الشيء: كراهة أن يزاحمك أحد فيما أنت فيه.

- وهذه صفة أهل الدنيا، لا يحتملون أن يكون أحد معهم متفوق، إذا تفوق دون أن يشعر، بل وبعقله الباطن يحطم كل من حوله، بينما المؤمن يحلو له أن يكون المتفوقون جمعاً كثيراً، هذا يقربه من الله عز وجل.

هل يمكن لجامعة بكل الأموال الطائلة والملايين المملينة من أجل أن تخرِّج واحدًا؟ الأصل أن يتخرج كل الطلاب، وأن تقدم للأمة قادة كبارًا.

هناك مفهوم أنا أعده تخلفاً في الإنسان، التوحد أنه إنسانًا وحيدًا فقط لا يقبل إنسانًا آخر، مؤمن هو المؤمن، أو جماعته المؤمنون، وكل فئة أخرى ساقطة من نظره، هذا مفهوم مرضي، أساسه حب الذات، إلى درجة المبالغة، أما أن ترى أناساً طيبين، متواضعين، مستقيمين، نقيين، لهم عند الله مكانة كبيرة، لهم نيات طيبة، هذا يدعم الحق، الحق لم يأت على إنسان واحد، الأصل أن ينجح كل

الطلاب، في التعليم الأصل أن ينجح كل الطلاب، لا أن ينجح واحد، والمجموع يرسب، هذه غيرة من الشيء، لكن أساسها ضعف العلم، قال تعالى:

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: ١٩]

بغياً؛ أي حسداً، فالحسد والغيرة والتنافس على الدنيا يسبب الاختلاف، فالغيرة من أحد مظاهر حب الذات، وأحد مظاهر البعد عن الله عز وجل، هذه لا علاقة لها بهذا الدرس-.

٢-غيرة على الشيء :

أما الغيرة على الشيء: فشدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك، أو يشاركك الفوز به.

إذا كنت واثقاً من نفسك فأنت في أعلى درجات الكمال، وبإمكانك أن تعطي هذا الإنسان كل خير، فإذا رأيته انصرف إلى غيرك تغار عليه، طبعاً هذا المعنى يليق بالذات الإلهية، الله عنده كل شيء، عنده كل سعادة الدنيا والآخرة، العطاء منه فقط، والرحمة منه، فإن رأى عبداً من عباده انصرف إلى غيره يغار عليه، لذلك إن صح التعبير: سياسة الله مع الذين يتجهون إلى غير الله، سياسة أن يحبط مسعاهم.

شيء عجيب! يسعى لإرضاء زيد أو عبيد، أو لاحتلال مكانة عند فلان أو علان، حينما يرى الله منه انصرافاً إلى غيره، ويعلم أنه على خير، لكنه زلت قدمه، ماذا يفعل الله معه؟ يلهم هذا الذي سعى إليه أن يكون لئيماً معه، أو أن يقابل لهفته بتجاهل، أو إقباله بإعراض، هذا شيء من فعل الله عز وجل، فلعل هذا الذي أشرك بالله، وانصرف إلى غيره، تصيبه صدمة محبطة، فيعود إلى الله عز وجل، لذلك خذوا هذه القاعدة:

أي جهة تتوجه إليها، تطمع بما عندها، أو تخشى من بطشها، وتنسى الله معها، هذه الجهة ينبغي أن يأتيك منها شر كبير؛ رعاية من الله لك، ومعالجة من الله لك.

من أسرار التوحيد :

لذلك: هناك حكمة لا صحة لها إطلاقاً، إلا أنها في حال واحد تصح:

اتق شر من أحسنت إليه.

إن أحسنت لإنسان، ونسيت الله عز وجل، ونسيت أن الفضل بيد الله عز وجل، وأشركته مع الله، وأحببته، بل أطعته في معصية الله، فاعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الإنسان سوف ينالك منه أذى

بتوجيه من الله عز وجل، كي تبتعد عنه، وتؤوي إلى الله عز وجل، لعل هذا من أسرار التوحيد، و:

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

اطمئن إلى أنه ما دام الله يتابعك، ويدقق على سلوكك، ويعالجك من حين إلى آخر، فهذه بشارة طيبة، تعني أنك مطلوب من قبل الله عز وجل، وأن علم الله بك أنك مؤهل لتنال رحمته، فلذلك المؤمن يصبر على معالجة الله له، يصبر، بل يشكر، و:

إذا أحب الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن شكر اقتناه.

وعد ذلك معالجة إلهية، قال تعالى:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٧٩]

ما كان الله ......، لذلك: الدعاء الرائع أن تقول: يا رب عالجني قبل أن أموت.

أن ترى أن الله إذا تدخل وعالجك، فهذا جبر خاطر لك، هذا دليل أن فيك الخير، لكن الذي يخرج من عناية الله المشددة، ويشرد على الله شرود البعير، هذا يعطيه الله ما يشتهي، ثم يقصمه قصما واحدًا.

أيها الأخوة، هذا أبرز ما في موضوع الغيرة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٦٤-٦٤) :تعظيم الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٢-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

من لوازم المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، من لوازم المؤمن أنه يعظم الله عز وجل، وقد قال الله عز وجل:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج الآية: ٣٢]

مرة ثانية ألح عليكم في هذا المفهوم: الله عز وجل حينما يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب الآية: ٤١]

التركيز لا على الذكر، بل على الذكر الكثير، لأن المنافقين يذكرون الله قليلاً، إذاً: قال تعالى:

(ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب الآية: ٤١]

هذه مقدمة.

كيف نعظم الله؟ :

الآن: حينما قال الله عز وجل:

لم ينفِ عنه الإيمان بالله، بل نفى عنه الإيمان بالله العظيم، فالتركيز هنا لا على الإيمان بالله، إبليس آمن بالله، التركيز على الإيمان بالله العظيم، لذلك يقول الله عز وجل:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً)

[سورة نوح الآية: ١٣]

لمَ لا توقرون الله؟ والحقيقة: أن الوقار متعلق بالتفكر، لأن الله عز وجل يقول:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

[سورة المرسلات الآية: ٥٠]

ما من طريق إلى الإيمان بالله إلا التفكر في خلق السموات والأرض، فلذلك قال تعالى:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً)

[سورة نوح الآية: ١٣]

هذه تفهم من قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر الآية: ٢٨]

ولو توقفنا عند كلمة إنما، فهي تعني أن العلماء وحدهم، ولا أحد سواهم يخشى الله، فحجم خشيتك بحجم معرفتك.

ضربت على هذا أمثلة كثيرة سابقاً: أنت حينما تأتيك بطاقة من البريد: أن تعال يوم الخميس، واستلم رسالة مسجلة، بالتأكيد لا تتحرك شعرة في جسمك إطلاقاً، ولا تقلق، وقد تذهب، وقد لا تذهب، وتأتيك بطاقة من جهة أخرى: أن تعال يوم الخميس للقاء معين، فلا تنام الليل، ما الفرق بين البطاقتين؟

الآن: أنت حينما تعرف من هو الله، وماذا عنده لو أطعته، وماذا ينتظرك لو عصيته، لعددت للمليون قبل أن تعصيه، فالمشكلة أنه:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً)

[سورة نوح الآية: ١٣]

ولا تجعل الله أهون الناظرين إليك.

إذاً: التعظيم أن ترجو لله وقارا، أن تقول: إني أخاف الله عز وجل، التعظيم أن ترى أن الله بيده كل شيء.

كيف يوقر المؤمن الله؟ :

الحقيقة: أن عندنا معنيين أساسيين في هذا الموضوع: أن المؤمن يوقر الله من خلال معنيين؛ من خلال إجلال الله، ومن خلال محبة الله، الله عز وجل له أسماء حسنى، هذه الأسماء الحسنى ينبغي أن تدعوك إلى محبته، وله عقاب أليم، وهذا العقاب الأليم ينبغي أن تخافه، وحينما قال بعض الأنبياء:

يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ فقال: أحب عبادي إلي: تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب، إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي.

ينبغي أن يكون في قلب المؤمن تعظيم لله من خلال آياته الكونية، ومحبة له من خلال نعمه الجزية، وخوف منه من خلال عقوباته المؤلمة، فلا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم وحب وخوف.

أنواع الغلو في الدين :

١- نوع يخرج الإنسان عن كونه مطيعاً بالتجاوز أو غلو الزيادة :

أولاً: يتنافى مع التعظيم الغلو في الدين، والغلو في الدين كما قال العلماء نوعان: نوع يخرج الإنسان عن كونه مطيعاً بالتجاوز، بالتنطع، يصلي أكثر من الفريضة، يصوم الدهر، هذه عبادات لا ترضي الله عز وجل.

عَن ابْنِ عُمَرَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ))

[أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، والبزار في مسنده، والإمام أحمد في مسنده]

فالعبادة إذا كانت وفق عبادة النبي -عليه الصلاة والسلام- كانت طاعة، أما حينما يتزيد الإنسان فهي غلو.

لما بلغ النبي -عليه الصلاة والسلام- أن بعض أصحابه زهد في الدنيا، جمعهم وذكرهم.

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَقُولُ:

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

إذاً: نحن نعتقد أن الغلو في الدين أحياناً غلو زيادة، قال تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

[سورة النساء الآية: ١٧١]

غلو الزيادة تفريغ الأمر من مضمونه، جعله أمر خرافي، أمر غير واقعي، أمر فيه مبالغة، وأنا والله أرى وأستمع إلى عدد كبير من الشباب، أحياناً الإسلام كله يضغط في شكل لا في جوهر، لا في عقيدة صحيحة، لا في التزام، لا في محبة، في شكل فقط، فهذا الذي يختصر الإسلام كله في شيء طويل، وشيء قصير، وبحركات معينة، الدين كله ينقلب إلى حركات، وإلى طول، وإلى

قصر، أما العقيدة السليمة، الأخلاق الرضية، العطاء، البذل، المحبة، التزكية، جوهر الدين بعيد عنه، وقد تعلق بقشور لا تقدم ولا تؤخر.

من الغلو في الدين :

مرة ذكرت في خطبة إذاعية: أن إنساناً كبيراً في السن صلى إلى جانبه شاب تبدو عليه علامات التدين، يبدو أن الشيخ أعجبته صلاة هذا الشاب، في نهاية الصلاة دعا له أن يرزقه الله صلاة في بيت الله الحرام، -وثمة دعاء يقول أحدهم لأخيه المؤمن عقب الصلاة: حرماً، يعني ادع الله أن يرزقك صلاة في بيت الله الحرام-، فهذا الشاب بحسب برنامجه، جحظت عيناه، واصفر وجهه، وشخص ببصره، وكلم هذا الشيخ كلاماً قاسياً جداً، قال له: هذه الكلمة لم ترد في السنة، فقال له الشيخ: وهل ورد في السنة قلة الذوق؟

أحياناً تجد غلظة وفظاظة، وقسوة وتعلق بأشياء جزئية جداً، والدين عنده أصبح حركات وسكنات، أما العقيدة السليمة، التوكل، المحبة، الدعوة إلى الله، خدمة الخلق، الأخلاق الرضية، هذه كلها غفل عنها، فهذا غلو في الدين، قال تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

[سورة النساء الآية: ١٧١]

هذا غلو زيادة.

أحدهم أراد أن يحرم قبل الميقات، قال له أحد الصحابة الكرام: لا تفعل ذلك، قال له: أنا في عبادة، وما يمنعني أن أفعل؟ قال: تقع في فتنة، قال: ما الفتنة؟ قال له: وهل من فتنة أكبر أن ترى نفسك سبقت رسول الله؟.

هل يتناقض غلو الزيادة مع تعظيم الله عز وجل؟ :

غلو الزيادة غلو يتناقض مع تعظيم الله عز وجل، فأحياناً هناك تطبيقات في الأوامر فيها غلو، غلو لا يناسب تعظيم الآمر، بل يناسب أن تستهزئ به، أحياناً مثلاً يقول لك: هناك سمسمة بين أسناني، هل أفطرت أستاذ؟ يكون نهاره في الغيبة والنميمة، وإطلاق البصر، ويقلق من أجل سمسمة بين أسنانه!! هذا غلو زيادة، غلو تنطع، لذلك:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ))

الإنسان يصلي ما دام نشيطاً، أما إذا أراد أن يصلي النفل وهو في تعب شديد جداً، فالله ما أراده أن يصلي هكذا صلاة، وهو نائم، وهو متعب، يتمنى أن تنتهي، طبعاً أقول الفرائض لا مجال إطلاقاً، لذلك:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:

((دَخَلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَبْلُ؟ قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، والنسائي في سننه]

يعني ما دام نشيطاً، فإذا فترت همته فليرقد.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، قَالَهَا ثَلَاثًا))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود في سننه]

أي الذي يبالغ في العبادة حيث يخرجها عن المألوف.

أنت مسافر، والنبي سمح لك أن تقصر في الصلاة؟ لا، الصلوات تامة في السفر، هذا تنطع:

((هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، قَالَهَا ثَلَاثًا))

وهم المتعمقون المتشددون، تشدد في غير محله، هناك تشدد في محله، لكن هناك تشدد في غير محله.

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:

((كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَصِيرٌ، وَكَانَ يُحَجِّرُهُ مِنْ اللَّيْلِ، فَيُصَلِّي فِيهِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ، فَثَابُوا ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ مِنْ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا))

وإن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، لا تبغضن إلى نفسك عبادة الله.

في التعب الشديد: صلِ الفرائض والسنن الراتبة، كنت تصلي قيام الليل أو الضحى لفترة كنت نشيطاً فيها، لكن مع التعب الشديد، مع العمل الاستثنائي كلفت به، لا تكلف نفسك ما لا تطيق، يعني لا تبغض إليك عبادة الله عز وجل، وأحياناً تقصير في العبادة أيضاً، هذا من عدم تعظيم الله عز وجل.

٢- غلو نقص :

عندنا غلو زائد، وغلو نقص، صلاته غير متقنة، سنن لا يصليها، بصره غير منضبط، لسانه غير منضبط، هذا أيضاً يشير إلى عدم تعظيم الله عز وجل.

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن ذنبه كجبل جاثم على صدره، والمنافق ذنبه كالذبابة))

فكلما عظم الذنب عندك، صغر الذنب عند الله عز وجل، وكلما صغر الذنب عندك، كبر الذنب عند الله.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس